الموجز من تفسير الأمثل

جزء عم

عماد الكاظمي

الكتاب: الموجز من تفسير الأمثل.
المؤلف: عماد الكاظمي.
الناشر : جمعية "أبو طالب" عليه السلام العراق – الكاظمية المقدسة.
المطبعة: مكتب المصادر / بغداد.
الطبعة: الأولى.
تأريخ الطبع : ١٤٣٢هـ ٢٠١١م
العدد : (٢٠٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين.

القرآن الكريم هو المعجزة الإلهية الخالدة التي أوحى الله تعالى بها إلى نبيه ﷺ، وهو الدستور السماوي الذي يتكفَّلُ بتحقيق سعادة الإنسان في الدارين –الدنيا والآخرة– والذي "لا عِوَجَ فيه" كما وصفه تعالى، ولأجل هذه الغاية العظيمة كان يجب علينا –المسلمين خصوصاً– معرفة أسرار هذا الكتاب وعظمته بعد الإيمان المطلق بأنه الكتاب السماوي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لما لهذه المعرفة من أبعاد كبيرة في فتح القلوب والعقول نحو الآيات البينات التي تهدي الإنسان إلى حقيقةِ خلقهِ والغاية من ذلك، ولذا كان لا بد لنا من دراسة القرآن الكريم دراسةً عميقةً لمعرفة تلك الأسرار. وأول هذه الخطوات في طريق المعرفة القرآنية هي معرفة تلاوته ومفردات معانيه للتعمق بعد ذلك في علومه التي أبهرت العقول، وقد اهتمَّ المسلمون منذ زمن نزول القرآن الكريم بتفسيره ومعرفة معانيه إلى يومنا هذا، وقد تعددت المذاهب التفسيرية للقرآن الكريم فكان منها الروائي الذي يعتمد الروايات المأثورة ومنها اللغوي والفلسفي والعرفاني ومنها ما جمع بين كل ذلك، حتى امتلأت المكتبة الإسلامية بالمصادر التفسيرية للقرآن الكريم خاصة، وما يتعلق بعلوم القرآن عامة.

ولأجل التعرُّف على القرآن الكريم تم اختيار هذه الصفحات لتفسير الجزء الثلاثين اعتماداً على كتاب (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي لكونه من التفاسير الحديثة التي جمعت بين المذاهب التفسيرية الروائية واللغوية والأخلاقية والعلمية إضافة إلى سهولة أسلوبه في التعرُّف على المباحث القرآنية التي تتكفل كل سورةٍ ببيانها، لتكون منهجاً للإخوة الطلبة في معهد الشيخ المفيد للإرشاد الإسلامي، حيث وُفِّقنا بفضل الله تعالى لتدريسه.

وقد اعتمدنا في ذلك على غاية الاختصار في التعرُّفِ على مباحثه، حيث لم يتم التطرُّق إلى معاني كل كلمةٍ وما قيل فيها من التفاسير المختلفة، بل الاعتماد في التعرُّف على كيفيةِ تقسيمِ كُلِّ سورةٍ إلى مباحثها المهمة والخوض فيها، إضافة إلى اختصار بعض المباحث وما يتناسب ومنهج الدراسة، وقد قَدَّمنا لهذه الدروس التفسيرية مقدمات ست قبل الخوض في التفسير، ليكون الطالب على إحاطة موجزة ببعض ما يتعلق بتفسير القرآن الكريم.

نسأله تعالى أنْ يوفقنا لذلك ويتقبله بأحسن قبوله إنه سميع مجيب

عماد الكاظمي

الكاظمية المقدسة

١ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

مقدمات تفسيرية

المقدمة الأولى / معنى القرآن، وأسماؤه الأخرى

القرآن (لغةً): قرأ الكتابَ قراءَةً وقُرءاناً بالضم، وقرأ الشيءَ قُرءاناً بالضم أيضاً جمعهُ وضمَّهُ ومنه سُمِّي القرآنُ لأنه يجمَعُ السُّورَ ويَضُمُّها ..... (١)

القرآن (اصطلاحاً) هو الكلامُ المُعْجِزُ المُنْزَلُ وحياً على النبي ﷺ المكتوبُ في المصاحف المنقول بالتواتر المُتَعَبَّدُ بتلاوته. (٢)

أسماؤه

* **القرآن / قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ يس ١-٢، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ الإسراء / ٩

* **الكتاب / قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ آل عمران١ - ٢

* **الفرقان / قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان / ١

* **الذكر / قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ الأنبياء /٥٠

وهناك أوصاف عدة للقرآن الكريم لا أسماء مثل:

– **المجيد / قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ البروج / ٢١

– **العزيز / قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ ﴾ فصلت / ٤١

معنى أسماء القرآن

*** القرآن / فالقرآن مصدر القراءة وذلك لحفظه في الصدور من كثرةِ قراءته وترداده على الألسن.**

*** الكتاب / قيل هو جمع الكلام الكريم في السطور لأنَّ الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ، وقيل هو إشارة إلى الترابط بين مضامينهِ ووحدتها في الهدف والاتجاه بالنحو الذي يجعل منه كتاباً واحداً.**

*** الفرقان / أي إنَّ القرآن هو الذي يُفَرِّقُ به بين الحق والباطل، باعتباره المقياس الإلهي للحقيقة في كل ما يتعرض له من موضوعات.**

*** الذكر / ومعناه الشرف. (٣)**

---

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي.

(٢) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر.

(٣) المصدر نفسه.

المقدمة الثانية / أحاديث في فضل القرآن الكريم

وردت في السنة المباركة أحاديث كثيرة في فضل القران الكريم، فمنها ما ورد في فضله عامة، ومنها ما ورد في فضل تلاوته، ومنها ما ورد في الحث على دراسته والتدبر فيـــه، وأخرى ما ورد في حمله والعمل به، وأخرى ما ورد في الحث على حفظه .... وغير ذلك من الغايات المباركة، ونحن نذكر بعض الأحاديث الشريفة لهذهِ الأبواب.

في فضل القرآن الكريم :

*** روي عن النبي ﷺ: (فضلُ القرآنِ على سائرِ الكلامِ كفضلِ اللهِ على خلقهِ) (١)**

*** روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: واعلموا أنَّ هذا القرانَ هو الناصحُ الذي لا يَغُـــشُّ، والهادي الذي لا يُضِلُّ، والمُحَدِّثُ الذي لا يُكَذِّبُ، وما جالسُ هذا القرآنَ أحدٌ إلا قامَ عنهُ بزيادةٍ أو نقصانٍ، زيادةٌ في هدىً ونقصانٌ من عَمىً، واعلموا أَنهُ ليسَ على أحدٍ بعد القرآنِ من فاقةٍ. (٢)**

في فضل تلاوة القرآن الكريم

*** روي عن النبي ﷺ: مَنْ قَرأ حرفاً مِنْ كتابِ الله تعالى فلهُ حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالها، لا أقول ألم، حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف. (٣)**

*** روي عن النبي ﷺ: إنَّ هذه القلوبَ تَصدأ كما يصدأُ الحديد، قيل: يا رسولَ اللهِ فما جلاؤها ؟**

قال: تلاوة القرآن. (٤)

---

(١) ميزان الحكمة عن بحار الأنوار

(٢) نهج البلاغة الخطبة. (الفاقة) فقر وحاجة إلى هادٍ سواه يرشده إلى مكارم الأخلاق.

(٣) البيان في تفسير القرآن.

(٤) ميزان الحكمة عن كنز العمال.

في فضل تعلم ودراسة القرآن الكريم

* روي عن النبي ﷺ: إنْ أرَدْتُم عيشَ السعداءِ وموتَ الشهداءِ، والنجاةَ يومَ الحسرةِ، والظلَّ يومَ الحرورِ، والهُدى يومَ الضلالةِ، فادْرُسوا القرآنَ، فإنَّ فيه كلامَ الرحمنِ، وحرزاً من الشيطان، ورجحاناً في الميزان. (١)

* روي عن النبي ﷺ: ما اجْتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلونَ كتابَ الله ويتدارسونَهُ بينهم، إلا نَزَلَتْ عليهِمُ السكينَةُ، وغشيتهُمُ الرحمةُ، وحفَّتهُمُ الملائكةُ، وذكَرَهُمُ اللهُ فيمَنْ عندَهُ. (٢)

في فضل حمل القرآن الكريم

* روي عن النبي ﷺ: حملةُ القرآنِ همُ المعلَّمونَ كلامَ اللهِ، والمتلبِّسون بنورِ الله، مَنْ والاهُمْ فقد والى الله، ومَنْ عاداهم فقد عادى الله. (٣)

* روي عن النبي ﷺ: حامِلُ القرآنِ حامِلُ رايةَ الإسلام، مَنْ أكرمَهُ فقد أكرمَ الله، ومَنْ أهانَهُ فعليهِ لعنَةُ الله عز وجل. (٤)

في فضل حفظ القرآن الكريم

* روي عن النبي ﷺ: مَنْ أعطاهُ اللهُ حِفْظَ كتابهِ فظنَّ أنَّ أحداً أُعْطِيَ أفضلَ مما أُعْطي فقد غَمطَ أفضلَ النعمة.(٥)

* روي عن الإمام الصادق عليه السلام: الحافِظُ للقرآنِ، مَعَ السَفَرَةِ الكرامِ البررة. (٦)

---

(١) ميزان الحكمة عن بحار الأنوار.

(٢) المصدر نفسه عن كنز العمال.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ميزان الحكمة عن الكافي.

المقدمة الثالثة / الإعجاز القرآني

إنَّ القرآن الكريم هو المعجزة الإلهية الخالدة التي جاء بها النبي عليه السلام لهداية قومه.

وقد اشتمل على نواحٍ إعجازيةٍ عدة أثبتت للمشركين صدْقَ دعوةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بهذا الدين الذي جاء به. ومن تلك المجالات الإعجازية للقرآن الكريم:

١- الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

٢- الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم.

٣- الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

٤- الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم في تنظيم الحياة الإنسانية المتكاملة.

وهناك مجالات أخرى ....

والمجال الأعظم الذي ظهر جلياً في القرآن الكريم بلاغته العالية، وفصاحته الراقية، التي أعجزت أئمة البلاغة – يومها – أنْ تتحدى نصوصه وألفاظه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك التحدي القرآني للمشركين فكان على مراحل ثلاث:

- **المرحلة الأولى** / الإتيان بمثل هذا القرآن – أي قرآناً كاملاً– قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء / ٨٨
- **المرحلة الثانية** / الإتيان بعَشْر سورٍ من القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ هود / ١٣
- **المرحلةالثالثة** / الإتيان بسورةٍ واحدة فقط، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة / ٢٣

وهذه الآيات القرآنية المباركة تحتاج إلى تأملٍ عميقٍ لنعرف أسرار هذا التحدي !!

فإنَّ المشركين بكل طبقاتهم العلمية وقفوا أمام هذه الكلمات وقفةَ عجزٍ وانْحسارٍ أمام السر الإلهي لعظمةِ كلمات القرآن الكريم، ولذا بالغوا مبالغةً كبيرةً في اتهام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليُبعِدوا الناس من أنْ يتأثروا بدعوته المباركة، ولذلك آثروا قَتْلَ أنفسهم دون الاعتراف بعظمة هذه الدعوة، وسر وبلاغة هذا القرآن الكريم.

يقول السيد أبو القاسم الخوئي رحمه الله في كتابه (البيان في تفسير القرآن) تحت عنوان (القرآنُ معجزةٌ إلهيةٌ): (قد علم كلُّ عاقلٍ بَلَغَتْهُ الدعوة الإسلامية، أنَّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بشَّرَ جميع الأمم بدعوتهم إلى الإسلام، وأقام الحجة عليهم بالقرآن، وتحدّاهم بإعجازه، وطلب منهم أنْ يأتوا بمثله وإنْ كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، ثم تنزَّلَ عن ذلك فطلب منهم أنْ يأتوا بعشرِ سورٍ مثله مفتريات، ثم تحدَّاهم إلى

الإتيان بسورة واحدة، وكان من الجدير بالعرب – وفيهم الفصحاء النابغون في الفصاحة – أنْ يجيبوه إلى ما يريد، ويسقطوا حجته بالمعارضة، لو كان ذلك ممكناً غير مستحيل. نعم كان من الجدير بهم أنْ يعارضوا سورةً واحدةً من سور القرآن، ويأتوا بنظيرها في البلاغة، فيسقطوا حجةَ هذا المدَّعي الذي تحدَّاهم في أبرع كمالاتهم، وأظهر ميزاتهم، ويسجِّلوا لأنفسهم ظهور الغلبة وخلود الذكر، وسموّ الشرف والمكانة، ويستريحوا بهذه المعارضة البسيطة من حروبٍ طاحنةٍ، وبذلِ أموالٍ، ومفارقةِ أوطانٍ، وتحملِ شدائد ومكاره، ولكنَّ العربَ فكَّرَتْ في بلاغة القرآن فأذعنتْ لإعجازه، وعلمتْ أنَّها مهزومةٌ إذا أرادت المعارضة، فصدَّقَ منها قومٌ داعي الحق، وخضعوا لدعوة القرآن، وفازوا بشرف الإسلام، وركب آخرون جادَّة العناد، فاختاروا المقابلة بالسيوف على المقاومة بالحروف، وآثروا المبارزة بالسنانِ على المعارضةِ في البيان، فكان هذا العجزُ والمقاومةُ أعظمَ حجةٍ على أنَّ القرآنَ وحيٌ إلهيٌّ خارجٌ عن طوقِ البشر). (١)

فهذا دليلٌ يثبت العجز المطلق للمشركين وغيرهم بمقابلة القرآن الكريم رغم منزلتهم الرفيعة في البلاغة والفصاحة والأدب، وقد اشتهروا بذلك.

ولقد كان المرء يقدَّر عندهم، وتوضع له المنزلة في قومه على أساس البلاغة والفصاحة التي يمتلكها، حيث يقول ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة: (وأما العرب فقد برعت في البلاغة، وامتازت بالفصاحة، وبلغتْ الذروة في فنون الأدب، حتى عقدت النوادي وأقامت الأسواق، للمباراة في الشعر والخطابة، فكان المرءُ يقدَّرُ على ما يحسنه من الكلام، وبلغ من تقديرهم للشعر أنْ عمدوا لسبعِ قصائد من خيرةِ الشعرِ القديم، وكتبوها بماء الذهب في القباطي، وعلِّقت على الكعبة، فكان يقال هذه مذهبةُ فلان إذا كانت أجود شعره، واهتمتْ بشأن الأدب رجال العرب ونساؤهم، وكان النابغة الذبياني هو الحكم في شعر الشعراء. يأتي سوق عكاظ في الموسم فتُضرب له قبة حمراء من الأدم، فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها ليحكم فيها (٢)، ولذلك اقتضت الحكمة أنْ يخص نبي الإسلام بمعجزة البيان، وبلاغة القرآن، فعَلِمَ كلُّ عربيٍّ أنَّ هذا من كلام الله، وأنه خارجٌ ببلاغته عن طوق البشر، واعترف بذلك كل عربي غير معاند). (٣)

فإذا كان هذا هو المقياس لديهم في تقدير كل إنسانٍ وتعظيمه.

فلماذا لمَّا أتى النبي ﷺ بمثل كلامهم بل أعظم بكثير، قالوا عنه ساحرٌ! مجنونٌ! مفترٍ! (وحاشاه) وهم بأنفسهم يعترفون أنَّه هو الصادق الأمين وصاحب الخلق الرفيع في قومه؟!

---

(١) البيان في تفسير القرآن.

(٢) يروى أنَّه أتاه حسان بن ثابت أتاه يوماً فأنشده، ثم أتت بعد ذلك الخنساء فأنشدَتْهُ ففضَّلَ شِعْرَها على شعر حسان فغضب عليه .....

(٣) البيان في تفسير القرآن، عن العمدة لابن رشيق القيرواني ج١ ص٧٨.

المقدمة الرابعة / تفسير القرآن الكريم وما يتعلق به.

ما المراد من معنى التفسير ؟

التفسير (لغة): الفَسْرُ البيان، التفسيرُ مثله، استفسَرَهُ كذا سألَهُ أنْ يفسِّرَهُ. (1)

وقال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن: الفَسْرُ والسَّفْرُ متقاربان المعنى كتقاربِ لفظيهما، لكن جعل الفَسْرُ لإظهار المعنى المعقول، والسَّفْرُ لإبراز الأعيان للأبصار، يُقال سَفَرَتِ المرأةُ عن وجهها وأسفرَتْ، وأسفرَ الصبحُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الفرقان / ٣٣ أي بياناً وتفصيلاً.

التفسير (اصطلاحاً):

* إيضاحُ مرادِ اللهِ تعالى من كتابهِ العزيز. / (السيد الخوئي في البيان)

* كشفُ المرادِ عن اللفظِ المُشْكل. / (الطبري في مجمع البيان)

* إزاحةُ الإبهامِ عن اللفظِ المشكل، أي المشكلُ في إفادةِ المعنى المقصود. / (الشيخ محمد هادي معرفة في التفسير والمفسرون)

* هو بيانُ المعاني القرآنية، والكشفُ عن مقاصدها ومداليلها. / (السيد الطباطبائي في الميزان)

بيان المعنى الاصطلاحي :-

إنَّ جميع هذه المعاني التي ذُكِرت على اختلافها للمراد من التفسير اصطلاحاً في كلمات العلماء، تهدف إلى بيان أمرٍ عظيمٍ واحدٍ وهو الفهم للخطاب القرآني الذي خاطب الله تعالى به الإنسان، ليكون على بينةٍ من تشريع هذا الدستور الإلهي الذي يُهْدَف به إلى تنظيم حياة الإنسان سواء الحياة الفردية أم الاجتماعية وما يتعلق بها وسبل الوصول إلى السعادة الحقيقية التي أكدت عليها الشريعة الإسلامية من خلال تشريعاتها ....

يقول الشيخ محمد هادي معرفة: وكانت صياغته (التفسير) من باب التفعيل نظراً للمبالغة في محاولة استنباط المعنى كما كشف واكتشف، فإنَّ في الثاني إفادة زيادة المحاولة في الكشف وكان أخص من المجرد، وذلك بناءً على إنَّ زيادة المباني تدل على زيادة المعاني ....

فالتفسير ليس مجرد كشفِ القناع عن اللفظ المشكل، بل هو محاولةُ إزالة الخفاء في دلالة الكلام، فلا بد إذن أنْ يكون هناك إبهام في وجه اللفظ بحيث سترَ وجه المعنى، ويحتاج إلى محاولة واجتهاد بالغ حتى يزول الخفاء ويرتفع الإشكال.

سؤال: بناءً على ما تقدم من بيان الشيخ (معرفة) في قوله: (فلا بد أنْ يكون هناك إبهام في وجه اللفظ ....) إذن لو كان القرآن يشتمل على اللفظ المبهم كيف يكون تبياناً لكل شيءٍ كما وصفه تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل / ٨٩ ، وكيف تتم فيه الحجة البالغة على جميع البشر وفيه من الإبهام والغموض ؟!

(١) مختار الصحاح، الرازي.

ولإيضاح هذا السؤال فإنه يمكن القول إجمالاً إنَّ القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، أي باللغة التي يفهمها من أُنْزِلَ عليهم بالبلاغة والفصاحة والمعاني الدقيقة التي تلتذ إليه أسماعهم، وتطرب إليه قلوبهم، ويأنسون بتلاوته، وهذا ما كان عليه حال صحابة النبي المخلصين حيث أَثَّرَتْ تلك الألفاظ والمعاني على سلوكهم تماماً.

ولكن عندما ابتعد الإنسان العربي –بِغَضِّ النظر عن غيره– عن لغته العربية الفصيحة، ودخول العُجمة واللحن على ألسنتهم نتيجة أسباب عدة، ودخول غير العرب إلى الإسلام، أدى إلى حصول الغموض والإبهام لديهم، وليس في اللفظ القرآني، وهذا مما أدى إلى صعوبة فهم ومعرفة معاني ألفاظ القرآن الكريم من دون الرجوع إلى معاجم اللغة وكتب التفاسير التي أُلِّفَتْ للتغلب على ذلك الواقع لدى المسلمين ....

وسيتم بيان ذلك تفصيلاً عند التعرض إلى قَوْلَي السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ لبيان معنى التفسير في كتابه (المدرسة القرآنية) والشيخ ناصر مكارم الشيرازي في (التفسير الأمثل).

معنى التفسير عند السيد محمد باقر الصدر

لقد تم توضيح المعنى المراد للتفسير في كلمات الأعلام فيما سبق، وللسيد الصدر ﷺ كلام في الموضوع نذكره إجمالاً.

يقول: التفسير في اللغة: البيانُ والكشفُ، وفي القرآن الكريم بهذا المعنى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ الفرقان / ٣٣ فتفسير الكلام – أي الكلام– معناه: الكشفُ عن مدلوله، وبيانُ المعنى الذي يشير إليه اللفظ.

وعلى هذا الأساس يمكن أنْ نطرح السؤال التالي: هل إنَّ بيان المعنى الظاهر من اللفظ الذي يتبادر منه يُعتبر تفسيراً، بحيث يصدق عليه لفظ التفسير بمعناه اللغوي أو لا ؟

فهناك اتجاه يقول: إنَّ الكشف والبيان الذي أخذناه في معنى التفسير يستبطن افتراض وجود درجةٍ من الخفاء والغموض في المعنى ليُكْشَفَ ويزالَ الغموض عنه بعملية التفسير، فلا يصدق التفسير حينئذٍ إلا في حالة الغموض والخفاء، فمَنْ يسمعُ كلاماً له معنىً ظاهر يتبادر من ذلك الكلام فيعلن عن ذلك المعنى لا يكون مُفَسِّراً للكلام، لأنه لم يكشف عن شيءٍ خفيٍّ، وإنما يصدق التفسير على الجُهد الذي يبذله الشخص في سبيل اكتشاف معنى الكلام المكتَشف بشيءٍ من الغموض والخفاء ....

وبتعبيرٍ آخر أنَّ مَنْ أظهر معنى اللفظ يكون قد فَسَّرَهُ، وأما حيث يكون المعنى ظاهراً ومتبادراً بطبيعته فلا إظهار ولا تفسير ....

ومن أجل التعُّرف على موارد الظهور التي ينطبق عليها (التفسير) والموارد التي لا ينطبق عليها معنى (التفسير) نقسِّم الظهور إلى قسمين:–

أحدهما الظهور البسيط: وهو الظهور الواحد المستقل المنفصل عن سائر الظواهر الأخرى.

والآخر الظهور المعقد: وهو الظهور المتكوِّن نتيجةً لمجموعةٍ من الظواهر المتفاعلة.

وإذا مَيَّزنا بين الظهور البسيط والمعقد أمكننا أنْ نعرف إنَّ إبرازَ الظهور المعقد وتحديد معنى الكلام على أساسه يعتبر (تفسيراً)، وأما الظهور البسيط ففي الغالب لا يُعتبر إبراز معنى الكلام على أساسه تفسيراً، لأنَّ المعنى ظاهر بطبيعته فلا يحتاج إلى إظهار، وهذا الكلام مهم وفيه تأمل مثل قول الوالد لولده: اذهب إلى البحر في كل يوم، أو يقول له اذهب إلى البحر كل يوم واستمع لكلامه، فإنَّ الأول المراد به نفس البحر (الماء) وهو ظهور بسيط. والثاني المراد به العالِم الذي يُشَبَّهُ علمه بالبحرِ لكثرةِ علمه وهو ظهور معقد. ([1])

معنى التفسير عند الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

يقول الشيخ في مقدمة تفسيره –الأمثل– التفسير في اللغة الإبانة وإماطة اللثام. ولكن هل يحتاج القرآن إلى إبانةٍ وإماطة لثامٍ وهو (النور) و (الكلام المبين) ؟

كلا ليس على وجه القرآن لثامٌ أو نقابٌ بل إننا بالتفسير ينبغي أنْ يُكْشَفَ اللثامُ عن روحنا ويُنْزَعُ الستارُ المسدول على بصيرتِنا فنستجلي بذلك مفاهيم القرآن ونعيش أجواءه ....

من جهة أخرى ليس للقرآن بُعْدٌ واحدٌ .... نعم له بُعْدٌ عام مُيسَّرٌ للجميع ينير الطريقَ ويهدي البشرية إلى سواء السبيل، وله أيضاً أبعادٌ أخرى للعلماء والمفكِّرين لأولئك الطامحين إلى مزيد من الارتواء، وهؤلاء يجدون في القرآن ما يروي ظمأهُم في الحقيقة، ويغرفون من بحرهِ قدر آنيتهم، وتتسع الآنيةُ باتساع السعي والجهد والإخلاص.

هذه الأبعاد أطلقت عليها الأحاديث اسم (البطون) بطون القرآن وهي لا تتجلى للجميع، أو بعبارةٍ أدق لا تقوى كُلُّ العيونِ على رؤيتها.

والتفسير يمنح العيون قوةً، ويقشع عن البصائر الحجب والأستار، ويمنحنا اللياقة لرؤية تلك الأبعاد بدرجة أخرى. ([2])

فمن ظاهر كلامه (دام ظله) يتبين لنا التفاوت في فهم القرآن الكريم وظهور معانيه من إنسان لآخر.

وإنه لا يمكن معرفة حقيقته (القرآن) والتعرُّف عليه والاطلاع على سرِّ إعجازه المكنون فيه إلا بتفسير تلك الألفاظ الإلهية المباركة. وإزالة الحُجُب عن قلوبنا وعقولنا ....

---

(١) المدرسة القرآنية.

(٢) تفسير الأمثل.

المقدمة الخامسة / شروطُ المُفَسِّر

هنالك عدة علوم يجب على مَنْ يريد أنْ يتصدى لتفسير القرآن الكريم أنْ يحيط بها، إضافة إلى شروط عدة يجب أنْ تتوفر فيه أيضاً لكي يستطيع الوصول إلى حقيقة الكلام الإلهي والوصول به إلى الهداية والصراط المستقيم.

ومن العلوم التي قيل أنها يجب أنْ يحيط بها المفسر كما يذكر ذلك الزمخشري هي خمسة عشر علماً:-

اللغة، النحو، التصريف، الاشتقاق، المعاني، البديع، البيان، القراءات، أصول الدين، أصول الفقه، أسباب النزول والقصص، الناسخ والمنسوخ، الفقه، الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، علم الموهبة وهو علم يُوَرِّثُهُ الله تعالى لمن عمل بما علم.

فإذا كان جامعاً لهذه العلوم مع رسوخ قدمٍ فيها وفضل تحقيق صلح لأنْ يكون مفسراً. [1]

أما الشروط التي يجب أنْ تتوفر في المفسر كما يذكره السيد محمد باقر الصدر ﷺ إجمالاً فهي:

أولاً: يجب على المفسر أنْ يدرسَ القرآن ويفسره بذهنية إسلامية، أي يقيم بحوثه على أساس أنَّ القرآنَ كتابٌ إلهي أُنزل للهداية وبناء الإنسانية بأفضل طريقة ممكنة.

ثانياً: يجب أنْ يكون على مستوى رفيعٍ من الاطلاع على اللغة العربية ونظامها لأنَّ القرآن الكريم جاء وفق هذا النظام ....

ثالثاً: يجب على المفسر أنْ يندمج إلى أكبرِ درجةٍ ممكنة في القرآن عند تفسيره، فلا يجعل من تفسير الآيات مبرراً لمعتقده ومذهبه وما يؤمن هو به دون القرآن .... وغير ذلك. [2]

وقد ذكر العلماء عدة آداب يجب أنْ تتوفَّر أيضاً في المُفَسِّر لكتاب الله تعالى ويمكن أنْ نجملها بما يلي:-

١ – صحة الاعتقاد: وهو أنْ يكون المفسرُ صحيحَ العقيدة ليكون المفسرُ تنبعث عقيدته من داخل النفس الإنسانية الخالية من شوائب الشك والريبة والابتعاد عن المعتقد الحق.

٢ – الإخلاص والتفويض: أي بعد أنْ يكون معتقده خالصاً يجب أنْ تكون نيته خالصة لله تعالى من حيث نقاء القلب والسريرة والورع عن المعاصي والتفويض لله والتوكل عليه .....

٣ – التدبر والتفكر: فالتدبر في آيات القرآن والتفكر في معانيها من أبرز سمات المفسر لتكون أحكامه تصدر عن بصيرةٍ ودراية ووعي وتفكر ....

إضافة إلى غير ذلك من الآداب .... [3]

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن.

(٢) المدرسة القرآنية.

(٣) المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتصديق.

المقدمة السادسة / المناهج التفسيرية

لقد مرت على القرآن الكريم مناهج تفسيرية عدة منذ نزوله وتفسير النبي ﷺ القرآن لصحابته –التفسير المأثور– إلى يومنا هذا حيث التفسير العام والموضوعي للقرآن الكريم، ويمكننا أنْ نجمل بعض هذه المناهج بما يلي:–

التفسير بالمأثور: وهو أول مناهج التفسير حيث يعتمد على ما نقل من قول النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وصحابته الأخيار مما جاء مبيناً وموضحاً لجوانب مهمة من مراد ألفاظ القرآن الكريم.

ومن هذا التفسير :

* تفسير القمي / علي بن إبراهيم القمي ت (٣٢٩هـ) وهو من مشايخ الحديث.
* تفسير العياشي / محمد بن مسعود العياشي ت (٣٢٠هـ) وكان من أعلام المحدثين.
* تفسير البرهان / السيد هاشم البحراني ت (١١٠٧هـ) وكان من المحدثين الأفاضل.
* الدر المنثور / جلال الدين السيوطي ت (٩١١هـ) وكان من أكبر الحفاظ والرواة.(علماء العامة)

التفسير الفقهي -آيات الأحكام-: وهذا النوع من التفسير أيضاً كان ابتداؤه منذ عصر نزول القرآن حيث أنه يشتمل على آيات الأحكام التي وردت في الشريعة المقدسة، حتى أُفرِدَت بعد ذلك تفاسير خاصة لآيات الأحكام منها:

* أحكام القرآن (فقه القرآن) / الشيخ قطب الدين الراوندي ت (٥٧٣هـ)
* كنز العرفان في فقه القرآن / المقداد السيوري ت (٨٢٦هـ)
* أحكام القرآن / أبو بكر أحمد بن علي الجصاص ت (٣٧٠هـ).(علماء العامة)

التفاسير الجامعة: وهي التفاسير التي تتعرض إلى الروايات والأدب واللغة والتاريخ وغيرها، نذكر منها:

* تفسير البيان / الشيخ الطوسي ت (٤٦٠هـ)
* مجمع البيان / الشيخ الطبرسي ت (٥٤٨هـ)
* التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) / الفخر الرازي ت (٦٠٦هـ).(علماء العامة)

التفاسير الحديثة: وهي التفاسير التي اتخذت طابعاً علمياً وموضوعياً وفلسفياً واجتماعياً وغيرها، نذكر منها:

* تفسير آلاء الرحمن / الشيخ محمد جواد البلاغي ت (١٣٢٥هـ)
* تفسير الميزان / السيد محمد حسين الطباطبائي ت (١٤٠٢هـ)
* تفسير مواهب الرحمن / السيد عبد الأعلى السبزواري ت (١٤١٣هـ)
* تفسير الأمثل / الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
* تفسير روح المعاني / محمود الآلوسي ت (١٢٧٠هـ)

وغير ذلك من المناهج التفسيرية الأخرى ....

الموجز من تفسير الأمثل

(سورة النبأ)

سورة النبأ (مكية) وعدد آياتها (أربعون) آية.

مباحث السورة / تمتاز أغلب السور القرآنية في الجزء الأخير من القرآن بأنها نزلت في مكة، وتؤكد في مواضيعها على مسألة: المبدأ، المعاد، البشارة والإنذار، وتتبع أسلوب الإثارة في الحديث، وتتعامل مع الأوتار الموقظة للضمير الإنساني .... ويمكننا تلخيص محتوى السورة بما يلي:

١ – السؤال عن النبأ العظيم وهو يوم القيامة كحدثٍ بالغِ الخطورة.

٢ – الاستدلال على إمكانية المعاد والقيامة، من خلال الاستدلال بمظاهر القدرة الإلهية في السماء والأرض والحياة الإنسانية والنعم الربانية.

٣ – بيان بعض علامات بدء البعث.

٤ – تصوير جوانب من عذاب الطغاة الأليم.

٥ – التشويق للجنة بوصفِ أجوائها الفياضة بالنعم.

٦ – وتختم السورة بالإنذار الشديد من عذابٍ قريب، بالإضافة لتصوير حال الذين كفروا.

فضل تلاوتها / روي عن رسول الله ﷺ: مَنْ قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله بردَ الشراب يوم القيامة. وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: مَنْ قرأها وحفظها كان حسابه يوم القيامة بمقدار صلاة واحدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير /

تأتي الآية الأولى لتستفهم بتعجب: عم يتساءلون ! ودون انتظار للجواب، تجيب الآية الثانية ما سئل عنه في الآية الأولى عن النبأ العظيم. ذلك الخبر الذي هم فيه مختلفون.

أورد المفسرون آراء متباينة في المقصود من ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ فمنهم من اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، ومنهم من قال بأنه إشارة إلى القرآن الكريم، ومنهم من اعتبره إشارة إلى أصول الدين من التوحيد حتى المعاد، وقد فسرته الروايات بالولاية والإمامة.

وبنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة وسياق طرحها، وما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرضِ بعض مصاديقها في السماء والأرض، وبعد هذا العرض تؤكد إحدى الآيات، إن يوم الفصل كان ميقاتاً ثم مخالفة وعدم تقبل المشركين لمبدأ المعاد، كل ذلك يدعم التفسير الأول القائل بأنَّ النبأ العظيم هو يوم القيامة.

(النَّبَإِ) كما يقول الراغب في مفرداته: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة. فوصف (النبأ) بـ (العظيم) للتأكيد على أهميته، وللبت بأنَّ ما يشك فيه البعض إنما هو أمر واقع، بالغ الأهمية، خطير .... فهذا المعنى يناسب كونه يوم القيامة أكثر مما يناسب بقية التفاسير. وربما كانت جملة (يتساءلون) إشارة إلى الكفار دون غيرهم، لأنهم كثيراً ما كانوا يتساءلون فيما بينهم بخصوص المعاد، وما كان تساؤلهم لأجل الفحص والتحقيق

وصولاً للحقيقة، بل كان لغرض التشكيك لا أكثر. وثمة احتمال آخر: كون تساؤلهم كان موجهاً إلى المؤمنين عموماً، أو إلى النبي ﷺ خاصة.

وقد يتساءل أنه إذا كان النبأ العظيم هو يوم القيامة، فلماذا يقول القرآن الكريم: الذي هم فيه مختلفون، وفي علمنا أنَّ الكفار مجمعون على إنكاره ؟

والجواب: إنَّ المشركين لا يقطعون في إنكارهم للمعاد بشكل جازم، والكثير منهم يعتقدون بصورة إجمالية ببقاء الروح بعد البدن، وهو ما يسمى بـ(المعاد الروحاني)، أما بخصوص (المعاد الجسماني) فالمشركون ليسوا على وتيرةٍ واحدةٍ في إنكاره، فهناك مَنْ يُظهر الشك والتردد، وهناك مَنْ يُنكر المعاد الجسماني بشدة حتى دفعهم جهلهم وعنادهم لأنْ ينعتوا رسول الله ﷺ – والعياذ بالله– بالجنون لقوله بالمعاد الجسماني، وقد عرفوه تارةً أخرى بالكاذب على الله ! وعليه فاختلاف المشركين في المعاد أمر واقع ولا يمكن إنكاره.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ السين في (سيعلمون) حرف استقبال يستعمل للمستقبل القريب وهو في الآية المباركة يشير إلى قرب وقوع يوم القيامة، وما نسبة أيام الدنيا للآخرة إلا ساعة من الزمن ! أما تكرار جملة (كلا سيعلمون) فقيل للتأكيد، وقيل لبيان وقوع أمرين، الأول: قرب وقوع العذاب الدنيوي. والثاني: الإشارة إلى قرب عذاب الآخرة أيضاً، وقد رجح المفسرون التفسير الأول.

ولكننا نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام وفي بعض روايات أهل السنة أنَّ (النبأ العظيم) بمعنى إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث كانت مثار جدال ونقاش بين جمع من المسلمين.

وهناك من فسرها بالولاية بشكل عام. روى الحافظ محمد بن مؤمن الشيرازي (أحد علماء السنة) عن رسول الله ﷺ أنه قال في تفسير عم يتساءلون عن النبأ العظيم: ولاية علي يتساءلون عنها في قبورهم، فلا يبقى ميتٌ في شرقٍ ولا غربٍ ولا في برٍ ولا في بحرٍ إلا ومنكر ونكير يسألانه عن ولاية أمير المؤمنين بعد الموت، يقولان للميت: مَنْ ربك ؟

وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ومن إمامك ؟

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: النبأ العظيم الولاية.

وللجمع بين مضمون ما تناولته الروايات وما جاء في تفسير النبأ العظيم بالمعاد ....

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكري المعاد والمختلفين في هذا (النبأ العظيم) لأنها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون وعالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال في حياة الإنسان، وذلك من جهة دليل على قدرة الباري عز وجل المطلقة، ومنها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته. ومن جهة أخرى الإشارة إلى أنَّ الكون وما فيه من دقة تنظيم لا يمكن أنْ يخلق لمجرد العبث واللهو ! بل لا بد من وجود حكمة بالغة لهذا الخلق، في حين أنه لو كان الموت يعني نهاية كل شيء، فمعنى ذلك أنَّ وجود العالم عبث وخال من أية حكمة ! !

وقد عرضت الآيات الإحدى عشر اثنتي عشرة نعمة إلهية بأسلوب ملؤه اللطف والمحبة، مصحوباً بالاستدلال، لأنَّ الاستدلال العقلي لو لم يقترن بالإحساس العاطفي والنشاط الروحي يكون قليل التأثير.

وتشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول.

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ (المهاد): كما يقول الراغب في المفردات: المكان المُمَهَّد الموطأ، وهو في الأصل مشتق من المَهْد، أي المكان المهيء للصبي. وفسره بعض أهل اللغة والمفسرين بالفراش، لنعومته واستوائه وكونه محلاً للراحة.

واختيار هذا الوصف للأرض يدل على مغزى عميقٍ، فمن جهة: نجد في قسم واسع من الأرض الاستواء والسهولة فتكون مهيأة لبناء المساكن والزراعة. ومن جهة ثانية: أودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم في باطنها ....

والخلاصة: إنَّ جميع وسائل الاستقرار والعيش لبني آدم متوفرة في هذا المهد الكبير، وقد لا يلتفت الإنسان إلى عظم هذه النعمة الربانية، إلا إذا ما أصاب الأرض زلزالاً . . ، وعندها سيدرك معنى استقرار الأرض، ومعنى كونها مهاداً.

﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ وبما أنَّ نعمة استواء الأرض وسهولتها قد لا تؤكد على نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبين أهمية الجبال ودورها المهم في حياة الإنسان، حيث تشكل الجبال آية ربانية زاخرة بالعطاء، وتؤدي وظائف كثيرة، منها أنها تحفظ القشرة الأرضية من الانهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض. وتشكل جدران الجبال سداً منيعاً للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة. وفي هذا المجال يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستوياً كله، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوي، ولفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأنَّ استمرار الاحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوي سيؤدي بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية مما يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

وبعد أنْ بين القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية والآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم الباري على الإنسان من النعم والآيات الأنفسية.

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ الأزواج: جمع زوج، المتشكل من الذكر والأنثى، ويخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، ويستمر وجوده في الحياة من خلال عملية التناسل التي تساهم في استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية والنفسية، كما تشير إلى هذا الآية (٢١) من سورة الروم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ وبعبارة أخرى: إنَّ كلا من الذكر والأنثى مكمل لوجود الآخر، وعاملاً على إشباع احتياجات الطرف الآخر من الناحيتين الجسمية والنفسية. ويشير بعد ذلك إلى نعمة النوم.

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ السبات: من السبت، بمعنى القطع، ثم استعملت بمعنى تعطيل العمل لأجل الاستراحة، وسمي (يوم السبت) بذلك لأنَّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم في اليوم المذكور. ويحمل وصف النوم بالسبات إشارة لطيفة إلى تعطيل قسم من الفعاليات الجسمية والروحية للإنسان عند النوم ويعطي التعطيل فرصة لاستراحة أعضاء البدن لتجديد القوى ولتقوية الروح والجسد، لتجديد النشاط ورفع أي نوع من التعب والآلام، والاستعداد لتقبل المرحلية القادمة بعد النوم بفاعلية ونشاط متجدد. وبعد الانتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل.

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ وتضيف الآية التالية مباشرة (وجعلنا النهار معاشاً) وبقليل من التأمل نجد أنَّ كلا منهما يمثل نعمة إلهية معطاءة، حيث تنبع منها نعم أخرى. وشبهت الآية الليل باللباس والغطاء الذي يلقى على الأرض ليشمل كل من على الأرض، وليجبر فعاليات الموجودات الحية المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة وممارسة النشاطات، ويخيم الظلام والسكون ليضفي على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل والمعاناة خلال النهار، وليتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالي، وجعلنا

النهار معاشاً بما لا يدع مجالا للتفصيل والشرح. وخاتمة المقال: إنَّ تعاقب الليل والنهار وما فيهما من نظام دقيق آية بينة من آيات خلقه سبحانه وتعالى. وتأتي الآية التالية لتنقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ قد يراد من العدد المذكور بالآية الكثرة، للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية والمنظومات الشمسية والمجرات والعوالم الواسعة لهذا الوجود، والتي تتمتع بخلق محكم وبناء رصين لا خلل فيه .... وبعد أنْ أشار القرآن إجمالاً إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس.

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ الوهاج: من الوهج، بمعنى النور والحرارة التي تصدر من النار. وإطلاق هذه الصفة على الشمس للإشارة إلى نعمتين كبيرتين وهما: النور والحرارة. ويتفرع عنهما نِعَم وعطاياً كثيرة يزخر بها عالمنا، ولا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير في نمو سائر الكائنات الحية .... وبعد ذكر نعمة النور والحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية أخرى لها ارتباط بأشعة الشمس.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ المعصرات: جمع مُعصر، من العصر بمعنى الضغط، والكلمة تشير إلى أنَّ الغيوم تقوم بعملية وكأنها تعصر نفسها عصراً لكي ينهمر منها الماء على شكل أمطار. الثجّاج: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، وثجاج صيغة مبالغة، ويراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم. وبالإضافة لكون المطر منبعاً لكثير من مصادر الخير والبركة، فهو ملطِّف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة في الجو، مخفِّض للحرارة ومعدِّل للبرودة، مقلِّل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحاً متجددة ونشاطاً، ومع كل ذلك فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد أخرى له.

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ يقول الراغب في مفرداته: ألفافاً أي التف بعضها ببعض لكثرة الشجر. والآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان والحيوان من المواد الغذائية التي تخرج من الأرض.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾

الآية الأولى من الآيات أعلاه بمثابة نتيجة لما تعرضت له الآيات السابقة.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتًا ﴾والتعبير بـ (يوم الفصل) يحمل بين ثناياه إشارات كثيرة، فسيحدث في ذلك اليوم فصل الحق عن الباطل. فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين، فصل الوالدين عن أولادهم، والأخ عن أخيه.

ويتناول القرآن الكريم بعض خصائص ذلك اليوم العظيم

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ويستفاد من آيات القرآن أنَّ نفختين عظيمتين ستحدثان باسم (نفخ الصور) ففي النفخة الأولى سينهار كل عالم الوجود، ويخرُّ ميتاً كل مَنْ في السماوات والأرض، وفي النفخة الثانية يتجدد عالم الوجود وتعود الحياة إلى الأموات مرة أخرى، ليقوم بعدها يوم القيامة. وتأتي الآية الأخرى لتقول.

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾فما الأبواب ؟ وكيف تفتح ؟

يقول بعض: إنَّ المقصود بهذه الأبواب هي أبواب عالم الغيب تفتح على عالم الشهود، وتزول الحجب ويتصل عالم الملائكة بعالم الإنسان. ويرى بعض آخر أنها تشير إلى ما ورد في آيات قرآنية أخرى من قبيل: وإذا السماء انشقت، وإذا السماء انفطرت. وتأتي الآية التالية لتخبرنا عن حال الجبال في ذلك اليوم الحق.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾فسوف تكون عاقبة الجبال على ما لها من شموخ وصلابة إلى غبار متناثر في الفضاء وعلى صورة سراب، فما حال ذلك الإنسان الذي يتصور أنه جبار شديد البطش عريك القوى.

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(أهل النـــار)

بعد أنْ بين القرآن الكريم في الآيات السابقة بعض أدلة المعـــاد وتناول قسمـــاً من حوادث يوم القيـــامة، يذكر في هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول:

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾وهي: للطاغين مآباً، وأنهم: لابثين فيها أحقاباً.

(المرصاد): اسم مكان يُختفى فيه للمراقبة، ويقول الراغب في مفرداته: (المرصد) موضع الرصد، والمرصاد نحوه، لكـــن يقـــال للمكان الذي اختص بالترصد. ولكن مَنْ سيقوم بعملية الرصد في جهنم ؟ قيل: هم ملائكة العذاب بدلالة الآية ٧١ من سورة مريم التي تحكي عن مرور جميع الناس صالحهم وطالحهم من جانب جهنم أو من فوقها: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ وخلال ذلك المشهد تقوم ملائكة العذاب برصد أهل النار والتقاطهم من بين الخلق ! وعلى أية حال، فلا يستطيع أي من الطـــاغين مـــن تخطي ذلك المعبر المحتوم، فإما أنْ تخطفه ملائكة العذاب أو تجذبه جهنم.

(الأحقاب): جمع (حقب) على وزن (قفل) بمعنى برهة زمانية غير معينة، وقد قدرها بعض بثمانين عاماً، وقيل سبعين، وقيـــل: أربعين عاماً. وعلى أيٍّ من التقادير، فثمة مدة معينة للبقـــاء في جهنم، وهو ما يتعـــارض مع ما جاء في آيات أخـــر والتـــي تصرح بخلود أهل النار في جهنم، ولذلك سعى المفسرون لإيجاد ما يوضح هذا الموضـــوع. والمعـــروف بـــين المفـــسرين: إنَّ المقصود بـ (الأحقاب) في الآية هو تلك الفترات الزمانية الطويلة التي تتعاقب فيما بينها، المتسلسلة بلا نهاية، فكلما تنتهي فترة تحلُّ محلها أخرى وهكذا. وقد جاء في إحدى الروايات إنَّ الآية جاءت في المذنبين من أهل الجنة، الذين يقضون فترة في جهنم يتطهرون فيها ثم يدخلون الجنة، وليست واردة في الكافرين المخلدين في النار. وتشير الآيات – بعد ذلك – إلى جانب صغير من عذاب جهنم الأليم، بالقول:

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾إلا ظل من الدخان الغليظ الخانق كما أشارت إلى ذلك الآية (٤٣) من ســـورة الواقعة: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ و(الحميم): هو الماء الحار جداً و(الغساق): هو ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد والقيح، وفسرها بعضهم بالسوائل ذات الروائح الكريهة.

في حين أنَّ أهل الجنة يسقيهم ربهم جل شأنه بالأشربة الطاهرة، كما جاء في الآية (٢١) من سورة الـــدهر: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ، فانظر لعقبى الدارين ! ولكن، لِمَ هذا العذاب الأليم ؟

فتأتي الآية التالية.

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ ولِمَ لا يكون كذلك وقد أحرقوا في دنياهم قلوب المظلومين، وتجاوزوا بتسلطهم وظلمهم وشرهم على رقاب الناس دون أنْ يعرفوا للرحمة معنى، فجزاؤهم يناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام، وكما قلنا مراراً إنَّ الآيات القرآنية حينما تشير إلى عقوبات يوم القيامة، إنما تطرحها كجزاء لما اقترفت أيدي الناس بظلمهم ..... ويذكر القرآن سبب الجزاء فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ وبعبارة أخرى: إنَّ عدم الإيمان بالحساب سبب للطغيان، فيكون الطغيان سبباً لذلك الجزاء الأليم. ولهذا فالذين ليس لديهم أمل ورجاء لا يحسُّون بخوفٍ أيضاً. وكل هذا البيان جاء ليبين أنهم ما كانوا ينتظرون حسابا مطلقاً، وما كانوا يشعرون لأي خوف من ذلك !

ومباشرة يضيف القرآن القول:

﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ فقد أحكمتْ الأهواء النفسانية قبضتها عليهم حتى جعلتهم يكذبون بآيات الله تكذيباً شديداً، وأنكروها إنكاراً قاطعاً ليواصلوا أمانيهم الإجرامية باتباعهم المفرط لأهوائهم الغاربة. ثم ينبه القرآن الطغاة على وجود الموازنة بين الجرم والعقاب في العدل الإلهي، فيقول:

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴾ فلا تظنوا أنَّ شيئاً من أعمالكم سيبقى بلا حساب أو عقاب، ولا تساوركم الشكوك بعدم عدالة العقوبات المقررة لكم. فما أكثر الآيات القرآنية التي تحكي عن حقيقة ضبط إحصاء كل ما يبدر من الإنسان، سواء كان من الأعمال الصغيرة أم الكبيرة، سرية أم علنية، بل ويخضع لذلك حتى عقائد ونيات المرء. وفي هذا المجال يقول القرآن: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ فينتقل من التكلم عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر: ويهدد القرآن بنبرات غاضبة أولئك المجرمين ويقول:

﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ وهذا هو جزاء أولئك الذين يواجهون دعوات الأنبياء الداعية إلى الله والإيمان والتقوى، وهذا هو جزاء الذين ينفرون من سماع واستماع ما تتلى عليهم من آيات، فالعذاب الأليم جزاء كل من لا يتورع عن اقتراف الذنوب، ولا يسعى صوب الأعمال الصالحة حتى روي عن النبي ﷺ أنه قال: هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(أهل الجنة)

كان الحديث في الآيات السابقة منصباً حول خاتمة المجرمين والطغاة وما يلاقونه من أليم العذاب وموجباته، وينتقل الحديث في الآيات أعلاه لتفصيل بعض ما وعد الله المؤمنين والمتقين من النعم الخالدة والثواب الجزيل، عسى أنْ يرعوي الإنسان ويتبع طريق الحق من خلال مقايسته لما يعيشه كل من الفريقين، على ضوء تفكيره بمصيره الأبدي، وكذا هو الحال في الأسلوب القرآني، كما في بقية السور الأخرى، فهو يضع متضادات الحالات والأحوال في طبق واحد، ليتمكن الإنسان بسهولة من اكتشاف خصائص وشؤون أياً منها. فطوبى للمؤمنين في دار الخلد وهم منعمون بكل ما لذ وطاب.

وكذا هو الحال في الأسلوب القرآني، كما في بقية السور الأخرى، فهو يضع متضادات الحالات والأحوال في طبق واحد، ليتمكن الإنسان بسهولة من اكتشاف خصائص وشؤون أياً منها. فيقول:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ المفاز: اسم مكان، أو مصدر ميمي من الفوز بمعنى الوصول إلى الخير بسلام، ويأتي بمعنى النجاة أيضاً وهو من لوازم المعنى الأول. وقد جاءت مفازاً بصيغة النكرة للإشارة إلى الفتح العظيم والوصول إلى خيرٍ وسعادةٍ لا يعلم قدرهما إلا الله عز وجل. ومن مفردات الفوز والسعادة:

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾ ويتطرق القرآن إلى نعمة أخرى مما وعد الله به المتقين في الجنة، فيقول.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ الكواعب: جمع كاعب، وهي البنت حديثة الثدي، للإشارة إلى شباب زوجات المتقين في الجنة. الأتراب: جمع ترِب، ويطلق على مجموعة الأفراد المتساويين في العمر، واستعماله في الإناث أكثر، قيل: ويحتمل أن يكون المراد من أتراب التساوي بين نساء أهل الجنة في العمر، فيكون شابات متساويات في القد والقامة والجمال، أو تساوي العمر بينهن وبين أزواجهن من المؤمنين، لأنَّ للتساوي في العمر له أثره النفسي على إدراك مشاعر الطرف الآخر إلا أنَّ المعنى الأول أكثر تناسباً. وتأتي النعمة الرابعة:

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ شراب ليس كأي شراب، فلا يهب بالعقول ولا يحدر الإنسان إلى دركات الحيوانية بل هو مذك للعقل، منشط للروح ومنعش للقلب. لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً. إنَّ شراب الدنيا يذهب العقل، يفقد الإحساس، يوقع شاربه بالهذيان واللغو، وأما شراب الآخرة فنفحاته الطاهرة تضفي على العقل والروح نورا وصفاء.

وثمة احتمالات بخصوص ضمير (فيها):

<u>الأول:</u> إنه يعود إلى الجنة.

<u>الثاني:</u> إنه يعود إلى الكأس. فعلى الاحتمال الأول يكون معنى الآية إنَّ أهل الجنة لا يسمعون فيها لغواً، كما جاء في الآيتين (١٠-١١) من سورة الغاشية: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾ وعلى الاحتمال الثاني يكون معنى الآية: إنه سوف لا يصدر اللغو والهذيان والكذب من أهل الجنة بعد شرابهم ما في كأس الجنة من شراب، كما جاء في الآية (٢٣) من سورة الطور ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ وعلى أية حال، فالجنة خالية من: الأكاذيب، الهذيان، التهم، الافتراءات، تبرير الباطل، بل وكل ما كان يؤذي قلوب المتقين في الحياة الدنيا. وفي آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمة المعنوية التي تفوق كل النعم علواً.

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ وأيُّةُ بشارة ونعمة أسمى وأجل من أنْ أكون وأنا العبد الضعيف، موضع ألطاف وإكرام الله جل وعلا، فيطعمني ويكسوني ويغرف عليَّ بنعمه التي لا تحصى عدداً ولا تُضاهى حُباً وكرماً، فطوبى للمؤمنين في دار الخلد وهم منعمون بكل ما لذ وطاب.

(حساباً): يعتقد الكثير من المفسرين إنَّ معناها هنا كافياً: من أحسبه الشئ إذا كفاه حتى قال حسبي. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: جزاءً من ربك عطاءً حساباً. ونستفيد من الرواية المذكورة أنَّ نعم الله في الآخرة وإنْ كانت بصفة الفضل واللطف والزيادة إلا أنَّ مقدمتها الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان في حياته الدنيا. وفي آخر آية من الآيات المبحوثة، يضيف:

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ نعم: إنه مالك العالم، ومدبر ما فيه، وموجه كل حركاته وسكناته، إنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وهو واهب الصالحين ما وعدهم به القرآن الكريم.

وذيل الآية يقول: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ويمكن شمول (لا يملكون) جميع أهل السماوات والأرض، أو جميع المتقين والعاصين الذين يُجمعون في عرصةِ المحشر للحساب والجزاء. وعلى أي القولين فالآية تشير إلى عدم القدرة على الاعتراض أو الرد من

قبل كل المخلوقات أمام محكمة العدل الإلهي، لأنَّ حسابه جل اسمه من الدقة والعدل واللطف ما لا يفسح المجال أمام أي اعتراض. بل ولا يسمح في ذلك اليوم بالتشفع لأي كان إلا بإذنٍ خاصٍّ منه جلت عظمته. (١)

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

رأينا في الآيات السابقة أنها تحدثت عن بعض عقوبات الظالمين والطواغيت، وبعض المواهب والنعم والمتعلقة بالصالحين في يوم القيامة، وتتناول الآيات أعلاه بعض الصفات وحوادث يوم القيامة، وتشرع بالقول.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ وبلا شك فإنَّ قيام الروح والملائكة صفاً يوم القيامة، وعدم تكلمهم إلا بإذنه سبحانه، إنما هو مثولاً للأوامر الإلهية وطاعة، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم بأمره يعملون ولكن في يوم القيامة سيتجلى امتثالهم لله أكثر وبشكل أوضح. أما عن المقصود بكلمة (الروح) فقد بسط المفسرون في كتبهم تفاسير كثيرة، حتى وصل معناها في بعض التفسير إلى ثمانية احتمالات، وإليك أهم ما قيل فيه:

١- هو مخلوق من غير الملائكة وأعظم منها.

٢ - هو أمين الوحي الإلهية جبرائيل أشرف الملائكة.

٣- هو ملك عظيم الشأن، وأشرف من جميع الملائكة قاطبة (حتى جبرائيل): وهو الذي يصاحب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام على الدوام.

وأقرب ما يمكن التعويل عليه من معاني (الروح) في الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة الله العظام، والذي يبدو من بعض الآيات أنه أعظم من جبرائيل وبدلالة ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل. وجاء في تفسير علي بن إبراهيم: الروحُ ملكٌ أعظمُ من جبرائيل وميكائيل وكان مع رسول الله وهو مع الأئمة.

ويشير القرآن واصفاً ذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس والملائكة أجمعون يوم الفصل، يوم عقاب العاصين وثواب المتقين، يشير بقوله: ذلك اليوم العظيم. (الحق) هو الأمر الثابت واقعاً، والذي تحققه قطعي. وهذا المعنى ينطبق تماماً على يوم القيامة، لأنه سيعطي كل إنسان حقه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين، وتتكشف كل الحقائق التي كانت مخفية على الآخرين. فإنه بحقٍّ يوم الحق، وبكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وبعد أنْ وجه الإنذار للناس، يشير القرآن إلى حسرة الظالمين والمذنبين في يوم القيامة، حين لا ينفع ندم ولا حسرة، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ذهب بعض المفسرين أنْ كلمة (ينظر) في الآية بمعنى ينتظر، والمراد: انتظار الإنسان يوم القيامة لجزاء أعماله. وفسرها بعض آخر النظر في صحيفة الأعمال، وقيل: النظر إلى ثواب وعقاب الأعمال، وبنظرة إلى الآيات القرآنية والروايات والأحاديث الشريفة يتبين لنا أنَّ أعمال الإنسان تتجسم في هذا اليوم بصورة معينة، وتظهر للإنسان فينظر إليها على حقيقتها فيسر ويفرح عند رؤيته لأعماله الصالحة، ويتألم ويتحسر عن رؤيته لأعماله السيئة، كما نجد في الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾، فحينما يرى الكفار أعمالهم مجسمة أمامهم سيهالهم الموقف

(١) ويمكن التفصيل في بحث خاص عن الشفاعة.

وتصيبهم الحسرة والندامة، حتى يقولون يا ليتنا لم نتجاوز منذ البداية مرحلة التراب في خَلقنا، وعندما خلقنا في الدنيا ثم متنا وتحولنا إلى التراب، فيا ليتنا بقينا على تلك الحال ولم نبعث من جديد ! فهم يعلمون بأنَّ التراب بات خيراً منهم....

هذه أهم الكلمات التي أردنا بيانها وتوضيحها في هذه السورة المباركة

علاقة الآيات بـ (المعاد)

أشارت الآيات المبحوثة إلى أهم العطايا الربانية والنعم الإلهية والتي لها الدور المهم والأساس في الحياة البشرية: النور، الظلمة، الحرارة، الماء، التراب والنباتات. وذكر نظام الكون على ما فيه من دقة موزونة ومحسوبة لدليل على قدرة الله عز وجل المطلقة من جهة، وبه تسد كل ثغرات التساؤل عن قدرة الله على إحياء الموتى، ومن جهة أخرى أنه لا بد أنْ يكون لهذا الخلق العظيم من هدف، ولا يعقل أنْ يكون الهدف منه هو هذه الأيام المعدودة لحياتنا الدنيا، إذ ليس من الحكمة أنْ يكون كل هذا الخلق وبما يحمل من أنظمة وعمليات من أجل الأكل والشرب والنوم وأمثال ذلك ! بل وجود هدف أسمى يتناسب وحكمة الباري جل شأنه، وبعد ذلك فما النوم واليقظة إلا مثلاً للموت والحياة الجديدة، وما إحياء الأرض الميتة بنزول المطر – الشاخصة أمام أعين الناس على طول السنة – إلا توضيحاً لحالة المعاد، وإشارات مليئة بالمعاني ترمز إلى مسألة القيامة والحياة بعد الموت، كما جاء في سورة فاطر: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ بعد أنْ بينت لنا في هذه الآيات المباركة عظمة الخالق وقدرته وحكمته في خلق هذا الإنسان والكون والنِّعَم التي سخَّرها له تتجلى لنا الحكمة الإلهية في هذا النظام الدقيق، تنتقل الآيات إلى بيان مآل الإنسان في الآخرة، ووصف أهل الجنة والنعيم فيها، وكذا أهل النار، ليكون الإنسان على بصيرةٍ من عواقب أعماله في الآخرة ويحذر من اتباع الشهوات وارتكاب المعاصي....

(سورة النازعات)

سورة النازعات (مكية) وعدد آياتها (ست وأربعون) آية

مباحث السورة / تبحث هذه السورة كسابقتها مسائل (المعاد) وتتلخص مواضيعها عموماً بستة أقسام:

١ – التأكيد مراراً على مسألة المعاد وتحققه الحتمي.

٢ – الإشارة إلى أهوال يوم القيامة.

٣ – عرض سريع لقصة موسى عليه السلام مع الطاغي فرعون، تسلية للنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وإنذاراً للمشركين الطغاة، وإشارةً إلى ما يترتب على إنكار المعاد من سقوط في مستنقع الرذيلة.

٤ – طرح بعض النماذج لمظاهر قدرة الباري سبحانه في السماء والأرض، للاستدلال على إمكان المعاد والحياة بعد الموت.

٥ – تعود الآيات مرة أخرى لتعرض بعض حوادث اليوم الرهيب، وما سيصيب الطغاة من عقاب وما سينال الصالحون من ثواب.

٦ – وفي النهاية يأتي على خفاء تاريخ وقوع يوم القيامة والتأكيد على حتمية وقوعه وقربه.

وسميت السورة بـ (النازعات) لورود هذه الكلمة في أول آية، وبها تبدأ السورة من بعد البسملة.

فضل تلاوتها / روي في مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله: مَنْ قرأ سورة والنازعات لم يكن حبسه وحسابه يوم القيامة إلا كقدرِ صلاةٍ مكتوبة حتى يدخل الجنة. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: مَنْ قرأها لم يمت إلا ريّان، ولم يبعثه الله إلا ريّان، ولم يدخله الجنة إلا ريّان.

وليس غريباً أنْ ينال الإنسان بكل ما ذكر جزاء من عند الله، إذا ما أمعن في محتوى السورة وتدبر إشاراتها الموقظة للنفوس الغافلة، والمعرفة بوظائف الإنسان في حياته، فمن لم يكتف بترديد ألفاظ السورة، وعمل بها بعد الإمعان والتدبر فحري أنْ يُجْزى بما وعد الحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾

التفسير /

القسم بالملائكة: جاء القسم القرآني بخمسة أشياء مهمة، لتبيان حقيقة وحتمية تحقق يوم القيامة (المعاد) فيقول: والنازعات غرقا ..... وقبل البدء بالتفسير لابد من توضيح معاني بعض الكلمات.

مبحث القسم

تفسير القسم / إنَّ لفظة القسم واضحة المعنى تعادل الحلف واليمين في لغة العرب، ولها معادل في عامة اللغات وإنما يؤتى به لأجل تأكيد الخبر والمضمون، قال الطبرسي: القسم جملة من الكلام يؤكد بها الخبر بما يجعله في قسم الصواب.

أركان القسم / إنَّ القسم من الأمور ذات الإضافة وهو فعل فاعل مختار له إضافة إلى أمور أربعة:

١– الحالف. ٢– ما يحلف به. ٣– ما يحلف عليه. ٤– الغاية من القسم.

أما الأول / فالحلف عبارة عن فعل الفاعل المختار، فلا يصدر إلا منه سواء أكان واجباً كالله سبحانه أم ممكنا كالإنسان وغيره.

ثم إنَّ أدوات القسم عبارة عن الأمور الأربعة، أعني: الباء والتاء والواو واللام، وأمثلة الكل واضحة.

وأما الثاني / – أي ما يحلف به – فإنَّ لكل قوم أموراً مقدسةً يحلفون بها، وأما القرآن الكريم فقد حلف سبحانه بأمور تجاوزت عن الأربعين مقسماً به.

وأما الثالث /– أي ما يحلف عليه – والمراد هو جواب القسم الذي يراد منه التأكيد عليه وتثبيته وتحقيقه، وهذا ما يقال القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده.

وأما الرابع / فالغايات تختلف كل حسب مورده. (١)

فهذا إيجاز لما يتعلق بالقسم، وسوف نستعرض الآيات التي ذكرت القسم في مواطنها.

القسم في سورة النازعات / قد حلف سبحانه بأوصاف الملائكة خمس مرات، فقال: (والنازعات غرقاً) (والناشطات نشطاً) (والسابحات سبحاً) (فالسابقات سبقاً) (فالمدبرات أمراً) حلف سبحانه في هذه السورة بطوائف وصفها بـ: النازعات، الناشطات، السابحات، السابقات، المدبرات .

قال الزمخشري: أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم.

والمقسم عليه محذوف وهو (لتبعثن) يدل عليه ما بعده من ذكر القيامة.

(النازعات): من (النزع) ونزع الشيء جذبه من مقره، كنزع القوس عن كبده، ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب. وبذلك تشمل الأمور المعنوية أيضاً.

(الغرق): بالفتح (على وزن الشفق) هو الرسوب في الماء، (على قول كثير من أهل اللغة) ويأتي كذلك فيمن غمره البلاء. و(الغرق): (على وزن الفرق) يقول عنه ابن منظور في لسان العرب: إنه اسم أقيم مقام المصدر الحقيقي، بمعنى الإغراق، والإغراق بالنزع هو: أنْ يباعد السهم ويسحب القوس إلى آخر نقطة ممكنة، ويضرب مثلاً للغو والإفراط. ومن هنا يتضح أنَّ المعنى المقصود في هذه الآية ليس الغرق في الماء، بل هو القيام بعمل ما إلى أقصى حد ممكن.

(الناشطات): من (النشط) هي العقد التي يسهل حلها، وبئر إنشاط: هي القريبة القعر يخرج دلوها بجذبة واحدة، ويقال للإبل التي تتحرك من غير أنْ يحدى لها (النشيطة) فيكون المعنى عموماً: هو التحرك بسهولة. (السابحات): من (السبح) وهو الحركة السريعة في الماء أو الهواء ولهذا تطلق السابحات على: السباحة في الماء، الحركة السريعة للخيل، وأية حركة سريعة في عمل ما، و(التسبيح): هو تنزيه الله تعالى من كل عيب ونقص، وأصله: الحركة السريعة في عبادة الله تعالى.

(السابقات): من (السبق) وهو التقدم في السير، وبما أنَّ السبق لا يتم إلا بالحركة الأسرع فهو يتضمن معنى الشرعة كذلك.

(المدبرات): من (التدبير) وهو التفكير في عاقبة الأمور، وأرادت الآية القيام بالأعمال على أحسن وجه.

وإنَّ القسم بهذه الأمور الخمسة قد لفَّته هالة من الإبهام والغموض وتبعث على التأمل والتعمق أكثر لمعرفة المراد من هذه الأقسام وأنها لمَنْ تشير، وأي شيء تقصد؟ وقد عرضت تفاسير مختلفة، وقيل الكثير بخصوص هذا الموضوع، إلا أنّ معظمها تدور حول ثلاثة محاور، أهمها إنَّ القسم المذكور يتعلق بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار والمجرمين، ولكون تلك الأرواح قد رفضت التسليم للحق، فيكون فصلها عن أجسادها بشدة. ويتعلق كذلك بالملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين برفق

(١) للتفصيل يراجع (مفاهيم القرآن ج٩) للشيخ جعفر السبحاني.

ويسر، وسرعة في إتمام الأمر. والملائكة التي تسرع في تنفيذ الأوامر الإلهية. ثم الملائكة التي تتسابق في تنفيذ الأوامر الإلهية. وأخيراً يتعلق القسم بالملائكة التي لها شؤون العالم بأمره سبحانه وتعالى.

فالملائكة هم المقصودون بالأقسام المذكورة بصورة عامة، ويتم تنفيذ الأمر الإلهي من قبلهم على خمس مراحل: الحركة الشديدة الناتجة من عظمة صدور الأمر الإلهي .....

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

لقد وردت في الآيات المذكورة وما بعدها جملة ملاحظات وهي:

١ – طغيان فرعون يمثل علة الأمر الإلهي لذهاب موسى عليه السلام إليه، وتبين لنا هذه الملاحظة: إنَّ من جملة الأهداف المهمة في حركة الأنبياء هي هداية الطغاة أو مجاهدتهم.

٢ – ذهاب موسى عليه السلام ليدعو فرعون بلين ورفق وأسلوب جميل، وبأسلوب مرغب دعاه لأنْ يتطهر (طهارة مطلقة من الشرك والكفر، ومن الظلم والفساد) وتنقل لنا الآية (٤٤) من سورة طه هذا المعنى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾

٣ – وثمة إشارة لطيفة وردت بخصوص رسالة الأنبياء عليهم السلام فدعوتهم للحق تعتمد على محاولة تطهير الناس وإعادتهم إلى فطرتهم السليمة. كما وأشار البيان القرآني إلى أنَّ المخاطبة قد تمت بكلمة (تزكَّى) بدلاً من (أزكيك) للدلالة على أنَّ التزكية الحقة إنما هي تلك النابعة من الذات، ولا تبنى بأسس موضوعية خارجية.

٤ – ذكرت الهداية بعد التزكية، للدلالة على أنَّ التزكية مقدمة وبمثابة الأرضية المهيأة للهداية.

٥ – إنَّ تعبير (إلى ربك) في حقيقةِ تأكيدٍ على أنَّ من أهديك إليه هو مالكك ومربيك، فَلِمَ الميل عنه ؟ !

٦ – "الخشية نتيجة للهداية: وأهديك إلى ربك فتخشى، وبما أنَّ الخشية لا تحصل إلا بمعرفة حقة، فتكون ثمرة شجرة الهداية والتوحيد هي الإحساس بالمسؤولية الملقاة على العواتق أمام جبار السماوات والأرض، ولهذا تقول الآية ٢٨ من سورة فاطر: إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ.

٧ – ابتدأ موسى عليه السلام أسلوب دعوته بالهداية العاطفية ثم تدرج إلى الهداية العقلية والمنطقية حتى أرى فرعون الآية الكبرى.

وقد بيَّنَ لنا البيان القرآني أفضل طرق الدعوة والإرشاد، حيث ينبغي إحاطة من يراد هدايته بالرعاية والعطف وتحسيسه بحسن نية الداعية أو المرشد، ومن ثم تأتي مرحلة الدليل المنطقي والحوار العلمي، لكن فرعون المتجبر قابل كل تلك المحبة، اللطف، الدعوة بالحسنى والآية الكبرى، قابل كل ذلك بالتجبُّرِ الأعمى والغرور الأبله: فكذب وعصى. وكما يظهر من الآية المباركة فإنَّ التكذيبَ مقدمةُ العصيان ومرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق الإيمان باعتباره مقدمة للطاعات. وازداد فرعون عتواً: ثم أدبر يسعى. وقد هددت معجزة موسى عليه السلام كل وجود فرعون الطاغوتي، مما دعاه لأنْ يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه وقد أمر أتباعه وجنوده لجمع كل سحرة البلاد – على كثرتهم في تلك الحقبة الزمنية – ونودي في الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، وليظهروا مثلها ! !

إلى آخره ما يتعلق بالأمر من حال موسى عليه السلام ودعوته لفرعون .....

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

تبين الآيات اللمسات الربانية في عالم الطبيعة ونظام الكون: ينتقل البيان القرآني مرة أخرى إلى عالم القيامة، بعد ذكر تلك اللمحات البلاغية في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فيعرض صوراً من قدرة الله المطلقة في عالم الوجود، ليستدل به على إمكان المعاد، ويشرح بعض النعم الإلهية على البشرية (التي لا تعد ولا تحصى) ليحرك فيهم حس الشكر والذي من خلاله يتوصلون لمعرفة الله. وابتدأ الخطاب باستفهام توبيخي لمنكري المعاد، هل أنَّ خلقكم وإعادتكم إلى الحياة بعد الموت أصعب من خلق السماء: أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. والآية في واقعها جواب لما ذكر من وقولهم في الآيات السابقة: أإنا لمردودون في الحافرة – أي هل يمكن أن نعود إلى حالتنا الأولى – فكل إنسان ومهما بلغت مداركه ومشاعره من مستوى، ليعلم أنَّ خلق السماء وما يسبح فيها من نجوم وكواكب ومجرات، لهو أعقد وأعظم من خلق الإنسان .... وإذاً فمَنْ له القدرة على خلق السماء وما فيها من حقائق، أيعقل أنْ يكون عاجزاً عن إعادة الحياة مرة أخرى إلى الناس؟ !

وكذلك الأرض والجبال وغيرها من الآيات التي تدلل على عظمة الخالق وقدرته ....

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾

تعرض آيات القرآن الكريم لنا جوانباً من صور عالم القيامة، وتبدأ بتصوير تلك الداهية المذهلة التي تصيب من عبد أهواءه في الحياة الدنيا.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ الطامة: من (الطَّمِّ) – على زنة فن– وهو في الأصل بمعنى ملء الفراغ والحفر، ويطلق بالطامة على كل شيء بلغ حده الأعلى، ولهذا فقد أطلقت على الحوادث المرة والصعاب الكبار، وهي في الآية تشير إلى يوم القيامة لما فيها من دواهي تغطي بهولها كل هول، واتبعت بـ (الكبرى) زيادة في التأكيد على أهمية وخطورة يوم القيامة. ويضيف: حال حلول الحدث سيفلت الجميع من نياط غفلتهم، ويتذكروا ما زرعوا لحياتهم.

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾وأنى للتذكر بعد فوات الأوان ! وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا ويتداركوا الأمر، فسيقرعون بـ كلا. وإذا ما اعتذروا تائبين، فلا محيص عن ردهم، بعد أنْ أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبار الحكيم. وعندها لا يبقى لهم إلا الحسرة والندامة، والهم والغم، وكما تقول الآية (٢٧) من سورة الفرقان: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ وثمة نكتة في الآية ترتبط بصيغة الفعل (يتذكر) فقد جاء الفعل مضارعاً ليدل على استمرارية التذكر، فالإنسان أمام ذلك المنظر الرهيب، وقد أزيلت الحجب عن قلبه وروحه، سيرى الحقائق بعينها شاخصة أمامه، ولا ينسى حينها ما اكتسبت يداه من أعمال. وتشخص الآية التالية ما سيقع: (وبرزت الجحيم لمن يرى) فالجحيم موجودة، ولكن حجب الدنيا تمنعنا من رؤيتها، وأما في يوم الفصل، يوم البروز، فسيبرز كل شيء ولا يستثنى من ذلك جهنم. وجملة (لمن يرى) تشير إلى رؤية جهنم من قبل الجميع بلا استثناء (الصالح والطالح) فهي غير خافية عن الأنظار. وقيل: إنها لمَنْ سيكون له نظر في يوم القيامة، لأن الآية (١٢٤) من سورة طه قد صرحت بأنَّ البعض سيحشر أعمى ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾، ويعتمد أكثر المفسرين على التفسير الأول لمناسبته للمقام، لأنَّ

رؤية جهنم من قبل العاصين ستكون أكثر إيلاماً لهم، إضافة إلى أنَّ العمى المشار إليه، ربما يكون في موقف معين من مواقف يوم القيامة، وليس دائماً.

وفي الآيات الثلاثة التالية يشير القرآن إلى حال المجرمين والطغاة يوم القيامة: ﴿ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فالآية الأولى تشير إلى فساد عقائد الطغاة، لأنَّ الطغيان ينشأ من الغرور، والغرور من نتائج عدم معرفة الباري جل شأنه، وبمعرفة عظمة وجلال الله يتصاغر الإنسان ويتصاغر حتى يكاد لا يرى لنفسه أثراً، وعندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودية الحقة ما دام سلوكه يصبُّ في رافد معرفة الله. والآية الثانية تشير إلى فسادهم العملي، لأن الطغيان يوقع الإنسان في شراك اللذائذ الوقتية الفانية ذروة الطموح ومنتهى الأمل، فينساق واهماً لأنْ يجعلها فوق كل شيء ! والأمران في واقعهما كالعلة والمعلول، فالطغيان وفساد العقدة مفتاح فساد العمل وحب الدنيا المفرط، ولا يجرّان إلا إلى سوء عقبى الدار، نار جهنم خالدين فيها أبداً.

ويأتي الدور في الآيتين التاليتين لوصف أهل الجنة:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فالشرط الأول للحصول على نعم الجنة والاستقرار بها هو الخوف من الله من خلال معرفته (معرفة الله والخوف من التمرد والعصيان على أوامره)، والشرط الثاني هو ثمرة ونتيجة الشرط الأول أي الخوف والمعرفة ويتمثل في السيطرة على هوى النفس وكبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون الله، لأنه المنفذ الرئيسي لدخول معترك الذنوب والمفاسد، ولذا فـ (أبغضُ إلهٍ عُبِدَ على وجهِ الأرضِ الهوى).

اتباع الهوى وأثره على النفس

* روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنَّ الشديد ليس مَنْ غلب الناس، ولكنَّ الشديد مَنْ غلب نفسه. عن تنبيه الخواطر. (١)
* عن أمير المؤمنين عليه السلام: أوصيكم بمجانبة الهوى، فإنَّ الهوى يدعوا إلى العمى، وهو الضلال في الآخرة والدنيا. (٢)
* وعنه : إنك إنْ أطعت هواك أصمَّكَ وأعماك، وأفسد منقلبك وأرداك. (٣)
* روي عن الإمام الصادق عليه السلام: احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهواءهم، وحصائد ألسنتهم. (٤)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

تتعرض الآيات أعلاه لإجابة المشركين ومنكري المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قيام الساعة (يوم القيامة) والقرآن في مقام الجواب يسعى إلى إفهامهم بأنه لا أحد يعلم بوقت وقوع القيامة، ويوجه الباري خطابه إلى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأنك لا تعلم وقت وقوعها، ويقول: فيمَ أنت من ذكراها. فما خفي عليك (يا محمد)، فمِنْ باب أولى أنْ يخفى على الآخرين، والعلم بوقت قيام القيامة من الغيب الذي اختصه الله لنفسه، ولا سبيل لمعرفة ذلك سواه إطلاقا ! وكما قلنا فسر خفاء موعد الحق يرجع لأسباب تربوية،

---

(١) ميزان الحكمة عن تنبيه الخاطر.
(٢) المصدر نفسه عن مستدرك الوسائل.
(٣) المصدر نفسه عن غرر الحكم.
(٤) المصدر نفسه عن الكافي.

فإذا كان ساعة قيام القيامة معلومة فستحلُّ الغفلة على جميع إذا كانت بعيد، وبالمقابل ستكون التقوى اضطراراً والورع بعيداً عن الحرية والاختيار إذا كانت قريبة، والأمران بطبيعتهما سيقتلان كل أثر تربوي مرجو..... إلى غير ذلك من أقوال في التفسير.

وتقول الآية التالية: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ فالله وحده هو العالم بوقت موعدها دون غيره ولا فائدة من الخوض في معرفة ذلك.

ويؤكد القرآن هذا المعنى في الآيتين: ٣٤ من سورة لقمان: (إنَّ الله عنده علم الساعة)، وفي الآية (١٨٧) من سورة الأعراف: (قل إنما علمها عند ربي). وتسهم الآية التالية في التوضيح: (إنما أنت منذر من يخشاها) إنما تكليفك هو دعوة الناس إلى الدين الحق، وإنذار من لا يأبى بعقاب أخروي أليم، وما عليك تعيين وقت قيام الساعة.

وتأتي آخر آية من السورة لتبين أنَّ ما تبقى من الوقت لحلول الوعد الحق ليس إلا قليلاً.

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ فعمر الدنيا وحياة البرزخ من السرعة في الانقضاء ليكاد يعتقد الناس عند وقوع القيامة بأنَّ كل عمر الدنيا والبرزخ ما هو إلا سويعات معدودة ! وليس ببعيد لأنَّ عمر الدنيا قصير بذاته، وليس من الصواب أنْ نقايس بين زمني الدنيا والآخرة.

فهذه أهم المباحث التي تعرضت لذكرها السورة المباركة والتي ينبغي علينا معرفتها لنكون على بينةٍ من ذلك.

(سورة عبس)

سورة عبس (مكية) وعدد آياتها (اثنتان وأربعون)

مباحث السورة / تبحث هذه السورة على قصرها مسائل مختلفة مهمة تدور بشكل خاص حول محور المعاد، ويمكن إدراج محتويات السورة في خمسة مواضيع أساسية:

١ – عتاب إلهي شديد لمَنْ واجه الأعمى الباحث عن الحق بأسلوب غير لائق.

٢ – أهمية القرآن الكريم.

٣ – كفران الإنسان للنعم والمواهب الإلهية.

٤ – بيان جانب من النعم الإلهية في مجال تغذية الإنسان والحيوان لإثارة حس الشكر في الإنسان.

٥ – الإشارة إلى بعض الوقائع والحوادث الرهيبة ومصير المؤمنين والكفار ذلك اليوم العظيم.

فضل تلاوتها / ورد في الحديث النبوي الشريف: إنَّ مَنْ قرأ سورة (عبس) جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾

سبب النزول / تبين الآيات المباركة عتاب الله تعالى بشكل إجمالي، عتابه لشخص قدَّمَ المال والمكانة الاجتماعية على طلب الحق، أما مَنْ هو المعاتَب؟

فقد اختلف فيه المفسرون، لكن المشهور بين عامة المفسرين وخاصتهم ما يلي:

أولاً / إنها نزلت في عبد الله بن أم مكتوم، إنه أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبي وأمية بن خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم (فإنَّ في إسلامهم إسلام جمع من أتباعهم، وكذلك توقف عدائهم ومحاربتهم للإسلام والمسلمين)، فقال: يا رسول الله، أقرئني وعلِّمني مما علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشتغلٌ مقبلٌ على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والعبيد، فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآية، وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: مرحباً بمَنْ عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين.

ثانياً / ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: إنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي، فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذَّرَ منه وجمع نفسه عبسَ وأعرضَ بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وأنكره عليه.

وقد أيد السيد الشريف المرتضى الرأي الثاني. ويحتج على الرأي الأول بأنَّ ما في آية عبس وتولى لا يدل على أنَّ المخاطب هو النبي ﷺ حيث أنَّ العبوس ليس من صفاته مع أعدائه، فكيف به مع المؤمنين المسترشدين ! ووصف التصدي للأغنياء والتلهِّي عن الفقراء مما يزيد البون سعة، وهو ليس من أخلاقه ﷺ الكريمة، بدلالة قول الله تعالى في الآية (٤) من سورة (ن)، والتي نزلت قبل سورة عبس، حيث وصفه الباري: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

وعلى فرض صحة الرأي الأول في شأن النزول، فإنَّ فعل النبي ﷺ والحال هذه لا يخرج من كونه (تركاً للأولى)، وهذا ما لا ينافي العصمة، وللأسباب التالية:

أولاً: على فرض صحة ما نسب إلى النبي في إعراضه عن الأعمى وإقباله على شخصيات قريش، فإنه ﷺ بفعله ذلك لم يقصد سوى الإسراع في نشر الإسلام عن هذا الطريق، وتحطيم صف أعدائه.

ثانياً: إنَّ العبوس أو الانبساط مع الأعمى سواء، لأنه لا يدرك ذلك، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ (عبد الله بن أم مكتوم) لم يراع آداب المجلس حينها، حيث أنه قاطع النبي ﷺ مراراً في مجلسه وهو يسمعه يتكلم مع الآخرين، ولكن بما أنَّ الله تعالى يهتم بشكل كبير بأمر المؤمنين المستضعفين وضرورة اللطف معهم

واحترامهم فإنه لم يقبل من ذلك .....

والآيات التي بعد ذلك تبين قدرة الله تعالى في خلقه للإنسان والآيات الكونية وكفر إنسان وطغيانه أمام هذه النعم الإلهية .....

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

ينتقل الحديث في هذه الآيات إلى يوم القيامة وتصوير حوادثه، وما سيؤول فيه من أحوال المؤمنين الكافرين، كل بما كسبت يداه وقدَّم. فمتاع الحياة الدنيا وإنْ طال فهو قليل جداً في حساب حقيقة الزمن، وأنَّ خالق كل شيء لعظيم في خلقه وشأنه، وأنَّ المعاد حق ولابد من حتمية وقوعه.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ (الصاخة) من (صَخَّ) وهو الصوت الشديد الذي يكاد أنْ يأخذ بسمع الإنسان، ويشير في الآية إلى نفخة الصور الثانية، وهي الصيحة الرهيبة التي تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعاً ليبدأ منها يوم الحشر.

تأتي الآية التالية، ولتقول مباشرة.

﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴾ ذلك الأخ الذي ما كان يفارقه ! وكذلك: (أمه وأبيه) حتى: (وصاحبته وبنيه) فوحشة ورهبة يوم القيامة لا تنسي الأخ والأم والأب والزوجة والأولاد فحسب، بل وتتعدى إلى الفرار منهم، فحينها سوف لا يهتم إلا نفسه وما قدم، وسينسى أمه التي كانت تحبه وتفديه، وأبوه الذي رباه واحترمه، وزوجته التي لا تعرف غيره، وأولاده ثمرة كبده وقرة عينه.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الحميم، وهل يذكره الرجل يوم القيامة؟

فقال: ثلاثة مواطن لا يذكر (فيها) أحدٌ أحداً: عند الميزان، حتى ينظر أيثقل ميزانه أم يخف ؟ وعند الصراط، حتى ينظر أيجوزه أم لا ؟ وعند الصحف، حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشماله ؟ فهذه ثالثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا حبيبه ولا قريبه ولا صديقه، ولا بنيه ولا والديه، ذلك قوله تعالى: لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه.

وينتقل البيان القرآني ليصور لنا حال العباد بقسميهم في ذلك اليوم.

﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴾ أي مشرقة وصبيحة.

﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ أي تغطيها ظلمات ودخان. (الكفرة) جمع (كافر) والوصف يشير إلى فاسدي العقيدة.

(الفجر) جمع (فاجر) والوصف يشير إلى فاسدي العمل.

ونستخلص من كل ما تقدم، إنَّ آثار فساد العقيدة لدى الإنسان وأعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة. وقد اختير الوجه، لأنه أكثر أجزاء الإنسان تعبيراً عما يخالجه من حالات الغبطة والسرور أو الحزن والكآبة. فالوجوه الضاحكة المستبشرة تحكي عن الإيمان وطهارة القلب وصلاح الأعمال.

(سورة التكوير)

سورة التكوير (مكية) وعدد آياتها (تسع وعشرون) آية

مباحث السور / السورة تدور حول محورين أساسيين:

المحور الأول: هو ما شرعت به السورة من تبيان علائم يوم القيامة، وما يواجه العالم من تغييرات قبيل يوم القيامة.

المحور الثاني: الحديث عن عظمة القرآن ومن جاء به، وأثره على النفس الإنسانية، بالإضافة إلى تكرار اليمين والقسم في آيات عدة لإيقاظ الإنسان من غفلته.

فضل تلاوتها / روي عن النبي ﷺ: مَنْ قرأ سورة (إذا الشمس كورت) أعاذه الله تعالى أنْ يفضحه حين تنشر صحيفته. وفي حديث آخر سئل النبي ﷺ عن ظهور آثار كبر السن عليه، فقال: شيَّبَتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت. وعن الإمام الصادق عليه السلام: مَنْ قرأ (عبس وتولى وإذا الشمس كورت) كان تحت جناح الله من الخيانة وفي ظل الله وكرامته، وفي جنانه، ولا يعظم ذلك على ربه إن شاء الله.

وتلاوة القرآن المقصودة في الأحاديث أعلاه، ينبغي أنْ يكون بشروطها من التأمل والإيمان والعمل .....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾

التفسير /

نواجه في بداية السورة إشارات قصيرة مثيرة ومرعبة لما سيجري لنهاية العالم المذهلة – بداية يوم القيامة – فتنقل الإنسان في فكره وأحاسيسه إلى مفاجآت ذلك اليوم الرهيب، قد تحدثت تلك الإشارات عن ثمانية علائم ومشاهد من يوم القيامة.

المشهد الأول / ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ كورت: من التكوير بمعنى الطَيِّ والجمع واللف (مثل لف العمامة على الرأس) فالمقصود هو خمود نور الشمس وذهابه، وتغير نظام تكوينها عند حلول وقت نهاية العالم، والاقتراب من يوم القيامة، حيث سيخمد ذلك اللهب المروع، وستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، ويصغر حجمها ....

المشهد الثاني / ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ انكدرت: من الانكدار بمعنى السقوط والتناثر، واشتق من الكدورة وهي السواد والظلام. ويمكن جمع المعنيين في الآية لأنَّ النجوم في يوم القيامة ستفقد إشعاعها وتتناثر وتسقط في هاوية الفناء.

المشهد الثالث / ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ وقد ذكرنا مراحل فناء الجبال ابتداء من السير والحركة وانتهاء بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية ٢٠ من سورة النبأ).

المشهد الرابع / ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ العشار: جمع عشراء وهي الناقة التي مر على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعد ما امتلأت أثداؤها باللبن، وهي من أحبِّ وأثمن النُّوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة. عطلت: تركت لا راعي لها. فهول ووحشة القيامة سينسي الإنسان أحب وأثمن ما يمتلكه.

المشهد الخامس / ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ فالحيوانات الوحشية التي تراها في الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الأخرى خوفاً من الافتراس والبطش، ستراها وقد جمعت في محفلٍ واحدٍ وكلٌّ منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيطاب به من رهبة وأهوال ذلك اليوم الخطير، وكأنها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدة خوفها وفزعها ! !

المشهد السادس / ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ سجرت: من التسجير بمعنى إضرام النار، وإذا خالج القدماء التعجب والاستغراب لهذا الوصف القرآني، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين القابلات

للاشتعال بسرعة. وعلى ضوء هذا المعنى يمكننا أنْ نتصور امتلاء البحار مما سيتسبب من الزلازل الحادثة وتدمير الجبال في إرهاصات يوم القيامة ، أو ستمتلئ بما يتساقط من أحجار وصخور سماوية، فيفيض ماؤها على اليابسة ليغرق كل شيء.

المشهد السابع / ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾فتبدأ الألفة بخلاف حال الدنيا، فالصالحون مع الصالحين، والمسيؤون مع المسيئين، وأصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركاً أو تزوج الصالح من غير الصالحة في الحياة الدنيا، فتصنيف يوم القيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق. فبعد أنْ تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن ستة تحولات كمقدمات يوم القيامة، تأتي الآية أعلاه لتُخْبِرَ عن أولى خطوات يوم القيامة، المتمثلة بالتحاق كل شخص بقرينه.

المشهد الثامن / ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾الموؤودة: من الوأد على وزن (وعد) بمعنى دفن البنت حية بعد ولادتها. وأطلق الأئمة الأطهار عليهم السلام مفهوم الوأد ليشمل كل قطع رحم وقطع مودة، وحينما سئل الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الآية، قال: مَنْ قُتِلَ في مودَّتنا.

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

فبعد مرحلة الفناء العام، تأتي مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الإلهي. ومن خطوط هذه المرحلة

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾فستنشر الصحف التي دونت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة وكُلٌّ سيعرف جزاءه بعد الاطلاع على صحيفة أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (١٤) من سورة الإسراء ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ وسيكون نشر الصحف أمام الملأ العام لتقر عيون المحسنين سروراً، ويقاسي المسيؤون العذاب النفسي. ثم يضيف.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ وما يراد من (كشطت) في الآية هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوي والعلوي، التي تمنع رؤية الناس للملائكة أو الجنة والنار ، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخص أمام ناظريه شخوصاً حقيقياً.
ويبين البيان القرآني بذات السياق السابق صفات النار والجنة وتسعر النار ولهيبها وقرب الجنة ونعيمه.

﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾أزلفت: من (زلف) على وزن (حرف) و (زلفى) على وزن (كبرى) بمعنى القرب، فيمكن أنْ يكون المراد هو: القرب المكاني، أو القرب الزماني، أو القرب من حيث الأسباب والمقدمات، فستكون الجنة قريبة من المؤمنين من حيث: المكان، زمان دخولها، من حيث تسهيل أسبابها لهم. وقد تجلت مكانة المؤمنين عند الله حينما صرحت الآية باقتراب الجنة من المؤمنين، ولم تقل: اقترب المؤمنين من الجنة. وكما قلنا آنفاً فالجنة والنار موجودتان في كل وقت، ولكن مع حلول يوم القيامة تكون الجنة والنار أشد اشتعالاً من أي وقت مضى. وتأتي الآية الأخيرة (من الآيات المبحوثة) لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزاء الشرط للجمل السابقة.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ فستحضر أعمال الإنسان كاملة، ولا من محيص من العلم والاطلاع بها في عالم الشهود والمشاهدة. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة في آيات مباركات ، منها . . . الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ فالآية إذن تبين مسألة تجسم الأعمال في يوم القيامة، فأعمالنا التي نتصورها قد انتهت وفَنَت في عالمنا الدنيوي هي ليست كذلك، فكل عمل قمنا به سيتجسم بصورة ما، ليحضر أمام أعيننا في عرصة المحشر الرهيبة.

ففي الآيات المباركة تمت الإشارة إلى (١٢) حادثة من حوادث يوم القيامة.
فالحوادث الستة الأولى قد ارتبطت بمرحلة الفناء العام للعالم (المرحلة الأولى).
والستة الثانية قد اختصت بمرحلة عودة الحياة بعد الموت من جديد .
وكان الحديث في الستة الأولى عن:

١- ذهاب ضوء الشمس. ٢- تساقط وتناثر النجوم. ٣- إزالة الجبال عن واقعها وتحولها إلى غبار منتشر. ٤- إضرام البحار ناراً. ٥- نسيان المال والثروة. ٦- اجتماع الحيوانات الوحشية في مكان واحد.

فيما كان الحديث في الستة الثانية عن:

١- حشر الناس فرادى. ٢- سؤال الموؤودة عن ذنبها الذي قتلت من أجله. ٣- نشر الصحف. ٤- ارتفاع الحجب عن صفحة السماء. ٥- اشتعال أوار جهنم واقتراب الجنة. ٦- اطلاع الإنسان على كل أعماله مجسدة.

ورغم قصر جمل الآيات إلا أنها حملت الكثير من المعاني وبأسلوب مثير يعمل على تحريك ضمير الإنسان ويدفعه للتوغل في أعماق التأمل والفكر، وقد جسمت الآيات نهاية العالم بتصوير رائع، بحيث قربت إلى الأذهان كيفية حدوث القيامة، كل ذلك في عبارات وجيزة وبألفاظ سهلة، وكل هذا يعطي مدى قوة بيان وبلاغة القرآن الكريم، فما أجمل وأعذب القرآنية، وما أغزرها بالمعاني والإشارات ! !

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾

بعد أنْ تناولت الآيات السابقة مواضيع: المعاد، مقدمات يوم القيامة، وحوادث يوم القيامة . . . تأتي الآيات أعلاه لتطرق عن: أحقية القرآن وصدق نبوة محمد ﷺ والآيات في حقيقتها تأكيد على ما جاء في الآيات السابقة لموضوع المعاد ، إضافة لذكرها صور بيانية منبهة على هذه الحقيقة.

قد ذكر سبحانه أوصافاً ثلاثة في **الحلف الأول**: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾

الأول: الخنس وهو جمع خانس كالطُّلَّب جمع طالب، فقد فسره الراغب في مفرداته بالمنقبض، قال سبحانه: (من شر الوسواس الخناس) أي الشيطان الذي يخنس، أي ينقبض إذا ذكر الله تعالى. فالخنس أي الكواكب التي تخنس بالنهار.

الثاني: الجوار جمع جارية، والجري السير السريع مستعار من جري الماء.

الثالث: الكنس جمع كانس، والكنوس دخول الوحش كالظبي والطير كناسه أي بيته الذي اتخذه لنفسه واستقراره فيه، وهو كناية عن الاختفاء، فالمقسم به في الواقع هي الجواري بما لها من الوصفين: الخنوس والكنوس، وكأنه قال: فلا أقسم بالجوار الخنس والكنس.

الحلف الثاني: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ وقد فسر عسعس بإدبار الليل وإقباله، فإقبالها في أوله وإدبارها في آخره. والظاهر أنَّ المراد هو إقبالها.

الحلف الثالث: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ والمراد من تنفس الصبح هو انبساط ضوئه على الأفق ودفعه الظلمة التي غشيته، وكأن الصبح موجود حيوي يغشاه السواد عند قبض النفس ويعلوه الضوء والانبساط عند التنفس.

وأما المقسم عليه فهو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن، والمراد من رسول هو جبرئيل، وكون القرآن قوله لا ينافي كونه قول الله إذ يكفي في النسبة أدنى مناسبة وهي أنه أنزله على قلب سيد المرسلين.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ ﴾

وتجسد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: (إنه لقول رسول كريم) فالجواب موجه لمَنْ اتهم النبي ﷺ باختلاق القرآن ونسبته إلى الباري جل شأنه. وقد تناولت وما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحي الله جبرائيل عليه السلام وهي الأوصاف التي ينبغي توفرها في كُلِّ رسول جامع لشرائط الرسالة.

الصفات التي ينبغي توفرها في الرسول

- الصفة الأولى: (كريم) إشارة إلى علو مرتبته وجلالة شأنه.
- الصفة الثانية: (ذي قوة عند ذي العرش) أي صاحب قدرة لما للقدرة العظيمة والقوة الفائقة من دور مهم وفعال في عملية حمل وإبلاغ الرسالة.
- الصفة الثالثة: (مكين) صاحب منزلة ومكانة، وبدون ذلك لا يتمكن الرسول من أداء رسالته على أتم وجه.
- الصفة الرابعة: (مطاع) ويراد بها: إنَّ أمين الوحي الإلهي نافذ الكلمة في عالم الملائكة.
- الصفة الخامسة: أمين. وإنه في ذروة الأمانة في عملية إبلاغ الرسالة .

بعد ذلك ينفي القرآن ما نسب إلى النبي ﷺ (وما صاحبكم بمجنون) والصاحب: هو الملازم والرفيق والجليس، والوصف هذا مضافاً إلى أنه يحكي عن تواضع النبي ﷺ مع جميع الناس، فلم يرغب يوماً في الاستعلاء على أحد منكم، فإنه قد عاش بينكم حقبة طويلة، وجالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله وحسن درايته وأمانته ، فكيف تنسبون له الجنون ؟!

ويؤكد القرآن أيضاً على الارتباط الوثيق ما بين النبي ﷺ وجبرائيل عليه السلام.

المرأة في الإسلام

ويمكن معرفة أهمية المرأة في الإسلام حيث نستشف مدى اهتمام الإسلام بالمرأة وبالدم الإنساني (خصوصاً دم الأبرياء) من خلال اهتمام الباري جل شأنه بمسألة وأد البنات، ويكفي القرآن الكريم دلالة على أنْ قدم ذكر بحث مسألة الوأد في محكمة العدل الإلهي يوم القيامة على مسألة نشر صحف الأعمال وبقية المسائل الأخرى لما فيها من قباحة وشناعة في حق المرأة كإنسانةٍ لها حق الحياة كما للرجل من حق.

وتعتبر عادة (الوأد) من أقبح جرائم وعادات عصر جاهلية ما قبل الإسلام. وإذا كان البعض قد حصرها في قبيلة كندة أو بعض القبائل الصغيرة المتناثرة هنا وهناك دون بقية القبائل العربية الأخرى، فالمُسَلم به إنها كانت من الشيوع بحيث تناول القرآن الكريم ذكرها لأكثر من مرة وبتأكيد شديد. يقول المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية إذا ما حان وقت ولادتها، حفرت حفرة وقعدت على رأسها، فإنْ ولدت بنتاً رمَتْ بها في الحفرة، وإنْ ولدت غلاماً حبسته، وثمة أسباب كثيرة وراء هذه الجريمة البشعة، منها: احتقار المجتمع الجاهلي للمرأة ووجود الفقر الشديد في تلك الحقبة الزمنية، والمرأة كانت مستهلكة غير منتجة، إضافة لعدم اشتراكها في الغارات التي تقوم بها القبيلة لتوفير لقمة العيش، والخوف من وقع النساء أسرى في شباك الأعداء نتيجة للمعارك التي كانت دائرة على الدوام بين القبائل، لأنَّ في هكذا أسر جرح للشرف وإذلال شديد. وتجمعت هذه الأسباب بالإضافة لأسباب أخرى فأدَّتْ إلى ظهور عادة (الوأد) الوحشية بين أفراد القبائل في ذلك العصر القابع تحت ظلام الجهل المقيت.

(سورة الانفطار)

سورة الانفطار (مكية) وعدد آياتها (تسع عشرة) آية.

مباحث السورة / لا تشذ السورة عن سياق سور الجزء الأخير من القرآن الكريم، وتدور حول محور المسائل المتعلقة بيوم القيامة، وتتضمن مجموع آياتها المواضيع التالية:

١ – أشراط الساعة، وهي الحوادث الهائلة التي سيشهدها العالم أواخر لحظات عمره وعند قيام الساعة.

٢ – التذكير بالنعم الإلهية الداخلة في كل وجود الإنسان، وكسر حالة غرور الإنسان، وتهيئته المعاد.

٣ – الإشارة إلى ملائكة تسجيل أعمال الإنسان.

٤ – بيان عاقبة المحسنين والمسيئين في يوم القيامة.

٥ – لمحات سريعة عما سيجري في ذلك اليوم العظيم.

فضل تلاوتها / روي عن الإمام الصادق عليه السلام: مَنْ قرأ هاتين السورتين: إذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة، لم يحجبه من الله حجاب، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إلى الله وينظر الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس.

ولا شك أنَّ حصول ثواب السورتين إنما يتم وضعهما في أعماق روحه، وبني على أسسها أركان نفسه وعمله، ولا لِمَنْ يلوكهما في لسانه ولا غير !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير /

عندما يحل الحدث المروع ! تقدم لنا الآيات (مرة أخرى) مشاهد مروعة من يوم القيامة، فتخبر عن تفطر السماء من هول الكارثة: إذا السماء انفطرت. ثم تنتقل إلى ما سيصيب الكواكب ونظامها: وإذا الكواكب انتثرت. فسينهدم العالم العلوي، وستحدث الانفجارات العظيمة المهيبة في كل النجوم السماوية، وسيتخلخل نظام المنظومات الشمسية، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالأخرى وتتلاشى فينتهي عمر العالم، ويتناثر كل شيء ليبنى على أنقاضه عالم جديد آخر.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

تنتقل الآيات أعلاه من المعاد إلى الإنسان، ببيان إيقاظي عسى أنْ ينتبه الإنسان من غفلة ما في عنقه من حق وما على عاتقه من مسؤوليات جسام أمام خالقه سبحانه وتعالى، فتخاطب الآية الأولى الإنسان باستفهام توبيخي محاط بالحنان والرأفة الربانية: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ فالقرآن يذكِّر الإنسان بإنسانيته وما لها من إكرامٍ وأفضلية، ثم جعله أمام (رب)، (كريم)،

فالرب وبمقتضى ربوبيته هو الحامي والمدبر لأمر تربية وتكامل الإنسان، وبمقتضى كرمه أجلس الإنسان على مائدة رحمته، ورعاه بما أنعم عليه مادياً ومعنوياً ودون أنْ يطلب منه أي مقابل، بل ويعفو عن كثير من ذنوب الإنسان لفضل كرمه، فهل من الحكمة أنْ يتمرد هذا الموجود المكرم على هكذا رب رحيم كريم ؟ !

وهل يحق لعاقل أنْ يغفل عن ذكر ربه ولو للحظة واحدة، ولا يطيع أمر مولاه الذي يتضمن سعادته وفوزه ؟ ! فلو أمعن الإنسان النظر في تكوين عينه وأذنه أو قلبه، عروقه وسائر أعضائه، وما أودع فيها من ألطاف ومواهب وقدرات إلهية، لتجسم أمامه عالماً من العلم والقدرة واللطف والكرم الإلهي.

وإعطاء الصورة النهائية للإنسان نسبة إلى بقية الموجودات.

نعم، فقد تكرم الباري بإعطاء النوع الإنساني صورة موزونة عليها مسحة جمالية بديعة قياسا مع بقية الحيوانات ، وأعطى الإنسان فطرة سليمة، وركبه بشكل يكون فيه مستعدا لتلقي كل علم وتربية. ومن حكمة الباري أن جعل الصور الإنسانية مختلفة متباينة، كما أشارت إلى ذلك الآية (٢٢) من سورة الروم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ ولولا الاختلاف المذكور لاختلَّ توازن النظام الاجتماعي البشري. ومع الاختلاف في المظهر فإن الباري جل شأنه قدر الاختلاف والتفاوت في القابليات والاستعدادات والأذواق والرغبات، وجاء هذا النظم بمقتضى حكمته، وبه يمكن تشكيل مجتمع متكامل سليم وكل حوائجه ستكون مؤمنة. وتلخص الآية (٤) من سورة التين خلق الله للإنسان بصورة إجمالية: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ والخلاصة فالآيات المبحوثة إضافة لآيات أخر كثيرة تهدف وبشكل دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منذ كان نطفة قذرة، مروراً بتصويره وتكامله في رحم أمه، حتى أشد حالات نموه وتكامله، وتؤكد على أنَّ حياة الإنسان في حقيقتها مرهونة بنِعَم الله، وكل حي يفعم برحمة الله في كل لحظات حياته، ولابد لكل حي ذي لب وبصيرة من أنْ يترحل من مطية غروره وغفلته، ويضع طوق عبودية المعبود الأحد في رقبته، وإلا فالهلاك الحتمي.

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ فالكرم الإلهي، ولطف الباري ونعمه ليست بمحفز لغروركم ولكنكم آليتم على عدم إيمانكم بالقيامة، فوقعتم بتلك الهاوية الموهمة. ولو دققنا النظر في حال المغرورين والغافلين، لرأينا أن الشك بيوم القيامة أو إنكاره هو الذي استحوذ على قلوبهم وما دونه مجرد مبررات واهية، ومن هنا يأتي لتشديد على أصل المعاد، فلو قوي الإيمان بالمعاد في القلوب لارتفع الغرور وانقشعت الغفلة عن النفوس.

و(الحافظين): إنَّ نظر وشهادة الله عز وجل على أعمال الإنسان، مما لا شك فيه، فهو الناظر لما يبدر من الإنسان قبل أي أحد، وأدق من كل شيء، ولكنه سبحانه ولزيادة التأكيد ولتحسيس الإنسان بعظم مسؤولية ما يؤديه، فقد وضع مراقبين يشهدون على الإنسان يوم الحساب، ومنهم هؤلاء الملائكة الكرام.

وأما أقسام المراقبين الذين يحفون بالإنسان من كل جهة إجمالاً، فهم سبعة أقسام:

أولاً: ذات الله المقدسة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

ثانياً: الأنبياء والأوصياء، بدلالة قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

ثالثاً: أعضاء بدن الإنسان، بدلالة قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

رابعاً: جلد الإنسان وسمعه وبصره، بدلالة قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

خامساً: الملائكة، بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ وبدلالة الآية المبحوثة أيضاً.

سادساً: الأرض وهي المكان الذي يعيش عليه الإنسان، بدلالة قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾

سابعاً: الزمان الذي تجري فيه أعمال الإنسان، بدلالة ما روي عن الإمام علي عليه السلام في وقوله: ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد.

وقد وصفت الآيات المبحوثة هؤلاء الملائكة بأنهم (كرام) ليكون الإنسان أكثر دقة في مراقبة نفسه وأعماله.
وينتقل البيان القرآني للتعبير عن إحدى خصائص ذلك اليوم، وبجملة وجيزة، لكنها متضمنة لحقائق ومعان كثيرة.

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ فستتجلى حقيقة أنَّ كل شيء في هذا العالم هو بيد الله العزيز القهار، وستبان حقيقة حاكمية الله المطلقة ومالكيته على كل مَنْ تنكَّر لهذه الحقيقة الحقة، وستنعدم تلك التصورات الساذجة التي حكمت أذهان المغفلين بكون فلان أميراً ورئيساً أو حاكماً، وسينهار أولئك البسطاء الذين اعتبروا أنَّ قدراتهم مستقلة بعد أنْ أكل الغرور نفوسهم وتكالب التكبر على تصرفاتهم في الحياة الدنيا الفانية.

ما يخلفه الإنسان بعد موته

المستفاد من الرويات الشريفة، بالإضافة لما ورد في الآيات المباركة أعلاه، إنه ثمة أعمال وآثار يخلفها الإنسان بعد موته، وما ينسجم من تلك الأعمال والآثار حتى يوم القيامة يبقى مرتبطاً بذات الفاعل الأصلي، فإنْ كانت الأعمال خيرة فستصله حسنات تتمة العمل واستمراره، وإنْ كانت شريرة فلا يجني منها سوى الهون والعذاب. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنة هدى سَنَّها، فهي تعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له.
وفي رواية أخرى: ست خصال يتنفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، مصحف يقرأ منه، وقليب (بئر) يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده.
وقد حذرت كثير من الروايات من أنْ يسنَّ الإنسان سنة سيئة، لأنَّ الفاعل الأول ستتابع عليه آثام تلك السنة إلى يوم القيامة.
وكذلك حثت وشوقت على استنان السنن الحسنة، لينتفع الفاعل الأول لها بثوابها الجاري إلى يوم القيامة.

(سورة المطففين)

سورة المطففين (مكية) وعدد آياتها (ست وثلاثون) آية.

مباحث السورة / بحوث السورة تدور حول محاور خمس:

١ – تحذير وإنذار شديد للمطففين.

٢ – الإشارة إلى أنَّ منشأ الذنوب الكبيرة إنما يأتي من عدم رسوخ الإيمان بالبعث والمعاد.

٣ – عرض لجوانب من عاقبة الفجار في ذلك اليوم العظيم.

٤ – عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين في الجنة من نعم إلهية وعطاء رباني جزيل.

٥ – الإشارة لآثار استهزاء الكفار بالمؤمنين في الحياة الدنيا، وانعكاس الحال في يوم القيامة.

فضل تلاوتها / روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم . وعن الإمام الصادق عليه السلام: مَنْ قرأ في فرائضه ويل للمطففين أعطاه الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره، ولم يرها ....

وبطبيعة الحال فكل هذا الثواب والفضيلة والبركة، سينالها من جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥ ﴾

التفسير /

روي في سبب النزول أنه قال ابن عباس: لما قدم نبي الله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقيل: كان تجار المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأها عليهم وقال: خمسٌ بخمسٍ، قيل يا رسول الله، وما خمس بخمس ؟ قال: ما نقص قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ! وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ! وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ! ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين! ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر ! .

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ بدأ الحديث في هذه السورة بتهديد شديد للمطففين، وتمثل الآية في حقيقة توجيهها إعلان حرب من الله عز وجل على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حق الناس بهذه الطريقة القذرة. (المطففين) من التطفيف وأصله من (الطف) وهو جوانب الشيء وأطرافه، وإنما قيل لكربلاء بـ (وادي الطف) لوقوعها على ساحل نهر الفرات، والتطفيف: البخس في الكيل والوزن، ونقص المكيال، وهو أنْ لا تملأه إلى أصباره. وتتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقة عمل المطففين، فتقول الآية الأولى.

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ويمكننا توجيه (الذم) الحاصل، باعتبار أخذهم حقهم كاملاً عند الشراء، وينقصون من حق الآخرين عند البيع، كمَنْ يريد أنْ يذم شخصاً بقوله: ما أغربك من رجل، تراك تأتي في الموعد المقرر عندما تكون دائناً، وتتهرب من أداء ما عليك عندما تكون مديناً. فأخذ الحق في موعده المقرر ليس عملا سيئاً، ولكن حصول الحالتين أعلاه في شخص واحد هو السيء. إنَّ الآيات وإنْ تحدثت عن التطفيف في الكيل والوزن، ولكن لا ينبغي حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، وليس من البعيد أنْ تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدي من خدمة

مقابل أجر كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنه والحال هذه سيكون في حظيرة المطففين المذمومين بشدة في الآيات المباركة المذكورة.

ويهدد القرآن الكريم المطففين باستفهام توبيخي.

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يوم عظيم في عذابه، حسابه وأهواله.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي إنهم لو كانوا يعتقدون بالبعث والحساب وأنَّ أعمالهم مسجلة وستعرض كاملة في محكمة العدل الإلهي بخيرها وشرها، وكبيرها وحقيرها، لو كانوا يعتقدون ذلك لما ظلموا أحداً ولأعطوا الناس حقوقهم كاملة. وقد اعتبر كثير من المفسرين إنَّ الظن الوارد في الآية بمعنى اليقين:، كما هو في الآية (٢٤٩) من سورة البقرة: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ومما يشهد على ما ذكر أيضاً، ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير الآية: ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، أنه قال: أليس يوقنون أنهم مبعوثون ؟ فيكون مفهوم الآية على ضوء ما ورد: ليس المطففين العاصين لا يملكون اليقين بوجود يوم القيامة، بل إنهم لا يظنون بذلك أيضاً.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة عن المطففين وعن ارتباط الذنوب بعدم الإيمان الراسخ بالمعاد ويوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبة المسيئين والفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول:

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ كلا فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد وأنه ليس هنا حساب وكتاب، بل إنَّ كتاب الفجار لفي سجين. وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم. وتوجد نظرتان في تفسير الآية أعلاه:

الأولى: المراد من (كتاب): هو صحيفة الأعمال التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من الأفعال الإنسان إلا وأحصتها. والمراد بـ (سجين): هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموماً. وما نستفيده من الآيات المذكورة وآيات أخرى إنَّ أعمال جميع المسيئين تجمع في كتاب يسمى سجين، وأعمال جميع الصالحين والأبرار تجمع في كتاب آخر اسمه عليين. و (سجين) من السجن وهو الحبس، وله استعمالات متعددة .....

أما القرائن التي تؤيد هذا التفسير فهي:

١ – غالباً ما وردت كلمة (كتاب) في القرآن الكريم بمعنى صحيفة الأعمال.

٢ – ظاهر الآية التالية: كتاب مرقوم يشير إلى أنها تفسير لـ (سجين).

٣ – قيل : إن (سجين) و (سجيل) بمعنى واحد، وكما هو معلوم أنّ سجيل بمعنى كتاب كبير.

٤ – وتشير آيات قرآنية أخرى إلى أنَّ أعمال الإنسان تضبط في عدة كتب، حتى لا يبقى عذر للإنسان في حال حسابه. وأولى تلك الكتب صحيفة الأعمال المعدة لكل شخص، فالصالح سيعطى كتابه في يمينه، والمسيء سيعطى كتابه في شماله. وهذا المعنى كثير ما تكرر ذكره في القرآن الكريم. والكتاب الثاني هو ما تسجل فيه أعمال الأمم، ويمكن أن نسميه بـ (صحيفة أعمال الأمم) والآية (٢٨) من سورة الجاثية تشير إلى هذا بقولها: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ وثالث الكتب هو صحيفة أعمال جميع الأبرار والفجار التي وردت الإشارة إليهما في الآيات المبحوثة وما سيأتي من الآيات باسم سجين وعليين.

وخلاصة القول: إنَّ سجين عبارة عن ديوان جامع لكافة صحائف الفجار والفسقة، وأطلق عليه هذا الاسم باعتبار أنَّ ما فيه يؤدي إلى حبس أصحابه في جهنم، أو أنَّ هذا الديوان موجود في قعر جهنم. على عكس كتاب الأبرار فإنه في أعلى عليين في الجنة.

الثانية: إنَّ سجين هي جهنم، وهي سجن كبير لجميع المذنبين، أو هي محل شديد من جهنم. وكتاب الفجار أي ما قرر لهم من عاقبة ومصير. فيكون التقدير على ضوء هذا التفسير: إنَّ جهنم هي المصير المقرر للمسيئين، وقد استعمل القرآن كلمة كتاب بهذا المعنى في مواضع عدة، ومن ذلك ما جاء في الآية (٧٥) من سورة الأنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما قرره الله وجعله من أحكام، ومما يؤيد هذا التفسير ما جاء في الروايات من أنَّ سجين هي جهنم، ففي تفسير علي بن إبراهيم قال في تفسير: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجين. وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: السجين الأرض السابعة، وعليون السماء السابعة. (إشارة إلى أخفض وأعلى مكان)

ومن كل ما تقدم نصل إلى أنَّ سجين مكان شديد جداً في جهنم، توضع فيه أعمال المسيئين أو صحيفة أعمالهم، أو يكون مصيرهم الحبس في ذلك المكان (السجن) وعلى ضوء هذا التفسير، تكون الآية.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ تأكيداً للآية: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ وليس تفسيراً لها، لأنَّ العقاب قد قرر لهم، وهو قطعي وحتمي. (مرقوم) من (رقم) على وزن (زخم) وهو الخط الغليظ، ولكون هكذا خط من الوضوح بحيث لا إبهام فيه، فقد استعملته الآية للإشارة إلى قطعية ما قرر لهم من مصير من غير أي إبهام أو إغفال ....

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

بعدما ذكرت آخر آية من الآيات السابقة مصير المكذبين، تأتي الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو يوم القيامة. وتقول أيضاً.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم والتفكير الصائب والاستدلال العقلي، بل هو نابع من حب الاعتداء وارتكاب الذنوب والآثام والصفة المشبهة (أثيم) تدل على استمرار الشخص في ارتكاب الذنوب، فهم يريدون الاستمرار بالذنوب والإيغال بالاعتداءات وبكامل اختيارهم، وعلى هذا الأساس فإنَّ للممارسات السيئة أثراً سلبياً على عقيدة الإنسان، مثلما للعقيدة من أثر على سلوكية وتوجيهات الإنسان، وتشير الآية التالية للصفة الثالثة لمنكري المعاد فتقول.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فبالإضافة لكون منكر المعاد معتد وأثيم فهو من الساخرين والمستهزئين بآيات الله، فالطغاة ، كثيراً ما يتذرعون بأعذار واهية، عسى أنْ يتخلصوا من لوم وتأنيب الضمير من جهة، ومن اعتراضات الناس ورجال الحق من جهة أخرى، والعجيب أنَّ الطغاة من الحماقة والتحجر بحيث أنَّ أسلوب مواجهتهم للأنبياء عليهم السلام وعلى مر التاريخ قد جاء على وتيرة واحدة، وكأنهم قد وضعوا لأنفسهم مخططاً لا ينبغي الحيد عنه، فعند مواجهتهم لدعوة الأنبياء بتعاليم السماء، ليس عندهم سوى أنْ يقولوا: سحر، كهانة، جنون، أساطير ! ويعري القرآن مرة أخرى جذر طغيانهم وعنادهم، بالقول.

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فقد احتوى صدأ أعمالهم كل قلوبهم، فأزيل عنها ما جعل الله فيها من نور الفطرة الأولى وذهب صفائها.

(رَانَ) من الرين على وزن عين، وهو: الصدأ يعلو الشيء الجليل كما يقول الراغب في مفرداته، ويقول عنه بعض أهل اللغة: إنه قشرة حمراء تتكون على سطح الحديد عند ملامسته لرطوبة الهواء وهي علامة لتلفه، وضياع بريقه وحسن ظاهره. وسنتناول موضوع تأثير الرين على صفاء القلب ونورانيته في البحوث القادمة. ويستمر البيان القرآني.

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ وهو أشد ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء بالله ودرجة القرب منه هي من أعظم نعم الأبرار والصالحين وأكثرها لذة واستئناساً.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ فدخولهم جهنم نتيجة طبيعية لاحتجابهم عن الله تعالى وأثر لازم له، ومما لا شك فيه إنَّ لهيب الحرمان من لقاء الله أشد إيلاماً وإحراقاً من نار جهنم ! وتقول الآية التالية:

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يقال لهم ذلك توبيخاً ولوماً لزيادة تعذيبهم روحياً، وهو ما ينتظر كل من عاند الحق وتخبط متاهات الضلال.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة عن الفجار وكتابهم وعاقبة أمرهم، ينتقل الحديث في هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتتحدث عن الأبرار الصالحين و حسن مآبهم، ويبدأ الحديث بالقول:

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ عليين: جمع (علِّي) على وزن (ملي) وهو المكان المرتفع، أو الشخص الجالس في مكان مرتفع، ويطلق أيضاً على ساكني قمم الجبال، وقد فسر في الآية بـ (أشرف الجنان) أو (أعلى مكان في السماء). فما عرضناه بخصوص تفسير (سجين) يصدق على (عليين) أيضاً، بقوليه:

الأول: إنَّ المقصود من (كتاب الأبرار) هو صحيفة أعمال الصالحين والمؤمنين، فجميع الأعمال تجمع في هذا الديوان العام، وهو ديوان عالي المقام وشريف القدر.

الثاني: إنَّ صحيفة أعمال الأبرار تكون في أشرف مكان، أو في أعلى مكان في الجنة، وهذا يكشف عن علو شأنهم ورفعة كرامتهم عند الله عز وجل. وهذا بالضبط هو المحل المضاد تماماً لمحل صحيفة أعمال الفجار، حيث وضعت في أسفل طبقات جهنم.

وكذلك ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي يشاهدونه، ثمة من ذهب إلى أنَّ (المقربون) في الآية هم ملائكة مقربون عند الله عز وجل، ينظرون إلى ديوان أعمال الصالحين، أو ينظرون إلى مصيرهم المحتوم. ولكن الآيات التالية تظهر بوضوح بأنَّ المقربين هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق، وبإمكانهم مشاهدة صحيفة أعمال الأبرار والصالحين.

وينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار.

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴾ النعيم: هو النعمة الكثيرة – على قول الراغب في مفرداته – وجاءت بصيغة نكرة لتعظيم شأنها، أي إنهم في نعيم مادي ومعنوي لا حد لوصفه. وينقلنا البيان القرآني لجوانب من نعيم الأبرار.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ الأرائك: جمع أريكة، وهي سرير منجد مزين خاص بالملوك، وجاءت (ينظرون) مطلقة لإعطاء مفهوم السعة والشمول، فمسموح لهم النظر إلى لطف الباري وجماله، وإلى نعم الجنة الباهرة، وإلى ما أودع فيها من رونق وبهاء.

ثم يضيف: ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ إشارة إلى أنَّ ما يبدي على وجوههم من علائم النشاط والسرور والغبطة، إنْ هو إلا انعكاس لسعادتهم الحقة، بعكس أهل جهنم الذين لا يبدو على وجوههم إلا علائم الغم والحسرة والندم والشقاء.

من هم (الأبرار) و (المقربين) ؟

ورد ذكر الأبرار والمقربين كثيراً في القرآن الكريم، وما أعد لهم من درجة رفيعة وثواب عظيم، حتى أنَّ أولي الألباب تَمَنَّوا أنْ تكون وفاتهم مع الأبرار كما تقول الآية (١٩٣) من سورة آل عمران ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ فالأبرار هم أصحاب النفوس الزكية الأبية الطاهرة، ومعتنقي العقائد الصائبة، والذين لا يعملون إلا ما فيه الخير والصلاح.

والمقربون: هم الذين لهم مقام القربة عند الله عز وجل.

فبين الأبرار والمقربين عموم وخصوص مطلق، حيث كل المقربين أبرار، وليس كل الأبرار مقربين.

وروي عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنه قال: كلما في كتاب الله عز وجل من قوله (إنَّ الأبرار) فوالله ما أراد به إلا علي بن أبي طالب وفاطمة وأنا والحسين. ومما لا يشوبه شك أنَّ الخمسة الطيبة، تلك الأنوار القدسية، وهي أفضل مصاديق الأبرار والمقربين. وكما ذكرنا في تفسيرنا لسورة الدهر التي تحدثت بشكل رئيسي عن أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين. وقلنا بأنَّ الآيات الثمانية عشر قد تناولت فضائلهم، ولكن لا يمنع من انطباق ذلك على غير الخمسة الطيبة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة عن النعم التي تنتظر الأبرار والصالحين في الحياة الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب مما يعانوه من مصائب ومشاكل في الحياة الدنيا بسبب إيمانهم وتقواهم وأنَّ ما سيناله الأبرار من ثواب جزيل ليس اعتباطياً، فالآيات تنقل لنا أساليب الكفار القذرة التي كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البررة، وقد صنفتها في أربعة أساليب:

الأسلوب الأول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴾ فأصل الطغيان والتكبر والغرور والغفلة الذي زرع في نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين والاستهزاء بهم والنظر إليهم بسخرية واحتقار! وجاء وصفهم بـ (أجرموا) بدلاً من (كفروا) للإشارة إلى إمكان معرفة الكافرين من خلال أعمالهم الإجرامية، فالكفر دائما مصدراً للجرائم والعصيان.

الأسلوب الثاني: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴾ فحينما يمر المشركون على مجموعة من المؤمنين يغمزون بأعينهم ويشيرون إليهم بالقول: انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين، إنهم أصبحوا مقربين عند الله ! انظروا إلى هؤلاء الحفاة العراة إنهم يدَّعون

نزول الوحي الإلهي لهم ! انظروا إليهم فإنهم يعتقدون بأنَّ العظام البالية ستعود إلى الحياة مرة أخرى ! ! وما شابه ذلك من الكلمات الرخيصة والموهنة.

الأسلوب الثالث: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾وكأنهم في ضحكهم وتغامزهم قد نالوا فتحاً كبيراً ! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة والجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، ويبقون على حالة السخرية والاستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم ! (فكهين) جمع (فكه) وهي صفة مشبهة من (الفكاهة) بمعنى التمازح والضحك.

الأسلوب الرابع: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾لأنهم تركوا ما كان شائعاً من عبادة الأصنام والخرافات التي يعتبرونها هداية ! واتجهوا نحو الإيمان بالله والتوحيد الخالص، ولأنهم باعوا لذة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة ! وإنَّ حال المشركين والكافرين على مر التاريخ في مواجهتهم لدعوة ورسالات الأنبياء عليهم السلام تبدأ بالسخرية وعدم المبالاة.
وتبقى أساليب الذين يعادون الحق محدودة في إطار الحياة الدنيا، ولكن إذا كان يوم القيامة فستختلف الحال تماماً.

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴾فيوم القيامة يوم مجازات الأعمال وإجراء العدالة الإلهية، والعدالة تقتضي بأنْ يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحق، والاستهزاء في ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذي ينتظر أولئك المغرورون والمستكبرون. وتقول الآية التالية:﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إنهم ينظرون إلى نعم الله التي لا توصف ولا تنفد في الجنة، وإلى كل ما فازوا به من الألطاف الإلهية والكرامة، وإلى ما أصاب الكفار والمجرمين من العذاب الأليم خاسئين. وفي آخر آيات السورة يقول القرآن مستفهماً.

﴿ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ فهذا القول سواء صدر من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين فهو في كل الحالات يمثل طعناً واستهزاءً بأفكار وادعاءات أولئك المغرورون، واعتبر كثير من المفسرين أنَّ الآية جملة مستقلة، في حين اعتبرها آخرون تابعة للآية التي قبلها أي: إنَّ المؤمنين سيجلسون على الأرائك ينظرون هل أنَّ الكفار نالوا جزاءهم العادل ؟

التطفيف من عوامل الفساد في الأرض:

تعرض القرآن الكريم للتطفيف في الوزن مراراً، ومن ذلك ما جاء في الآيات (١٨١-١٨٣) من سورة الشعراء، حينما خاطب شعيب عليه السلام قومه قائلاً: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ فالتطفيف في الوزن والكيل من الفساد في الأرض، وذلك لما تنتج عنه من مفاسد اجتماعية ذات أبعاد واسعة. كما جاء التأكيد في الآيتين (٧-٨) من سورة الرحمن على ضرورة الالتزام بالعدالة حين استعمال الميزان، بعد الإشارة إلى أنَّ العدل أصل قد روعي فيه حتى نظام الخلق في عالم الوجود: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾ ولذا نجد أئمة أهل البيت عليهم السلام قد أولوا هذا الموضوع اهتماماً بالغاً، حتى روي عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: يا معشر التجار! الفقه ثم المتجر ....

(سورة الانشقاق)

سورة الانشقاق (مكية) وعدد آياتها (خمس وعشرون) آية.

مباحث السورة / لا تخرج السورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة وما سيحدث من أحداث مروعة في نهاية العالم وبداية يوم القيامة.

ثم تتحدث ثانياً عن القيامة والحساب وما ستؤول إليه عاقبة كل من الصالحين والمجرمين.

ثم تعطف السورة في المرحلة الثالثة لتوضيح ماهية الأعمال والعقائد التي تجر الإنسان إلى سخط الله وخلوده بالعذاب مهاناً.

وفي الرابعة تنتقل السورة لعرض مراحل سير الإنسان في حياتيه (الدنيا والآخرة).

وفي آخر مطاف السورة يدور الحديث خامساً عن جزاء الأعمال الحسنة والسيئة.

فضل تلاوتها / روي عن النبي الأكرم ﷺ : مَنْ قرأ سورة (انشقت) أعاذه الله أنْ يؤتيه كتابه وراء ظهره. وعن الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ قرأ هاتين السورتين وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة لم يحجبه الله من حاجة، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إليه حتى يفرغ من حساب الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾

التفسير /

تبدأ السورة في ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول.

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ فتلاشت نجومها وأجرامها واختل نظام الكواكب فيها كإشارة الآيتين ١ و ٢ من سورة الانفطار التي أعلنت عن نهاية العالم بخرابه وفنائه: إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت، وتحكي الآية التالية حال السماء.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ فلا يتوهم أنَّ السماء بتلك العظمة بإمكانها إظهار أدنى مقاومة لأمر الله، بل ستستجيب لأمر الله خاضعة طائعة، لأنَّ إرادته سبحانه في خلقه هي الحاكمة، ولا يحق لأي مخلوق أنْ يعصي أمره جل وعلا.

(أذنت) من (الأذن) على وزن (أفق) وفي الآية كناية عن طاعة أمر الآمر والتسليم له.

(حقت) من (الحق) أي وحق لها أنْ تنقاد لأمر ربها، وكيف لها لا تسلم لأمره عز وجل، وكل وجودها وفي كل لحظة من فيض لطفه، نعم فالسماء والأرض مطيعتان لأمر ربهما منذ أول خلقهما حتى نهاية أجلهما، وفي المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضاً .....

وتبين الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (الكدح) على وزن (مدح) السعي والعناء الذي يخلق أثراً على الجسم والروح، وجاء في تفسير الكشاف و روح المعاني وتفسير الفخر الرازي: الكدح جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

والآية تشير إلى أصل أساسي في الحياة البشرية، فالحياة دوماً ممزوجة بالتعب والعناء، وإنْ كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا، فكيف والحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان الله ونيل حسن مآب الآخرة ؟ ! فالحياة الدنيا قد جبلت على المشقة والتعب والألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادي.

فالتعبير بـ (كادح) للإشارة إلى أنَّ طريق الحياة شاق وصعب، وخوضه يستلزم العناء والألم والمشاكل، في كافة خطوات المسير ولا يستثنى من ذلك الروح أو البدن، بل كليهما وبكل ما يحملان من جوارح وجوانح لا يخلوان من التأثر بهذه الطبيعة الحاكمة على الحياة الدنيا. ويحدثنا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام فيما روي عنه أنه قال: الراحة لم تخلق في الدنيا ولا لأهل الدنيا، إنما خلقت الراحة في الجنة ولأهل الجنة..... وما ذكر (لقاء الله) في الآية إلا لتبيان أنَّ حالة التعب والعناء والكدح حالة مستمرة إلى اليوم الموعود، ولا يتوقف إلا بانتهاء عجلة حياة الدنيا، نعم فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، والراحة الحقة هناك حيث ينعم الإنسان بين فيافي جنان الخلد. واستعمال كلمة (رب) فيه إشارة إلى ثمة ارتباط ما بين سعي وكدح الإنسان من جهة وذلك البرنامج التربوي الذي أعده الخالق لمخلوقه في عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة أخرى. وإلى ذلك المطاف ستنفصل البشرية إلى فريقين:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ فالذين ساروا على هدي المخطط الرباني لحركة الإنسان على الأرض، وكان كل عملهم وسعيهم لله دائماً ، وكدحوا في السير للوصول إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم بيمينهم، للدلالة على صحة إيمانهم وقبول أعمالهم والنجاة من وحشة ذلك اليوم الرهيب، وهو مدعاة للتفاخر والاعتزاز أمام أهل المحشر.

أما ما المراد من (الحساب اليسير) فذهب بعض إلى أنه العفو عن السيئات والثواب على الحسنات وعدم المداقة في كتاب الأعمال. وحتى جاء في الحديث الشريف: ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنة برحمته. قالوا: وما هي يا رسول الله ؟ !

قال: تعطي مَنْ حرمك، وتَصِلُ مَنْ قطعك، وتعفو عمن ظلمك. وجاء في بعض الروايات أنَّ الدقة والتشديد في الحساب يوم القيامة تتناسب ودرجة عقل وإدراك الإنسان.

ووردت أقوال متفاوتة في تفسير كلمة (الأهل) الواردة في الآية إلى أهله.

فمنهم من قال: هم الزوجة والأولاد المؤمنين لأنه سيلتحق بهم في الجنة، وهي بحد ذاتها نعمة كبيرة، لأن الإنسان يأنس بلقاء مَنْ يُحب، فكيف وسيكون معهم أبداً في الجنة !

ومنهم من قال: الأهل، الحور العين اللاتي ينتظرنهم في الجنة.

وآخرين قالوا: هم الإخوة المؤمنون الذين كانوا معه في الدنيا.

ولا مانع من قبول كل هذه الأقوال في معنى الآية وما رمزت له.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

بعد أنْ عرضت الآيات السابقة أحوال فريق أصحاب اليمين، تأتي الآيات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفريق الآخر، وتوصف لنا كيفية إعطاء كتاب كل منهم، مشرعة لتقديم المشاهد الأخرى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾فيصرخ وينادي الويل لي لقد هلكت فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً ذكرت الآية بأنَّ المجرمين سيؤتون كتبهم من وراء ظهورهم، في حين أنَّ آيات أخرى تقول بأنَّ المذنبين سيعطى كتاب كل منهم بيده الشمال. فهل من تأليف فيما بين العرضين ؟

للمفسرين جملة آراء في ذلك، منها:

قيل: إنَّ يدهم اليمنى تُغَلُّ إلى أعناقهم، ويعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء ظهورهم إيغالاً في إذلالهم وإخجالهم.

وقيل: إنَّ كلتي يديهم تربط من خلفهم – كما يفعل بالأسير – ويعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء الظهر. وقيل أيضاً ..... والأنسب أنْ نقول: سيأخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار ومباهاة في يدهم اليمنى، وكل منهم يقول: (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ولكن المجرمين سيأخذون كتبهم بأيديهم اليسرى وبسرعة ويضعونها وراء ظهورهم خجلاً وذلاً ولكي لا يطلع على ما فيها أحد، ولكن هيهات فكل شيء حينئذ بارز، كيف لا وهو (يوم البروز) !

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾يصرخ بالويل والثبور، كما هو متعارف عليه عند نزول بلاء، أو وقوع حادث شديد الخطورة. و(الثبور) الهلاك. ولكن صراخه سوف لا يدرُّ عليه نفعاً أبداً، ولابد من نيله جزاء ما اقترف.

وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا أي يدخل نار جهنم. وتبين الآية التالية علة تلك العاقبة المخزية:

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ سروراً ممتزجاً بالغرور والغفلة والجهل برب الأرباب سبحانه وتعالى، فالسرور المقصود في الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشدة بالدنيا والمنسي لذكر الآخرة.

وبديهي فالسرور والارتياح ليس مذموم بذاته، ولكن السرور المذموم هو الذي يغفل فيه الإنسان عن ذكر مولاه عز وجل، ويغرق به في بحر شهواته الموصل إلى التيه والضلالة والجهل. أما سرور المؤمن بلطف الله ونعمائه وبشاشته عند مصاحبة إخوانه، فما أحلاها وأزكاها. ويتقرب لنا المعنى من خلال الآية التالية:

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ فاعتقاده الفاسد وظنه الباطل الدائر على نفي المعاد، مصدر سروره وغروره وهو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدي، لأنه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه وتعالى بعد أنْ أوقعته شهواته في هاوية الاستهزاء بدعوة الأنبياء عليهم السلام الربانية، حتى أوصلته حالته المرضية تلك لأنْ يستمر في استهزائه وسخريته. (لن يحور) لن يرجع، من (الحور) بمعنى: الرجوع، التردد، الذهاب، والإياب سواء كان في العمل أو الفكر، والمحاورة و الحوار: المراودة في الكلام، وتحير في الأمر: تردد فيه بين أنْ يُقدم أو لا يقدم. وربما كان استعمال كلمة (الحواري) في نعت أصحاب عيسى عليه السلام أو أي مقربين لأحد، ربما كان لكثرة ترددهم عليه. وقيل أيضاً إنَّ سبب تسميتهن بـ (الحور العين) يعود إلى تحير العين في جمالهن الخارق. وعلى أية حال، فيقصد من الكلمة في الآية المبحوثة الرجوع والمعاد لإيضاح أنْ عدم الإيمان بالمعاد يؤدي إلى الوقوع في أتون الغفلة والغرور وارتكاب المعاصي.

﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ فكل أعمال الإنسان تسجل وتحصى عليه، لتعرض يوم الحساب في صحيفته.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ (لا) في (لا أقسم) زائدة، وجاءت للتأكيد. وثمة من اعتبرها نافية، أي لا أقسم، لأنَّ الأمر من الوضوح ما لا يحتاج فيه إلى قسم، إلا أنَّ الأول أقرب.

(الشفق) اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس، والإشفاق: عناية مختلطة بخوف ، لأنَّ المشفق يحب المشفَق عليه ويخاف ما يلحقه. فالشفق هو وقت الغروب، وقته ما بين الحمرة التي تظهر في الأفق الغربي عند بداية الليل، وبين ما يظهر بعد الحمرة من بياض.

فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما في هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء وجمال، وكونه وقت صلاة المغرب.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾وأما القسم بالليل فلما فيه من آثار كثيرة وأسرار عظيمة، (ما وسق) إشارة إلى عودة الإنسان والحيوانات والطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق) فيكون عندها سكناً عاماً للكائنات الحية، وهو من أسرار وآثار الليل المهمة.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ (إذا اتسق) من الاتساق وهو الاجتماع والاطراد، وتريد الآية به اكتمال نور القمر في الليلة الرابعة عشر من الشهر القمري حيث يكون بدراً. ولا يخفى ما لروعة البدر في تمامه، فنوره الهادئ الرقيق يكسو سطح الأرض، وهو من الرقة واللطافة بحيث لا يكسر ظلمة الليل وسكونه، ولكنه ينير درب سالكيه ! فهو آية كبرى من آيات الله، ولذا جاء القسم به.

وينبغي الالتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، والقمر في حالة البدر) وجميعها موضوعات مترابطة ويكمل بعضها البعض الآخر، وتشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، وتحرك عند الإنسان التأمل والتفكير في عظمة ودقة وقدرة الخالق في خلقه، ويمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعة من التوجه إلى قدرته جل شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيرات في عالم الوجود، والأمر المثير هو أنَّ القرآن الكريم يشير هنا إلى أمور متتابعة الوقوع، فعندما تغيب الشمس يظهر الشفق معلناً عن بداية حلول الليل الذي تتجه الكائنات الحية فيه إلى بيوتها ثم يخرج القمر بدراً تاماً. ثم يأتي جواب القسم الوارد في الآيات أعلاه.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾إشارة إلى المراحل والتحولات التي يمر بها الإنسان في حياته. وقد ذكرت تفاسير مختلفة لهذه الآية المباركة، منها:

١ – يقصد بها تلك الحالات المختلفة التي يمر بها الإنسان في كدحه وسيره المضني نحو الله جل وعلا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثم ينتقل إلى عالم البرزخ ومنه إلى القيامة والآخرة.

٢ – يقصد بها تلك الحالات التي يمر بها الإنسان منذ كونه نطفة حتى يموت.

٣ – يقصد بها تلك الحالات التي مرت بها الأقوام السالفة بحلاوتها ومُرِّها، وكذلك الإشارة إلى ألوان التكذيب والإنكار الذي يقع في هذه الأمة، وهذا المعنى قد ورد في حديث ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام ولا يمنع من اعتبار كل ما جاء في التفاسير أعلاه مصاديق لمعنى الآية. وقيل: إنَّ شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المخاطب في الآية. وعلى آية حال، فعدم استقرار الإنسان على حال

ثابتة يدلل على فقر الإنسان واحتياجه، لأنَّ كل متغير حادث، وكل حادث له مُحْدِث، كما وإن عدم استقرار هذا العالم علامة على حركة الإنسان المستمرة نحو الله والمعاد، وكما قالت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ومن كل ما سبق يخرج القرآن الكريم بنتيجة:

﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾فمع وضوح أدلة الحق، مثل أدلة: التوحيد، معرفة الله، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق في آيات مثل: خلق الليل والنهار، الشمس والقمر، النور والظلمة، شروق الشمس وغروبها، الشفق، ظلمة الليل، اكتمال القمر بدراً، وكذلك الآيات التي في نفس الإنسان منذ أنْ يكون نطفة في رحم أمه، وما يطويه من مراحل حتى يكتمل جنيناً، مروراً بما يمرُّ به من حالات في حياته الدنيا، حتى يدركه الموت، فمع وجود كل هذه الأدلة والآيات لِمَ لا يؤمنون ؟ !

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ﴾القرآن كالشمس يحمل دليل صدقه بنفسه، وتتلألأ أنوار الإعجاز من بين جنباته، ويشهد محتواه على أنه من الوحي الإلهي وكل منصف يدرك جيداً لدى قراءته له أنه فوق نتاجات عقول البشر ولا يمكن أنْ يصدر من إنسان مهما كان عالماً ، فكيف بإنسان لم يتلق تعليماً قط وقد نشأ في بيئة جاهلية موبوءة بالخرافات ! ويراد بـ (السجود) هنا: الخضوع والتسليم والطاعة، أما السجود المتبادر إلى الذهن بوضع الجبين على الأرض فهو أحد مصاديق مفهوم السجود. وتأتي الآية التالية لتقول:

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾والتعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين في الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر وإصرارهم ولجاجتهم وليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق، بل من أجل روح التعصب الأعمى للأسلاف والدنيا والمصالح المادية الحاكمة على قلوبهم المريضة، وأهوائهم الشيطانية. وببيان جدي وتهديد جدي، تقول الآية التالية:

﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ فالله تعالى أعلم بدافع ونية وهدف ذلك التكذيب، ومهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلا بما كسبت أيديهم. (يوعون) من الوعاء وهو الظرف، كما هو مستقى من قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة : إنَّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها.

﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ عادة ما تستعمل البشارة للأخبار السارة، وجاءت هنا لتنم عن نوع من الطعن والتوبيخ. والحال إنَّ البشارة الحقة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم.

وما للكاذبين إلا الغرق في بحر من الحسرة والندم ، وما هم إلا في عذاب جهنم يخلدون.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾ (ممنون) من المَن وهو القطع والنقصان، ومنه (المنون) بمعنى الموت. أما الاستثناء الذي ورد في الآية ففيه بحث: هل أنه متصل أو منقطع، قال بعض المفسرين: إنة منقطع، أي إنَّ القرآن الكريم انتقل بالآية من الحديث حول الكفار الذي عرض في الآيات السابقة، إلى الحديث عن المؤمنين وما ينتظرهم من أجر وثواب. والأقرب لسياق الآيات أنْ يكون الاستثناء متصلاً ، وفي هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة وتشجيعهم على ذلك، لأن الآية تقول: إنَّ العذاب الأليم المذكور في الآية السابقة سوف لا يصيب من يؤمن منهم ويعمل صالحاً، وعلاوة على ذلك سيكون له أجر غير ممنون.

(سورة البروج)

سورة البروج (مكية) وعدد آياتها (اثنتان وعشرون) آية

مباحث السورة / كان المؤمنون في بداية الدعوة المحمدية – خصوصاً في مكة – يعانون من شدة التضييق وأقسى ألوان التعذيب الجسدي والنفسي، الذي انهال به عدوهم من الكفار على أنْ يتركوا إيمانهم بترك عقيدة الحق والارتداد عن الدين القويم! ويظهر إنها نزلت لتقوية معنويات المؤمنين لمواجهة تلك الظروف الصعبة، ولترغيبهم على الصمود أمام الصعاب والثبات على الإيمان وترسيخه في القلوب.

وتناولت السورة قصة "أصحاب الأخدود" الذين حفروا خندقاً وسجَّروه بالنيران، وهددوا المؤمنين بإلقائهم في تلك النار إنْ لم يعودوا إلى كفرهم ! وأحرقوا مجموعة منهم بالنار وهم أحياء.

وتعد السورة في بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لأولئك الذين يؤذون المؤمنين ويعذبونهم على إيمانهم، وتذمهم ذماً شديداً، في حين تبشِّر المؤمنين الصابرين بالجنة والفوز بنعيمها.

وفي جانب آخر من السورة تعرض لنا مقتطفات من قصتي فرعون وثمود وقوميهما الجناة الطغاة، وما آلوا إليه من ذلٍّ وهلاك، كل ذلك تذكيراً لكفار مكة الذين وهم أضعف قوة وأقل جنداً من أولئك.

وتختم السورة في آخر مقاطعها بالإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وإلى الأهمية البالغة لهذا الوحي الإلهي. وعموماً فالسورة من سور المقاومة والثبات والصبر أمام ضغوط الظالمين والمستكبرين، وآياتها تتضمن الوعد الإلهي بنصر المؤمنين ....

فضل تلاوتها: روي عن النبي ﷺ: مَنْ قرأ هذه السورة أعطاهُ اللهُ من الأجر بعدد كل من اجتمع في جمعةٍ، وكل من اجتمع يوم عرفة عشر حسنات، وقراءتها تنجي من المخاوف والشدائد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾

التفسير

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ البروج: جمع (بُرج) وهو القصر، وقيل: هو الشيء الظاهر، وتسمية القصور والأبنية العالية بالبروج لظهورها ووضوحها، وقيل للمحلات الخاصة من السور المحيط بالبلد والتي يجتمع فيها الحراس والجنود (البروج) لظهورها الخاص، ويقال للمرأة التي تظهر زينتها (تبرَّجت). والقسم بهذه البروج يشير إلى عظمة أمرها، التي لم تكن معلومة للعرب الجاهليين وقت نزول الآية بينما أصبحت معلومة تماماً في هذا الزمان والأقوى أن المراد منها هو النجوم المتلألئة ليلاً في القبة السماوية . وتقول الآية الثانية.

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ هو اليوم الذي وعد به جميع الأنبياء والمرسلين، والذي تحدثت عنه مئات الآيات القرآنية المباركة، اليوم الذي يلتقي فيه جميع الخلق من الأولين والآخرين للحساب، إنه يوم القيامة الحق. وفي القسم الثالث والرابع يقول:

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ وقد تعرض المفسرون للآية بمعانٍ متباينة، وصلت إلى ثلاثين معنى، نذكر منها :

١ – النبي ﷺ بدلالة الآية (٤٥) من سورة الأحزاب: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. والمشهود: هو يوم القيامة بدلالة الآية (١٠٣) من سورة هود: ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود.

٢ – ما سيشهد على أعمال الناس، كأعضاء بدنه، بدلالة الآية (٢٤) من سورة النور: يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. والمشهود: هم الناس وأعمالهم.

٣ – يوم الجمعة الذي يشهد اجتماعاً في صلاة مهمة. والمشهود: هو يوم عرفة الذي يشهده زوار بيت الله الحرام.

٤ – الملائكة. والمشهود: القرآن.

٥ – الحجر الأسود. والمشهود: الحجاج الذين يأتون ويلمسونه. وغيرها من المعاني

وثمة علاقة خاصة بين الأقسام الأربع وبين ما أقسم به، فالسماء وما فيها من بروج تحكي عن نظام وحساب دقيق، واليوم الموعود يوم حساب وكتاب دقيق أيضاً، وشاهد ومشهود أيضاً وسيلةٌ للحساب الدقيق على أعمال الإنسان، وكل ذلك لتذكير الظالمين الذين يعذبون المؤمنين، عسى أنْ يكفّوا عن فعلتهم السيئة، ولإعلامهم بأنَّ كل ما يفعله الإنسان يُسَجَّل عليه وبحساب دقيق جداً وسيواجه بها في اليوم الموعود بين عتبات ساحة العدل الإلهي، فسيشهد على أعمال الناس الملائكة الموكلون لهذا الأمر وأعضاء بدن ذات الإنسان وكذا الليل والنهار، وستكون الشهادة في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنين إلا من أتى الله بقلب سليم!

وبعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآية التالية.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ والمقصود هم الظالمين لا مَنْ أُلقي في النار، والأخدود ملئ بالنار الملتهبة.

﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ وكان الظالمون جالسون على حافة الأخدود يشاهدون المعذبين فيها، إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

الأخدود: على قول الراغب في مفرداته شق في الأرض مستطيل غائص، والجمع أخاديد، وأصل ذلك من خد الإنسان، وهو تقعر بسيط يكتنف الأنف من اليمين والشمال (وعند البكاء تسيل الدموع من خلاله) ثم أطلق مجازاً على الخنادق والحفر في الأرض، ثم صار معنىً حقيقياً لها.

أما مَنْ هم الذين عذبوا المؤمنين ؟ ومتى ؟ فللمفسرين وأرباب التواريخ آراء مختلفة، ولكن القدر المُسَلَّم به إنهم حفروا خندقاً عظيماً ووجروه بالنيران، وأوقفوا المؤمنين على حافة الخندق وطلبوا منهم واحداً واحداً بترك إيمانهم والرجوع إلى الكفر، ومن رفض أُلقي بين ألسنة النيران حياً ليذهب إلى ربه صابراً محتسباً ! الوقود: ما يجعل للاشتعال، وذات الوقود إشارة إلى كثرة ما فيها من الوقود، وشدة اشتعالها ....

نقموا: من النقم، وهو الإنكار باللسان أو بالعقوبة، ومنه الانتقام.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ بعد ذكر عظم جريمة أصحاب الأخدود التي ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم وهم أحياء، يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى ما ينتظر أولئك الجناة من عذاب إلهي شديد، ويشير أيضاً إلى ما أعد للمؤمنين من ثواب ونعيم جزاء صبرهم وثباتهم على إيمانهم بالله.

(فَتَنُوا) من مادة فتن، وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وقد استعملت الفتنة بمعنى الاختبار، وبمعنى العذاب والبلاء، وبمعنى الضلال والشرك أيضاً. وهي في الآية بمعنى العذاب، على غرار ما جاء في الآيتين ١٣ و ١٤.

(ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) تدل على أنَّ باب التوبة مفتوح حتى لأولئك الجناة المجرمين، وتدل أيضاً على مدى لطف الباري جل وعلا على الإنسان حتى وإنْ كان مذنباً، وفي الجملة تنبيه لأهل مكة ليسارعوا في ترك تعذيب المؤمنين ويتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً.

(عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) للإشارة إلى أنَّ لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها عذاب النار، وتعيين "عذاب الحريق" للإشارة أيضاً إلى أنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار، سوف يجازون بذات أساليبهم. وتعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف الباري جل شأنه:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) الذي يغفر للتائبين ويحب المؤمنين.

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) صاحب الحكومة المقتدرة على عالم الوجود وذو المجد والعظمة.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) "الغفور" و "الودود": كلاهما صيغة مبالغة، ويشيران إلى منتهى الغفران والود الإلهي.

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمنته الآيات السابقة من تهديد ووعيد، يبين أنَّ طريق العودة إلى الله سالكٌ، وأنَّ باب التوبة مفتوح لكل من ولغ في الذنوب، فالباري جلت عظمته في الوقت الذي هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضاً .

ذو العرش تشير إلى قدرته تعالى على المعاد، إحياء للموتى ومعاقبة الجبابرة والمجرمين والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات.

المجيد : من المجد، وهو السعة في الكرم والجلال.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

فيما تعرضت الآيات السابقة لقدرة الله المطلقة وحاكميته، ولتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين.تتعرض الآيات أعلاه لما يؤكد هذا التهديد فتخاطب النبي ﷺ قائلة.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ تلك الكتائب الجرارة التي وقفت بوجه أنبياء الله عليهم السلام بتصورها الساذج بأنها ستقف أمام قدرة الله عز وجل، وتشير إلى نموذجين واضحين، أحدهما من غابر الزمان، والآخر في زمن قريب من صدر دعوة الإسلام: فرعون وثمود.

فأحدهما ملك الشرق والغرب، والآخر وصلت مدنيته لأنْ يحفر الجبال لبناء البيوت والقصور الفخمة، ولهما من الجبروت ما لم يستطع أحد من الوقوف بوجههم، ولكن العزيز الجبار أهلكهم بالماء والهواء، مع ما لهاتين المادتين من لطافةٍ وليونةٍ وما يمثلانه باعتبارهما من الوسائل المهمة المستلزمة لأساسيات حياة الإنسان، فقد أغرقت أمواج وتيارات نهر النيل ذلك الطاغي (فرعون) وجنوده، فيما سلط الله الهواء القارص بأعاصير مدمرة اجتاحت قوم ثمود حتى قطعت دابرهم، فأهلكوا جميعهم. والقرآن الكريم يذكِّر مشركي مكة بذلك النموذجين ليعرفوا أنفسهم أمام الله تعالى، وتقول الآية التالية:

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ذو مكانة سامية ومقام عظيم. في لوح محفوظ، لا تصل إليه يد العبث والشيطنة، ولا يصيبه أي تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان. فلا تبتئس يا محمد بما ينسبونه إليك افتراءً، كأنْ يتهموك بالشعر، السحر، الكهانة والجنون، فأصولك ثابتة، وطريقك نيِّر، والقادر المتعال معك ....

(سورة الطارق)

سورة الطارق (مكية) وعدد آياتها (سبع عشرة) آية.

مباحث السورة /

١- تبتدأ السورة بجملة أقسام تبعث على التأمل والتفكير.

٢- تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

٣- محور المعاد والقيامة.

٤- محور القرآن الكريم وأهميته القيمة.

وتنتقل السورة. وتعرض لنا السورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة ، ثم تذكر جملة أقسام أخرى للتأكيد على أهمية القرآن ، ومن ثم نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهي .

فضل تلاوتها/ روي عن النبي ﷺ: مَنْ قرأها أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات. وعن الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ كانت قراءته في الفريضة بـ (والسماء والطارق) كان له عند الله يوم القيامة جاه ومنزلة، وكان من رفقاء النبيين وأصحابهم في الجنة. وبديهي أنَّ التأمل بمحتوى السورة والعمل على ضوئها هو الذي يضمن حصول ثوابها، وأما حركة اللسان الفارغة عن كل محتوى وتطبيق لا تغني عن الحق شيئاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

التفسير

تبتدأ السورة – كمثيلاتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم – بعدة أقسام بليغة تبعث على التأمل، وهي مقدمة لبيان أمر مهم.

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ الطارق: من الطرق–على زنة بَرْق– وهو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة، و(المطرقة) هي الآلة التي يطرق بها الحديد وغيره.ويقال للقادم ليلاً (الطارق) لأنَّ البيوت عادة ما تغلق أبوابها ليلاً، فكلُّ قادم يلزمه والحال هذه طرق الباب. ويفسر القرآن الكريم الطارق بقوله: النجم الثاقب.

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ النجم اللامع الذي مع علوه الشاهق وكأنه يريد أنْ يثقب سقف السماء، وكأن نوره المتشعشع يريد أنْ يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه. وروي أنَّ منجماً سأل الإمام الصادق عليه السلام بقوله: فما يعني بالثاقب؟ قال: لأنَّ مطلعه في السماء السابعة، وأنه ثقب بضوئه حتى أضاء السماء الدنيا، فمن ثم سماه الله النجم الثاقب. ويعتبر (زحل) من أبعد النجوم أو الكواكب في مجموعتنا الشمسية التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، ويقع في المدار السابع للشمس، ولذا عبر عنه الإمام عليه السلام بأنه في السماء السابعة. وما لهذا الكوكب من خصائص تؤهله لأنْ يقسم به. ولنرى لأي شيء كان هذا القسم.

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ يحفظ عليه أعماله، وتسجل كل أفعاله ليوم الحساب. كما قال تعالى في سورة الانفطار: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فلا تظنوا بأنكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمة عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كل ما يبدر منكم، وهذا ما له من الأثر البالغ في عملية إصلاح وتربية الإنسان، مع أنَّ الآية لم تحدد هوية الحافظ، ولكن الآيات الأخرى تبين بأنَّ "الحفظة" هم الملائكة وأنَّ "المحفوظ" هو أعمال الإنسان من الطاعات والمعاصي. وقيل: يراد بها حفظ الإنسان من الحوادث والمهالك، ولولا ذلك لما خرج الإنسان من الدنيا بالموت الطبيعي ، والأطفال بالخصوص، أو المراد هو: حفظ الإنسان من وساوس الشيطان، ولولا هذا الحفظ لما سلم أحد من وساوس شياطين الجن والأنس. وبلحاظ ما تتطرق إليه الآيات

التالية (حول المعاد والحساب الإلهي)، يكون التفسير الأول أقرب من غيره وأنسب، ولو أنَّ الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة غير بعيد عن مراد الآية.

والعلاقة ما بين المقسوم به وما أقسم له وثيقةٌ، حيث أنَّ السماء العالية والنجوم التي تتحرك في مسارات منظمة، دليل على وجود النظم والحساب الدقيق في عالم الوجود، فكيف يمكن أنْ نتصور بأنَّ أعمال الإنسان دون باقي الأشياء لا تخضع لهذه السُّنة، لتبقى سائبة بلا ضبط وتسجيل وليس عليها من حافظ ؟

ثم يستدل القرآن الكريم على المعاد في مقابل من يقول باستحالة المعاد.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ أخذ القرآن الكريم بأيدي الجميع وأرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهماً عما خلق منه الإنسان. وبدون أنْ ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: خلق من ماء دافق، وهو ماء الرجل الذي تسبح فيه الحيامن، ويخرج بدفق. ويستمر في تقريب المراد، يخرج من بين الصلب والترائب. (الصلب) الظهر، و(الترائب): جمع تريبة، وهي –على ما هو مشهور بين علماء اللغة– عظام الصدر العليا وضلوعه. وكما يقول ابن منظور في لسان العرب: قال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر. وذكرت معان أخرى للترائب منها ... ونصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم.

﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ فالإنسان تراباً قبل أنْ يكون نطفة، ثم مر بمراحل عديدة مدهشة حتى أصبح إنساناً كاملاً، وليس من الصعوبة بحال على الخالق أنْ يعيد حياة الإنسان بعد أنْ نخرت عظامه وصار تراباً، فالذي خلقه من التراب أول مرة قادر على إعادته مرة أخرى، وقد ورد هذا المعنى في سورة الحج حيث قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾، وتصف لنا الآية التالية ذلك اليوم الذي سيرجع فيه الإنسان.

﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ تبلى من (البلوى) بمعنى الاختبار والامتحان، وهو هنا الظهور والبروز، لأنَّ الامتحان يكشف عن حقيقة الأشياء ويظهرها. و(السرائر): جمع سريرة، وهي صفات ونوايا الإنسان الداخلية. فأسرار الإنسان الدفينة ستظهر في ذلك اليوم. يوم البروز ويوم الظهور، فسيظهر على الطبيعة كل من: الإيمان، الكفر، النفاق، نية الخير، نية الشر، الإخلاص، الرياء .... وسيكون ذلك الظهور مدعاة فخر ومزيد نعمة للمؤمنين، ومدعاة ذلة ومهانة وحسرة للمجرمين، وكما قال تعالى في سورة عبس: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ نعم، فكما إنَّ الطارق والنجوم الأخرى تظهر من خفائها ليلاً على صفحة السماء، فكذا حال الإنسان في عرصة يوم القيامة، فالحفظة والمراقبين الإلهيين المكلفين لتسجيل أعمال الإنسان سيظهرون كل شيء، كظهور ضوء النجم في الليل الداج. روي عن معاذ بن جبل أنه قال، سألت رسول الله ﷺ: وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض، لأنَّ الأعمال كلها سرائر خفية، فإنْ شاء الرجل قال صليت ولم يصل، وإنْ شاء قال توضيت ولم يتوضأ، فذلك قوله تعالى يوم تبلى السرائر. ولكن أشد صعاب ذلك اليوم على الإنسان.

﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ فلا يملك تلك القوة التي تخفي أعماله ونياته، وليس له ذلك الظهير الذي يعينه عن الخلاص من عذاب الله سبحانه وتعالى. وقد ورد هذا المعنى في آيات قرآنية أخرى، وليس من وسيلة للفرار من قبضة العدل حينها، إلا وسيلة واحدة للنجاة وهي (الإيمان والعمل الصالح) فقط.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

بعد أنْ تضمنت الآيات السابقة استدلالاً على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بداية خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرة أخرى، لتشير إلى بعض الأدلة الأخرى عليه فتقول.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴾ الرجع: من الرجوع، بمعنى العود، ويطلق على الأمطار اسم (الرجع) لأنها تبدأ من مياه الأرض والبحار، ثم تعود إليها تارة أخرى عن طريق الغيوم، أو لأنَّ هطول المطر يكون في فواصل زمنية مختلفة. ويسمى الغدير رجعاً، إما للمطر الذي فيه، وإما لتراجع أمواجه وتردده في مكانه.

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴾ الصدع: هو الشق في الأجسام الصلبة. وبملاحظة معنى الرجع في الآية السابقة، نصل إلى أنَّ مراد الآية بالصدع هو شق الأرض اليابسة بالأمطار، وخروج النباتات منها. فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضي الميتة بالأمطار، وهذا ما تكرر ذكره في القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما في قوله تعالى في سورة (ق) :﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ وهنا تتجسد بلاغة الأسلوب القرآني من خلال ربطه الدقيق فيما بين ما يقسم به وما يقسم له. وبعبارة أخرى فالسورة قد استندت إلى المقارنة فيما بين خلق الإنسان من نطفة وبين إحياء الأرض الميتة بالأمطار في استدلالها.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴾ هو القول أو الحديث الذي يفرق بين الحق والباطل، وقيل: هو في الآية يشير إلى المعاد، بقرينة الآيات السابقة، وتسلي الآيات التالية قلب النبي ﷺ والمؤمنين من جهة، وتتوعد أعداء الإسلام من جهة أخرى.

﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴾ فالكفار يخططون من جهة، وأنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهة أخرى "وأكيد كيداً".

﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ حتى يروا عاقبتهم ! نعم ، إنهم دوماً يكيدون في حربك والحرب ضد دينك. فتارة بالاستهزاء وأخرى بالحصار الاقتصادي، ومرة بتعذيب المؤمنين، وأخرى يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه كي تنتصروا، والخلاصة فشغلهم الشاغل هو التخطيط المستمر لمواجهتك، لتفريق مَنْ آمن بك، والضغط على أصحابك، أو قتلك لإطفاء نور الله بذلك ! ولا يعلمون بأنَّ الله متم نوره ولو كرهوا.

والكيد ضربٌ من الاحتيال والتغلب على المشكل بتهيئة المقدمات، وفيه جنبة خفية، وقد يكون مذموماً وممدوحاً، كقوله تعالى: (كذلك كدنا ليوسف)، وإنْ كان يستعمل في المذموم أكثر. ومراد الآية هو كيد الأعداء كما هو واضح. ولكن ما المقصود بالكيد الإلهي ؟ قيل: إنه الإمهال الذي ينتهي بالأخذ الشديد والعذاب الأليم. وقيل أيضاً: إنه نفس العذاب الذي ينتظرهم. والأنسب أنْ يقال: إنه تلك الألطاف الإلهية التي غمرت النبي ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين، وما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم وخيبة مساعيهم. ويحمل التاريخ الإسلامي بين طياته شواهد كثيرة على هذا المعنى وتأمر الآيات النبي ﷺ بأنْ يمهلهم ولا يتعجل على عذابهم، وأنْ يتم الحجة عليهم ، فعسى أنْ يعود قسم منهم إلى رشده ويسلم. والملاحظ في الآية، إنها شرعت بـ (فمهل الكافرين) فيما أكدت ذلك بقولها (أمهلهم) و (رويداً) من الرَّوْد على وزن عود، وهو التردد في طلب الشيء برفق، ولها هنا معنى مصدرياً مع تصغير، أي أمهلهم مهلة صغيرة.

وبهذا يوصي الله عز وجل نبيه الكريم ﷺ في هذه الجملة المختصرة ثلاث مرات بإمهال ومداراة الكافرين وهذا في الحقيقة درس للمسلمين في الكيفية التي ينبغي العمل بها عند مواجهة أعدائهم، وخصوصاً إذا ما كانوا أعداء أقوياء وشرسين، فلابد من الصبر والتأني والدقة في حساب خطوات المواجهة، وينبغي عدم التسرع في العمل، فلا بد من تفهيم الإسلام بكل لطف وسعة صدر مع الدليل القاطع، وبهذا تتم الحجة على الآخرين. أما السبب في طلب الإمهال القليل، ففيه احتمالين:

الأول: كان الإمهال لحين حدوث معركة بدر ، حيث أحرز المسلمون فيها نصراً مبيناً على الكفار بعد مدة قليلة من نزول الآية، ومعركة بدر أول ضربة موجعة تلقاها المشركون من المسلمين، ثم تلتها ضربات في معركة الأحزاب ومعركة خيبر وغيرها، مما أفشل مخططات الكفرة لدحر الإسلام ....

الثاني: لأنَّ عذاب القيامة سيقع حتماً، وكُلُّ حتمي الوقوع قريبٌ.

وعلى أية حال فقد بدأت السورة بالقسم بالسماء والنجوم، وانتهت بتهديد الكافرين والمتآمرين على الحق، وفيما بين البدء والانتهاء، تعرضت إلى بعض أدلة المعاد بأسلوب رائع ومؤثر، وإلى بيان شيق للرقابة الإلهية على أعمال الإنسان، بالإضافة إلى ما قدمته من تسلية لترطيب خواطر المؤمنين، بلسان في غاية اللطف البليغ.

(سورة الأعلى)

سورة الأعلى (مكية) وعدد آياتها (تسع عشرة) آية

مباحث السورة / تحتوي السورة على قسمين من المواضيع:

القسم الأول: يحوي خطاباً إلى النبي ﷺ يأمره الباري سبحانه فيه بالتسبيح وأداء الرسالة، ثم ذكر سبعاً من صفات الله عز وجل لها صلة ربطٍ بالأمر الرباني إلى النبي الأكرم ﷺ.

القسم الثاني: يتحدث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التي تؤدي إلى كُلٍّ من السعادة والشقاء الحق. وفي آخر السورة يأتي التأكيد على أنَّ ما جاء في هذه السورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط ، بل تناولته كتب وصحف الأولين أيضاً، كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضل تلاوتها / روي عن النبي الأكرم ﷺ : مَنْ قرأها أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزل الله على إبراهيم وموسى ومحمد. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ قرأ سبح اسم ربك الأعلى في فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة ادخل الجنة من أي أبواب الجنة شئت إنْ شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ تبدأ السورة بخلاصة دعوة الأنبياء، حيث التسبيح والتقديس أبداً لله الواحد الأحد، فتخاطب النبي الأكرم ﷺ بالقول: سبح اسم ربك الأعلى. فمراد الآية أنْ لا يوضع اسمه جل شأنه في مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كل عيبٍ ونقصٍ، ومن كل صفات المخلوق وعوارض الجسم، أي أنْ لا يحد. فينبغي على المؤمنين ألا يتعاملوا مع اسمه الجليل كتعامل عبدة الأصنام، بأنْ يضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، ولا يفعلوا كما يفعل المجسمة، ممن وقعوا في خطأ كبيرٍ وفاحشٍ حينما نسبوا إلى الباري جل جلاله الصفات الجسمية.

الأعلى: أي الأعلى من كل أحد، من تصورٍ، تخيلٍ، قياسٍ، ظنٍ، وَهْمٍ، ومن أي شرك بشقيه الجلي والخفي.

ربك: إشارة إلى أنه غير ذلك الرب الذي يعتقد به عبدة الأصنام. وبعد ذكر هاتين الصفتين (الرب والأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبين ربوبية الله العليا:

١- (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) سوى من التسوية، وهي الترتيب والتنظيم، ويضم هذا المفهوم بين جناحيه كل أنظمة الوجود، مثل النظام السماوي بنجومه وكواكبه، والأنظمة الحاكمة على المخلوقات في الأرض، ولا سيما الإنسان من حيث الروح والبدن. أما ما قيل من كونها إشارة إلى نظام اليد أو العين أو اعتدال القامة، فهذا في واقعه لا يتعدى أنْ يكون إلا بيان لمصداق محدود من مصاديق هذا المفهوم الواسع. وعلى أية حال فنظام عالم الخليقة بدءً من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التي أشارت إليها الآية من سورة القيامة ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ وانتهاء بأكبر منظومة سماوية، كلها شواهد ناطقة على ربوبية الله سبحانه وتعالى، وأدلة إثبات قاطعة على وجوده عز وجل. وبعد ذكر موضوعي الخلق والتنظيم، تنتقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال.

٢- (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) والمراد بـ (قدر) هو وضع البرامج، وتقدير مقادير الأمور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التي ما خلقت الموجودات إلا لأجلها. والمراد بـ (هدى) هي الهداية الكونية، على شكل غرائز وسنن طبيعية حاكمة على كل موجود

(ولا فرق في الغرائز والدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية). فمثلاً إنَّ الله خلق ثدي المرأة وجعل في اللبن لتغذية الطفل، وفي ذات الوقت جعل عاطفة الأمومة شديدة عند المرأة، ومن الطرف الآخر جعل في الطفل ميلاً غريزياً نحو ثدي أمه، فكل هذه الاستعدادات والدوافع وشدة العلاقة الموجودة بين الأم والابن والثدي مقدرٌ بشكلٍ دقيقٍ، كي تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعية وصحيحة. وهذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح في جميع الكائنات. وبنظرة ممعنة لبناء كل موجود، وما يطويه في فترة عمره من خطوات في مشوار الحياة، تظهر لنا بوضوح تلك الحقيقة.

٣- (وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ)تشير الآية التالية إلى النباتات، وما يخص غذاء الحيوانات منها، واستعمال كلمة أخرج فيه وصفٌ جميل لعملية تكوُّن النباتات، حيث إنه يتضمن وجودها داخل الأرض فأخرجها الباري منها. ومما لا شك فيه إنَّ التغذية الحيوانية هي مقدمة لتغذية الإنسان، وبالنتيجة فإنَّ فائدة عملية تغذية الحيوان تعود إلى الإنسان.

٤- (فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً) الغثاء هو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجاري، ويطلق أيضاً على ما يطفح على سطح القدر عند الطبخ، ويستعمل كناية عن كل ضائع ومفقود، وجاء في الآية بمعنى النبات اليابس المتراكم.

٥- (أَحۡوَىٰ) وأحوى من الحُوَّة على زنة قوة، وهي شدة الخضرة، أو شدة السواد، وكلاهما من أصل واحد، لأنَّ الخضرة لو اشتدت قربت من السواد. وجاء في الآية بمعنى: تجمع النبات اليابس وتراكمه حتى يتحول لونه تدريجياً إلى السواد. ويمكن أنْ يكون اختيار هذا التعبير في مقام بيان النعم الإلهية لأحد أسباب ثلاث:

الأول: إنَّ حال هذه النباتات يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، لتكون دوماً درساً وعبرة للإنسان، فهي بعد أنْ تنمو وتخضر في الربيع، شيئاً فشيئاً ستيبس وتموت بعد مرور الأيام عليها، حتى يتحول جمالها الزاهي في فصل الربيع إلى سواد قاتم، ولسان حالها يقول بعدم دوام الدنيا وانقضائها السريع.

الثاني: إنَّ النباتات اليابسة عندما تتراكم فستتحول بمرور الوقت إلى سماد طبيعي، ليعطي الأرض القدرة اللازمة لإخراج نباتات جديدة أخرى.

الثالث: إنَّ الآية تشير إلى تكون الفحم الحجري من النباتات والأشجار. فكما هو معلوم إنَّ الفحم الحجري الذي يعتبر من المصادر المهمة للطاقة، قد تكون من النباتات والأشجار التي يبست منذ ملايين السنين ودفنت في الأرض حتى تحجَّرت واسودَّ لونها بمرور الزمان. ويعتقد بعض العلماء بأنَّ مناجم الفحم الحجري قد تكونت من جراء النباتات اليابسة المدفونة في داخل الأرض منذ (٢٥٠) مليون سنة تقريباً ! ولو أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الاستهلاك الفعلي للفحم الحجري في العالم، لوجدنا أنها تؤمن احتياج الناس لأكثر من (٤٠٠٠) سنة.

وتفسير الآية بالمعنى الأخير دون غيره بعيد حسب الظاهر، ولا يستبعد أنْ تكون الآية قد أرادت كل ما جاء في المعاني الثلاث أعلاه. وعلى أية حال ، فللغثاء الأحوى منافع كثيرة، فهو غذاء جيد للحيوانات في الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعي للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود. فما ذكرته الآيات من صفات: الربوبية، الأعلى، الخلق، التسوية، التقدي، الهداية، وإخراج المرعى، توصلنا إلى الربوبية الحقة لله جل وعلا، وبقليل من التأمل يتمكن أي إنسان من إدراك هذا المعنى، ليصل نور الإيمان إلى قلبه فيشكر المنعم على ما أعطى.

التقدير والهداية العامة للموجودات

تناولت الآيات الآنفة الذكر مظهراً من مظاهر ربوبية الله عز وجل، حيث إنها تعتبر من المسائل الحيوية التي كلما تقدم الزمان وتوسعت مدارك علوم الإنسان ازداد في الوصول إلى حقائق جديدة تضاف إلى معلوماته السابقة. فالاكتشافات العلمية الجديدة في كل يوم تحيطنا علماً لرؤية وجوه جديدة رائعة لتقدير الله مخلوقاته وهدايته لها. ويزين المفسرون تفاسيرهم ببعض النماذج من

تلك الأسرار الرائعة في خصوص الهداية التكوينية لحركة الحيوانات، واعتمد البعض على ما ذكره العالم المعروف (كريسي موريسن) في كتابه (أسرار خلق الإنسان) وإليكم مختصراً مما جاء فيه:

١ – تقطع الطيور المهاجرة –في بعض الأحيان– آلآف الكيلومترات في السنة، عابرة الصحارى والغابات والبحار، وعند عودتها تعرف طريق موطنها الأصلي بكل دقة، ولا تضل عنه أبداً. ومن النحل ما يبتعد عن خليته لمسافات بعيدة جداً، ولكنه يعود إلى خليته بكل سهولة ويسر، في حين نرى الإنسان في حال عودته إلى وطنه يحتاج إلى عناوين وعلامات دقيقة حتى لا يضل الطريق !

٢ – الحشرات تتمتع بعيون مجهرية ذات دقة فائقة حيَّرت عقول العلماء من حيث بنائها وقدرتها على النظر، في حين أنَّ عيون الصقور تلسكوبية تعينها على النظر لمسافات بعيدة جداً.

٣ – حينما يسير الإنسان بين عتمة الليل الداكنة فلا بد له من إضاءة تعينه في مسيره، إلا أنَّ كثيراً من الطيور تصل أهدافها في حلكة الليل الدامس، مستعينة بما لعيونها من قدرة على التحسس بالأشعة ما دون الحمراء ! ولبعضها مراكز حساسة تشبه في عملها الرادارات المتطورة !

٤ – للكلاب حاسة شم مميزة، تستطيع من خلالها معرفة أي كائن حين يقع في طريقها، وهذا ما لا يتوفر عند الإنسان، بالرغم من التقدم التقني الذي وصل إليه.

٥ – حاسة السمع عند جميع الحيوانات أقوى وأدق من سمع الإنسان بدرجات، على الرغم من استعمال الإنسان للأجهزة العلمية المتطورة في سمعه، بحيث يستطيع أنْ يستمع إلى حركة أجنحة ذبابة على بعد عدة كيلومترات منه ! ....

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ فيما كان الحديث في الآيات السابقة عن ربوبية الله وتوحيده جل شأنه، والهداية العامة للموجودات، وكذا عن تسبيح الرب الأعلى، تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن القرآن والنبوة، وهداية الإنسان، وكذا البيان القرآني للتسبيح. فتقول الآية الأولى مخاطبة النبي ﷺ سنقرئك فلا تنسى. فلا تتعجل نزول القرآن، ولا تخف من نسيان آياته، فالذي أرسلك بهذه الآيات لهداية البشرية كفيل بحفظها ، ويخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض ولو حرف واحد منها أبداً. وتدخل الآية في سياق الآية (١١٤) من سورة طه: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ، وكذا الآية (١٦) من سورة القيامة: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ تدخل في سياقهما.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ ولإثبات قدرته سبحانه وتعالى، وأنَّ كل خير منه، تقول الآية.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ ولا يعني هذا الاستثناء بأنَّ النسيان قد أخذ من ﷺ وطراً، وإنما هو لبيان أنَّ قدرة حفظ الآيات هي موهبة منه سبحانه وتعالى، ومشيئته هي الغالبة أبداً، وإلا لتزعزعت الثقة في قول النبي ﷺ. ومما يشهد على ذلك أيضاً أنَّ حفظ بعض الأمور ونسيان أخرى تعتبر حالة طبيعية بين بني آدم، ولكن الله تعالى ميَّز حبيبه المصطفى بأنْ جعل فيه ملكة حفظ جميع آيات القرآن، والأحكام والمعارف الإسلامية، حينما خاطبه بـ (سنقرئك فلا تنسى) فمن معاجز النبي الأكرم ﷺ قابليته على حفظ الآيات والسور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السلام دون أنْ ينسى منها شيئا أبداً.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾وتخاطب الآية التالية النبي الكريم ﷺ مسلية له، أي إخبار النبي ﷺ بصعوبة الطريق في كافة محطاته، من تلقي الوحي وحفظه حتى البلاغ والنشر والتعليم والعمل به، وتطمئنه بالرعاية والعناية الربانية، بتذليل صعابه من خلال تيسيرها لهﷺ، ويمكن كذلك أنْ تكون إشارة الآية إلى أنَّ طبيعة الرسالة الإسلامية والتكاليف التي تضمنتها، طبيعة سهلة وسمحة، خالية من الحرج والمشقة. وهذا المعنى يعطي شمولية أكثر لمفهوم الآية، بالرغم من أنَّ أكثر المفسرين قد حددوا الآية ببعدٍ واحدٍ من أبعاد مفهومها. وحقاً فلولا توفيق الله وتيسيره للنبي ﷺ لما أمكنه من التغلب على كل تلك المشاكل والصعاب التي واجهته في حياته الرسالية ....

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾فبعد أنْ بينت الآيات العناية الربانية للنبي الأكرم ﷺ تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية، قيل الإشارة هنا إلى أنَّ التذكير بحد ذاته نافع، وقليل أولئك من الذين لا ينتفعون به، والحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجة على المنكرين، وهذا بنفسه نفع عظيم. ولكن ثمة من يعتقد أنَّ في الآية محذوف، والتقدير (فذكر إنْ نفعت الذكرى أو لم تنفع)، وهذا يشبه ما جاء في الآية (١٨) من سورة النحل: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾فذكر الحر وأضمر البرد، لوضوحه بقرينة المقابلة. وهناك من يؤكد على أنَّ الجملة الشرطية في الآية لها مفهوم، والمراد أنه يجب عليك التذكير إذا كان نافعاً، فإنْ لم يكن نافعاً فلا يجب. وقيل: (إنَّ) في الآية ليست شرطية، وجاءت بمعنى (قد) للتأكيد والتحقيق، فيكون مراد الآية: (ذكر فإنَّ الذكرى مفيدة ونافعة). ويبدو لنا أنَّ التفسير الأول مرجح على بقية التفاسير الثلاث، بقرينة سلوك النبي ﷺ في نشره الإسلام وتبليغه الحق، فإنه كان يعظ وينذر الجميع. وتقسم الآيات التالية الناس إلى قسمين، من خلال مواقفهم تجاه الوعظ والإنذار، الذي مارسه النبيﷺ.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾نعم فإذا ما فقد الإنسان روح "الخشية"، و"الخوف" مما ينبغي أنْ يخاف منه، وإذا لم تكن فيه روحية طلب الحق فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهية، ولا حتى تذكيرات الأنبياء ستنفعه، على هذا الأساس كان القرآن هدى للمتقين .

وتذكر الآية التالية القسم الثاني. ﴿١١﴾

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ قيل: يراد بالأشقى، المعاندين للحق بعداء، فالناس على ثلاثة أقسام: إما عارفٌ وعالمٌ، وإما متوقفٌ شاكٌّ، أو معاندٌ. وأفراد الطائفة الأولى والثانية ينتفعون من التذكير طبيعياً، فيما لا ينفع القسم الثالث منهم، وليس للتذكير من أثر عليه سوى إتمام الحجة. ويفهم من سياق الآية أنَّ النبي ﷺ كان ينذر ويعظ حتى المعاندين، لكنهم كانوا يتجنبونه ويهربون منه. ويعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثاني

﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أي لا يموت ليخلص من العذاب، ولا يعيش حياة خالية من العذاب، فهو أبداً يتقلقل بالعذاب بين الموت والحياة ! ولكن ما هي (النار الكبرى)؟ قيل : إنها أسفل طبقة في جهنم، وأسفل السافلين، ولِمَ لا يكون ذلك وهم أشقى الناس وأشدهم عناداً للحق. وقيل أيضاً: إنَّ وصف تلك النار بـ "الكبرى" مقابل (النار الصغرى) في الحياة الدنيا. وفي وصف نسبة بلاء الدنيا إلى بلاء الآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: (على أنَّ ذلك بلاءٌ مكروهٌ قليلٌ مكثُهُ ، يسيرٌ بقاؤهُ، قصيرٌ مدتُهُ)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

أسس دعوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام

بعد أنْ عرضت الآيات السابقة صورة العذاب ومعاناة أهله، يأتي الحديث عن الذين نفعتهم الذكرى، ممن استمعوا إلى دعوة الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصي والآثام، وخشعت قلوبهم لذكر الله، ويقول القرآن.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب والفوز بالنعيم الخالد ، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسة: "التزكية" ، "ذكر اسم الله" و "الصلاة".

وقيل في معنى التزكية عدة أقوال:

الأول: تطهيرُ الروح وتزكيتها من الشرك، بقرينة الآيات السابقة، وباعتبار أنَّ التطهير من الذنوب وعبادة الله، يعتمد بالأساس على التطهير من الشرك، فهو مقدمته اللازمة.

الثاني: تطهيرُ القلب من الرذائل الأخلاقية، والقيام بالأعمال الصالحة، بدلالة آيات الفلاح الواردة في كتاب الله الكريم، كالآيات الأولى من سورة المؤمن التي ذكرت أعمالاً صالحة بعد أنْ قالت: (قد أفلح المؤمنون)، وكذا الآية (٩) من سورة الشمس التي قالت، بعد ذكر مسألة التقوى والفجور: قد أفلح من زكاها.

الثالث: زكاة الفطرة التي تؤدى يوم عيد الفطر، لأنها تدفع أولاً ثم يصلى صلاة العيد، وهذا المعنى قد ورد في جملة روايات.

الرابع: بمعنى إعطاء الصدقة. المهم أنَّ التزكية ذات مداليل واسعة تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير الأخلاق من الرذائل، تطهير الأعمال من المحرمات والرياء، تطهير الأموال والأبدان بإعطاء الزكاة والصدقات في سبيل الله، خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها. وبهذا تجمع كل الأقوال المذكورة لتدخل في مفهوم التزكية الواسع المداليل. والجدير بالذكر أنَّ الآيات محل البحث تتحدث عن التزكية أولا ، ثم ذكر الله ثم الصلاة.

وقد أشار بعض المفسرين إلى هذه المراتب، بعد أنْ بيَّنها بالمراحل العملية الثلاثة للمكلف:

الأولى: إزالة العقائد الفاسدة من القلب.

الثانية: حضور معرفة الله وصفاته وأسمائه في القلب.

الثالثة: الاشتغال بخدمته وفي سبيله جل وعلا.

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ويشير البيان القرآني إلى العامل الأساس في عملية الانحراف عن جادة الفلاح في ذلك. ونقل الحديث النبوي الشريف هذا المعنى بقوله: حب الدنيا رأس كل خطيئة. فالإنسان العاقل لا يجيز لنفسه أنْ يبيع الدار الباقية بأمتعة فانية، ولا أنْ يستبدل اللذائذ المحدودة والمحفوفة بألوان الآلام بالنعم الخالدة والنقية الخالصة. وتختم السورة.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ فالمشار إليه بـ (هذا)؟ فبعض قال: إنه إشارة إلى الأمر بالتزكية وذكر اسم الله والصلاة وعدم إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وذلك من أهم تعاليم جميع الأنبياء عليهم السلام كما وورد هذا الأمر في جميع الكتب السماوية. واعتبره آخرون: إنه إشارة لجميع ما جاء في السورة، حيث أنها ابتدأت بالتوحيد مروراً بالنبوة حتى ختمت بالأعمال. وعلى أية حال فهذا التعبير يبين أهمية محتوى السورة، أو خصوص الآيات الأخيرة منها، حيث اعتبرها من الأصول الأساسية للأديان، ومما حمله جميع الأنبياء إلى البشرية كافة ....

الآخرة والاستعداد لها

لو تدبرنا في القرآن الكريم لرأينا صورة جلية في الحث على الآخرة والاستعداد لها وكذا الروايات المباركة التي أكدت على ذلك، وهي كثيرة نذكر منها:

* روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره، ولم يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، ومَنْ أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل الله الفقر بين عينيه وشتَّت عليه أمره ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم لم.([1])

* روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: من عمَّر الدنيا خرَّب مآله، من عمَّر آخرته بلغ آماله. ([2])

* روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام: الدنيا سِنةٌ والآخرة يقظة، ونحن بينهما أضغاث أحلام. ([3])

* روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: مَنْ عمَّرَ دار إقامته فهو العاقل. ([4])

* وروي عنه عليه السلام: مَنْ سعى لدار إقامته خَلُص عمله وكثر وجله. ([5])

من هذه الروايات المباركة وغيرها تتبين لنا بعض حقيقة الآخرة وما ينبغي علينا من الإيمان به والاستعداد له وأثر ذلك على سلوك الإنسان في الدنيا من العمل الصالح والابتعاد عن لذات الدنيا الفانية وما فيها من الشهوات والمعاصي، إذن القرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة في أغلب آياته ومنها هذه الآية المباركة.

---

(١) ميزان الحكمة عن البحار.

(٢) نفس المصدر عن غرر الحكم.

(٣) نفس المصدر عن تنبيه الخواطر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

(سورة الغاشية)

سورة الغاشية (مكية) وعدد آياتها (ست وعشرون) آية.

التفسير / تدور محتويات السورة على ثلاثة محاور:

الأول: بحث المعاد، وبيان حال المجرمين بما فيه من شقاء وتعاسة، ووصف حال المؤمنين وهم يرفلون بنعيم لا ينضب.

الثاني: بحث التوحيد، ويتناول موضوع خلق السماء والجبال والأرض، ونظر الإنسان إليها.

الثالث: بحث النبوة، مع عرض لبعض وظائف النبي ﷺ، فالسورة تسير على منهج السور المكية في تقوية أسس الإيمان والاعتقاد.

فضل تلاوتها / عن الإمام الصادق عليه السلام: مَنْ أدمن قراءة هل أتاك حديث الغاشية في فرائضه أو نوافله غشاه الله برحمته في الدنيا والآخرة، أو أعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار. وبديهي أنَّ الثواب المذكور لا يحصل إلا لمن تلاها بتأمل وعمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ تبتدأ السورة بذكر اسم جديد ليوم القيامة (الغاشية) من الغشاوة وهي التغطية، وسميت القيامة بذلك لأنَّ حوادثها الرهيبة ستغطي فجأة كل شيء. وقيل: بما أنَّ الأولين والآخرين سيجمعون في ذلك اليوم، فالقيامة تغشاهم جميعاً. وقيل أيضاً: يراد بها نار جهنم، لأنها ستغطي وجوه الكافرين والمجرمين، ويبدو لنا التفسير الأول أنسب من غيره.

وظاهر الآية إنها خطاب للنبي ﷺ، وما حوته من صيغة الاستفهام فلبيان عظمة وأهمية يوم القيامة. ويبدو بعيدا ما احتمله البعض من كون خطاب الآية موجه إلى كل إنسان. وتصف الآيات التالية حال المجرمين في يوم القيامة، فتقول أولاً:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ لا شك أنَّ الوضع النفسي والروحي، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه وقد علتها علائم الخسران والخشوع لما أصابها من ذل وخوف ووحشة وهم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم. وتصف حال تلك الوجوه ثانياً.

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ فكل ما سعوا وكدوا فيه في الحياة الدنيا سوف لا يجنون منه إلا التعب والنصب، وذلك لأنَّ أعمالهم غير مقبولة عند الله، وما جمعوه من أموال وثروات قد ذهبت لغيرهم، ولا يملكون من ذكر صالح يعقبهم في الدنيا ولا ولد صالح يدعو ويستغفر الله لهم، فما أصدق هذا القول بحقهم، وخاتمة مطاف تلك الوجوه التعبة الذليلة أنْ:

﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ تصلى من صَلَى -على زنة نفى- وهو دخول النار والبقاء فيها والاحتراق بها. ولن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل إنهم وبسبب حرارة النيران يصيبهم العطش الشديد وحينئذ:

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ آنية مؤنث آني من الأني–على زنة حلي– وهو التأخير، ويستعمل لما يقرب وقته، وجاء في الآية بمعنى الماء الحارق الذي بلغ أقصى درجة حرارته وجاء في الآية (٢٩) من سورة الكهف: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ وتحكي لنا الآية التالية عن طعام المجرمين.

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ وقد تعددت الآراء في معنى الضريع. فقال بعض: نبت ذو شوك لاصق بالأرض تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه ، وهو سم قاتل. وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: الضريع نبات أخضر منتن الريح، يرمي به البحر. وعن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها. وجاء في الحديث النبوي الشريف: الضريع شئ يكون في النار يشبه الشوك، أشد مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعاً. وقال بعض آخر: هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه. ولا تعارض بين هذه التفاسير، ويمكن قبولها كلها في تفسير الآية المذكورة. وتصف لنا الآية التالية ذلك الطعام:

﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ فهو ليس لسد جوع أو تقوية بدن، وإنما هو طعام يغص به، إيغالاً في العذاب، كما ورد هذا المعنى في الآية (١٣) من سورة المزمل: ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فالذين شرهوا في تناول ألذ المأكولات في دنياهم على حساب ظلم الناس والتجاوز على حقوقهم، ومنعوا لقمة العيش عن كثير من المحرومين، فليس في طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

صور من نعيم الجنة

بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النار، تنتقل عدسة السورة لتنقل لنا مشاهداً رائعة لنعيم أهل الجنة، ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهي والرحمة الإلهية، وما بين الوعيد والبشارة. فتقول الآية الأولى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة والخوف. ناعمة من النعمة، وتشير هنا إلى الوجوه الغارقة في نعمة الله، وجوه طرية، مسرورة ونورانية، كما أشارت لهذا الآية (٢٤) من سورة المطففين: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ وترى الوجوه.

﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ على عكس أهل جهنم، فوجوههم عاملة ناصبة ، أما أهل الجنة فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا في دنياهم، وحصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم في غاية الرضي والسرور، وما زرعوا سيتضاعف ناتجه بإذن الله ولطفه أضعافا مضاعفة، ويدخل البيان القرآني في التفصيل أكثر، فتذكر الآيات المبحوثة سبع نعم رائعة من نعم الجنة وهي:

أولاً / (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) عالية: قيل بإرادة المكان في طبقات الجنة العليا، وقيل أريد بها المقام الرفيع، ومع أنَّ التفسير الثاني أرجح، إلا أنه لا مانع من الجمع بينهما.

ثانياً / (لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً) فليس هناك ثمة جدال، كلام نفاق، عداوة، حقد، حسد، كذب، تهمة، افتراء، غيبة ولا أي إيذاء، بل ولا حتى الكلام الفارغ. فهل يوجد مكان أهدأ وأجمل من ذلك ؟ ! ولو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أنَّ الغالب منها ما كان ناشئا عن سماع هكذا أحاديث، والتي تؤدي إلى عدم الاستقرار النفسي، وإلى تهديم أركان الترابط الاجتماعي فينهار

النظام وتشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر واليابس معاً. وبعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنة من نعمة روحية، يبين بعض النعم المادية في الجنة.

ثالثاً / (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) ظاهر كلمة عين في الآية، إنها عين واحدة بدليل مجيئها نكرة، إلا أنه بالرجوع إلى بقية الآيات في القرآن الكريم، يتبين لنا إنها للجنس، فهي والحال هذه تشمل عيوناً مختلفة، ومن قرائن ذلك ما جاء في الآية (١٥) من سورة الذاريات: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وقيل: في كل قصر من قصور أهل الجنة، ثمة عين جارية وهو المراد في الآية، وينتقل الوصف إلى أسرة الجنة.

رابعاً / (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) سُرُرٌ "جمع سرير، وهو من السرور بمعنى المقاعد التي يجلس عليها في مجالس الأنس والسرور. وجعلت تلك الأسرة من الارتفاع بحيث يتمكن أهل الجنة من رؤية كل ما يحيط بها والتمتع بذلك. وصفت بالمرفوعة إشارة إلى رفعتها وعلو شأنها.

خامساً / (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) ومتى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم وقد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا. أكواب جمع كوب، وهو القدح أو الظرف الذي له عروة. وبالإضافة إلى ذكر الأكواب فقد ذكر القرآن الكريم تعابير أخرى لها، مثل أباريق جمع إبريق وهو ظرف معروف، وكأس بمعنى القدح المملوء بالشراب، كما جاء في الآيتين (١٧) و (١٨) من سورة الواقعة: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ ويستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنة.

سادساً / (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ) نمارق جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها، مصفوفة إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أنَّ لأهل الجنة جلسات أنس جماعية، التي لا يتخللها أي لغو وباطل، ويدور الحديث فيها حول الألطاف الإلهية ونعمه الخالدة، وعن الفوز الحقيقي الذي أبعدهم عن عذاب الآخرة، ثم تكون الإشارة إلى فرش الجنة الفاخرة.

سابعاً / (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) زرابي جمع زرب أو زربية وهي الفرش والبسط الفاخرة ذات المتكأ.

فهذه هي النعم السبع المبحوثة في هذه الآيات المباركة، نعم رائعة من نعم الجنة، وكل منها أكثر روعة من الأخرى. والخلاصة فمنزل الجنة لا مثيل له من كل الجهات.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنة ونعيمها، تأتي هذه الآيات لتوضح معالم الطريق الموصل إلى الجنة ونعيمها. فمفتاح المعرفة هو معرفة الله، ووصولاً لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية وبديع الخلقة، داعية الإنسان للتأمل عسى أنْ يصل إلى ما ينبغي له أنْ يصل إليه

الآية الأولى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ قد يسأل سائل لِمَ اختص ذكر (الإبل) قبل غيره؟

للمفسرين حديث طويل في ذلك، لكن الواضح إنَّ الآيات في أول نزولها كانت تخاطب أهل مكة قبل غيرهم، والإبل أهم شيء في حياة أهل مكة في ذلك الزمان، فهي معهم ليل نهار وتنجز لهم ضروب الأعمال وتدرُّ عليهم الفوائد الكثيرة. أضف إلى ذلك أنَّ لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرد بها عن بقية الحيوانات، ويعتبر بحق آية من آيات خلق الله الباهرة. فإنَّ ما يتمتع به هذا الحيوان من خصائص تدفع الإنسان لأنْ يلتفت إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى. ولا بد من التذكير ، بأنَّ النظر الوارد في الآية، يراد به النظر الذي يصحبه تأمل ودراسة. وينتقل بنا البيان القرآني في الإبل إلى السماء.

الآية الثانية: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾فلننظر إلى السماء التي حيرت العقول بعظمتها وعجائبها وما فيها من نجوم وما لها من بهاء وروعة، والسماء التي يتصاغر وجود الإنسان أمامها ليعد لا شيء بالنسبة لها، والسماء التي لها من دقة التنظيم والحساب الدقيق ما بهر فيها عقول العلماء المتخصصين، أفلا ينبغي للإنسان أنْ يتفكر في أمر مدبر هذا الخلق ، وما الأهداف المرجوة من خلقه ؟ ! أفلا يكون أمر خلق السماء مدعاة للتأمل والتفكير والخضوع والتسليم لربوبية الخالق الواحد الأحد؟ ! وينقلنا إلى الجبال.

الآية الثالثة: ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾وكذلك فالجبال التي تشمخ بتعمق جذورها في باطن الأرض، وتحيط بالأرض على شكل حلقات وسلاسل لتقلل من شدة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية في باطن الأرض، وكذا ما لها من دور في حفظ الأرض من عملية المد والجزر الناشئة من تأثيرات الشمس والقمر، فالجبال وبكل ما فيها ولها تعد آية من آيات القدرة الإلهية لمن رآها بعين بصيرة ولب شغول. ثم ينتقل إلى الأرض.

الآية الرابعة: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محملة الأتربة كي تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة ومهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة أخرى، ولو كانت كل الأرض عبارة عن جبال ووديان، فما أصعب الحياة على سطحها والحال هذه ! ولا بد لنا من التأمل والتفكير في من جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماماً لحياة الإنسان؟

فهذه هي الآيات الأربع التي تبين عظمة القدرة الإلهية في الخلق والخالق.

ولكن قد يقال ما علاقة الربط بين الإبل والسماء والجبال والأرض حتى تذكرها الآيات بهذا التوالي؟

يقول الفخر الرازي في ذلك: إنَّ القرآن نزل على لغة العرب ، وكانوا يسافرون كثيرا لأن بلدتهم بلدة خالية من الزراعية ، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيراً ما يسيرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين، منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أنْ يُقبل على التفكر في الأشياء، لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أنْ يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظراً عجيباً، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية.

وإذا ما ابتعدنا المحيط العربي القديم وما كان فيه، وتوسعنا في مجال تأملنا ليشمل كل محيط البشرية، لتوصلنا إلى أنَّ هذه الأشياء الأربع تدخل في حياة الإنسان بشكل رئيسي، حيث من السماء مصدر النور والأمطار والهواء، والأرض مصدر نمو أنواع النباتات وما يتغذى به، وكذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات والعلو ففيها مخازن المياه والمواد المعدنية بألوانها المتنوعة، وما الإبل إلا نموذج شاخص متكامل لذلك الحيوان الأهلي الذي يقدم مختلف الخدمات للإنسان. وعليه فقد تجمعت في هذه الأشياء الأربع كل مستلزمات الزراعة والصناعة والثروة الحيوانية، وحري بالإنسان والحال هذه أنْ يتأمل في هذه النعم المعطاءة، كي

يندفع بشكل طبيعي لشكر المنعم سبحانه وتعالى، وبلا شك فإنَّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر. وبعد هذا البحث التوحيدي يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النبي الأكرم ﷺ

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ فخلق السماء والأرض والجبال والحيوانات ينطق بعدم عبثية هذا الوجود، وأنَّ خلق الإنسان إنما هو لهدف، فذكِّرْهم بهدفية الخلق، وبيِّنْ لهم طريق السلوك الرباني، وكن رائدهم وقدوتهم في مسيرة التكامل البشري. وليس باستطاعتك إجبارهم، وإنْ حصل ذلك فلا فائدة منه، لأنَّ شوط الكمال إنما يقطع بالإرادة والاختيار، ثم إنَّ عدم إجبار الناس على الإيمان يعتبر من ثوابت الشريعة الإسلامية السمحاء، و (مصيطر) من السطر وهو المعروف في الكتب، والمسيطر الذي ينظم السطور، ثم استعمل لكل من له سلطة على شيء، أو يجبر أحداً على عمل ما. وفي الآيتين التاليتين يأتي الاستثناء ونتيجته.

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ وهنا بحث لطيف حيث قيل إلى أية جملة يعود الاستثناء ؟

فالتفاسير مختلفة في ذلك:

الأول: إنه استثناء لمفعول الجملة (فذكر) أي لا ضرورة لتذكير المعاندين الذين رفضوا الحق جملة وتفصيلاً ، كما جاء في الآية (٨٣) من سورة الزخرف: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾

الثاني: إنه استثناء لجملة محذوفة، والتقدير: فذكر إنَّ الذكرى تنفع الجميع إلا من تولى وكفر، كما جاء في الآية (٩) من سورة الأعلى:﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ على أنْ يكون لها معناً شرطياً.

الثالث: إنه استثناء من الضمير (عليهم) في الآية السابقة، أي: (إنك لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فأنت مأمور بمواجهته).

كل ما ذكر من تفاسير مبني على أنَّ الاستثناء متصل، ولكن ثمة من يقول بأنَّ الاستثناء منقطع، فيكون معناه بما يقارب معنى (بل) فيصبح معنى الجملة: (بل من تولى وكفر فإنَّ الله متسلط عليهم) أو (إنه سيعاقبهم بالعذاب الأكبر).

ومن بين هذه التفاسير، ثمة تفسيران مناسبان:

الأول: القائل بالاستثناء المتصل لجملة لست عليهم بمصيطر فيكون إشارة لاستعمال القوة في مواجهة من تولى وكفر.

الثاني: القائل بالاستثناء المنفصل، أي سينالهم العذاب الأليم الذي ينتظر المعاندين والكافرين.

ويراد بـ (العذاب الأكبر) عذاب الآخرة الذي يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقرينة الآية (٢٦) من سورة الزمر: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ والآيتان تتضمنان التسلية لقلب النبي ﷺ في مواجهته لأساليب المعاندين، لكي لا يبتئس من أفعالهم، ويستمر في دعوته. وهما أيضاً تهديد عنيف لكل من تُسَوِّل له نفسه فيقف في صف الكافرين والمعاندين، فيخبرهم بأنَّ حسابهم سيكون بيد جبارٍ شديدٍ !

والخلاصة لهذه السورة المبحوثة أنها بدأت بموضوع القيامة وختمت به أيضاً، كما تمت الإشارة فيما بين البدء والختام إلى بحث التوحيد والنبوة، وهما دعامتا المعاد. كما وتضمنت السورة عرضاً لبعض ما سيصيب المجرمين من عقاب، وعرضت في قبال ذلك ما سينعم به المؤمنون في جنات النعيم الخالدة. كما وأكدت السورة على حرية الإنسان في اختيار الطريق الذي يسلكه، وذكرت بعودة الجميع إلى مولاهم الحق، وهو الذي سيحاسبهم على كل ما فعلوا في دنياهم كما وبينت السورة أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ الرسالة، وأنه غير مسؤول عن كفر وانحراف الناس وذنوبهم، وهذه هي مهمة مبلغي طريق الحق.

آيات الله في خلقه (الإبل)

إنَّ آيات الله تعالى التي تدل على وحدانيته وعظمته لا تحصى ولا يمكن أنْ يصل الإنسان إلى حقيقتها، ولكن هنالك بعض الآثار التي تشير إلى عظمة الخالق وذلك من خلال التأمل والتفكر في آثار خلقه، ومن تلك الآيات التي حث القرآن الكريم الإنسان على التفكُّر والنظر فيها هي "الإبل"، ذلك الحيوان الذي يستفاد الإنسان منه في نواحٍ عدة وما فيه من الآثار على عظمة الخالق والتي يلمسها أي إنسان بأدنى نظرٍ دون الرجوع إلى النظريات العلمية والفلسفية والكونية وغيرها، وللفائدة نوجز بعض آثار هذا المخلوق الذي استدلَّ الله تعالى به على عباده في عبادة من يستحق العبودية وهو الله تعالى، فمن آثار خلق هذا المخلوق التي تدعو إلى التأمل:

أولاً / زُوِّد الجمل عضلاتية وهي الجيوب المائية لحفظ الماء وخزنه، حيث ربما ينعدم الماء في الصحراء ويسير لمدة طويلة فيقوم بالضغط على إحدى هذه الجيوب ليفيض منها إلى معدته ليرتوي من عطشه، وبعد التجربة وجد أنه يمكنه أنْ يستغني عن شرب الماء لمدة أسبوع كامل.

ثانياً / أما الطعام فإنه بواسطة السنام الذي على أعلى ظهره والذي هو عبارة عن مخزن للشحوم، فإذا جاع أوجد الاحتراق الداخلي في منطقة السنام حرارة عالية تذيب قسماً من الشحم فينزل إلى معدته ويشبع منه.

ثالثاً / لما كانت حرارة الصحراء تعكس حرارة الشمس فتلهب الأجزاء الملاصقة للأرض زُوِّد بقوائم عالية تجعل جسمه بعيداً إلى درجةٍ ما عن الرمال.

رابعاً / لما كانت الرمال رخوة فإنَّ الأقدام الصغيرة تغطس فيها ويصعب السير حينئذٍ، ولكن اتساع القدم يمنع من الغطس ولذا زُوِّد الجمل في نهاية قوائمه بقطعةٍ جلديةٍ قابلةٍ للتمطي، فيتوزع الثقل على مساحة أوسع فيسهل السير.

خامساً / الجمل مزوَّدٌ بجفنين في كل عين، فإذا هبَّت الرياح وأحدثت العواصف الرملية أغمض جفناً واحدة وهي رقيقة وأبقى الثانية مفتوحة ليستطيع رؤية الطريق في مسيره.

وغير ذلك من أسرار خلق الله تعالى في مخلوقاته التي تدعو كل عاقل إلى التدبر والتفكر في هذه المخلوقات التي تدل على وجود خالق واحد عظيم ....

(سورة الفجر)

سورة الفجر (مكية) وعدد آياتها (ثلاثون) آية.

مباحث السورة / سورة الفجر ذات آيات قصار وأسلوب واضح ومصحوب بالإنذار والتحذير، وتقدم لنا الآيات الأولى أقساماً نادرة في نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهي. وتنقل لنا بعض آياتها ما حَلَّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا في الأرض وعاثوا فساداً مثل قوم عاد، وثمود وفرعون، وجعلهم عبرة لأولي الأبصار، ودرساً قاسياً لكل من يرى في نفسه القوة والاقتدار من دون الله. ثم تشير باختصار إلى الامتحان الرباني للإنسان، وتلومه على تقصيره في فعل الخيرات، وفي آخر ما تتحدث عنه السورة هو المعاد وما سينتظر المؤمنين ذوي النفوس المطمئنة من ثواب جزيل، وأيضاً ما سينتظر المجرمين والكافرين من عقاب شديد.

فضل تلاوتها / روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من قرأها في ليالٍ عشرٍ غفر الله له، ومن قرأها سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة. فثوابها لمن تبصر في قراءتها وعمل على ضوئها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

بدأت السورة بخمسة أقسام:

القَسم الأول: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ الفجر في الأصل بمعنى الشق الواسع، وقيل للصبح الفجر لأنَّ نوره يشق ظلمة الليل.

وللمفسرين في ما المراد من الفجر الذي أقسم الله تعالى فيه عدة أقوال منها:

١- فسر الفجر في الآية بمعناه المطلق، أي بياض الصبح.

٢- فسره بعض بفجر أول يوم من محرم وبداية السنة الجديدة.

٣- فسره آخرون بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمة ولاتصاله بالليالي العشرة الأولى من ذي الحجة.

٤- وقيل أيضاً إنه فجر أول شهر رمضان المبارك.

٥- أو فجر يوم الجمعة.

ولكن مفهوم الآية أوسع من أنْ تحدد بمصداق من مصاديقها، فهي تضم كل ما ذكر. ولا شك فهو من آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، ويمثل انعطافاً في حركة حياة الموجودات الموجودة على سطح الأرض، ومنها الإنسان، ويمثل كذلك حاكمية النور على الظلام، وعند مجيئه تشرع الكائنات الحية بالحركة والعمل، ويعلن انتهاء فترة النوم والسكون. وقد أقسم الله تعالى ببداية حياة اليوم الجديد.

وذهب البعض إلى أوسع مما ذكر حينما قالوا: هو كل نور يشع وسط ظلام وعليه فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في وسط ظلام العالم كما جاء في بعض الروايات. ومن مصاديقه أيضاً ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بني أمية، وتعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقي أمام الناس. ويكون من مصاديقه، كل ثورة قامت أو تقوم على الكفر والجهل والظلم على مر التاريخ. وحتى انقداح أول شرارة يقظة في قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة فهو فجر. ومما لا شك فيه أنَّ المعاني هي توسعة لمفهوم الآية، أما ظاهرها فيدل على الفجر المعهود.

القسم الثاني: ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ وللمفسرين فيها أيضاً أقوال منها:

١- المشهور عن ليال عشر إنهن ليالي أول ذي الحجة، التي تشهد أكبر اجتماع عبادي سياسي لمسلمي العالم من كافة أقطار الأرض. وورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي ﷺ.

٢- وقيل ليالي أول شهر محرم الحرام.

٣- وقيل ليالي آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كل ما ذكر ممكن جداً. فالقسم بهذه الليالي يدل على أهميتها الاستثنائية نسبة لبقية الليالي، وهذا هو شأن القسم، ولا مانع من الجمع بين كل ما ذكر من معان وقد جاءت ليال عشر بصيغة النكرة للدلالة على عظمتها وأهميتها، وإلا فهي تنطبق على كل ما ذكر.

القسم الثالث والرابع: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾وللمفسرين آراء كثيرة فيما أريد بـ (الشفع والوتر) حتى ذكر بعضهم (٢٠) قولاً، فيما ذهب آخرون لذكر (٣٦) قولاً، وأهم تلك الأقوال ما يلي:

١ – المراد بـ (الشفع والوتر) جميع المخلوقات، لأنها من جهة بعضها زوج والبعض الآخر فرد.

٢ – المراد بـ (الشفع والوتر) الصلاة، لأنَّ بعضها زوجي والبعض الآخر فردي، وورد هذا المعنى في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أو هما ركعتي الشفع وركعة الوتر في آخر صلاة الليل.

٣ – المراد بـ (الشفع) يوم التروية –الثامن من شهر ذي الحجة حيث يستعد الحجاج للوقوف على جبل عرفات– و (الوتر) يوم عرفة –حيث يكون حجاج بيت الله الحرام في عرفات.

٤– أو المراد بـ (الشفع) هو يوم عيد الأضحى –العاشر من ذي الحجة–، و(الوتر) هو يوم عرفة. ووردت الإشارة إلى هذا المعنى في روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً. وغيرها من الأقوال ....

والمهم إنَّ الألف واللام في (الشفع والوتر) إنْ كانا للتعميم فكل المعاني تجتمع فيهما، وكل معنى سيكون مصداق من مصاديق الشفع والوتر، ولا داعي والحال هذه إلى حصر التفسير بإحدى المعاني المذكورة، أما إذا كانا للتعريف، فستكون إشارتهما إلى زوج وفرد خاصين، وفي هذه الحال سيكون تفسيران من التفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقرباً مع مراد الآية وهما:

الأول: المراد بهما يومي العيد وعرفة، وهذا ما يناسب ذكر الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجة، وفيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثاني: أنهما يشيران إلى الصلاة بقرينة ذكر الفجر، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل. وقد ورد هذان التفسيران في روايات عن أئمة أهل البيت المعصومين.

القسم الخامس: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾يسر من سرى وهو السير ليلاً على قول الراغب في مفرداته. وقد نسب السير إلى الليل، وكأن الوصف يقول: بأنَّ الليل موجود حسي، له حس وحركة، وهو يخطو في ظلمته وصولاً لنور النهار. نعم قسماً بالظلام السائر نحو النور، قسماً بالظلام المتحرك، لا الثابت الذي يثير الخوف والرعب في الإنسان، والليل يكون ذا قيمة فيما لو كان سائرا نحو النور. واختلف المفسرون في مراد الآية من الليل، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإنْ كانت الألف واللام للتعميم فجميع الليالي، كآية من آيات الله ومظهر من مظاهر الحياة المهمة. وإنْ كانت الألف واللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتجه حجاج بيت الله الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة) –المشعر الحرام– ويقضون ليلهم في ذلك الوادي المقدس، وعند الصبح يتجهون نحو (منى) وقد ورد في هذا روايات عن أئمة أهل البيت. والذين حضروا مثل تلك الليلة

في عرفات ومشعر، قد رأوا كيف يتحرك أكثر من مليون مسلم وهم متجهون من عرفات إلى المشعر وكأنَّ الليل بكله يتحرك وتشاطره في ذلك الأرض وكذا الزمان. فهناك يتلمس الإنسان معنى والليل إذا يسر بكل دقائقه.

وعلى أية حال، فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهو من الضرورات الحياتية في عالم الوجود. فالليل يكيف حرارة الجو، ويعم على جميع الكائنات الاستقرار والسكون بعد جهد الحركة والتنقل، وفوق هذا وذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء والمناجات مع الله جل وعلا. وأما ليلة عيد الأضحى (ليلة الجمع) فهي من أعجب الليالي في ذلك الوادي المقدس (المشعر الحرام).

وتتجسد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التي أقسم الله بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيام ذي الحجة ومراسم الحج العظيمة. وفي غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين والتشريع المهمة، والتي تبين جلال وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ الحجر هنا بمعنى العقل، وفي الأصل بمعنى المنع، كأنْ يقال: حجر القاضي فلاناً، أو كأنْ يطلق على الغرفة حجرة، لأنها محل محفوظ ويمنع دخوله من قبل الآخرين، وكذلك يقال للحضن حجر – على وزن فكر– لحفظه وإحاطته، وأطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة، كما أنَّ مصطلح العقل هو بمعنى المنع أيضاً، ومنه العقال الذي به تربط أرجل البعير ليمنعه من الحركة.

ولكن أين جواب القسم ؟

فهناك احتمالان هما:

الأول: قوله تعالى: (إن ربك لبالمرصاد)

الثاني: جواب القسم محذوف وتدل عليه الآيات التالية التي تتحدث عن عقاب الطغاة، والتقدير: قسماً بكل ما قلناه لنعذبنَّ الكافرين والطغاة.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾

إمهال الظالمين والانتقام منهم

بعد أنْ تضمنت الآيات الأولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتي هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض من الذين توفرت لهم بعض سبل القوة والقدرة، فأهوتهم أهواءهم في قاع الغرور والكفر والطغيان، وتبين لنا الآيات المباركة ما حلَّ بهم من عاقبة أليمة، محذرة المشركين في كل عصر ومصر على أنْ يرعووا ويعودوا إلى رشدهم بعد أنْ يعيدوا حسابهم ويستيقظوا من غفلتهم، لأنهم مهما تمتعوا بقوة وقدرة فلن يصلوا لما وصل إليه الأقوام السالفة، وينبغي الإتعاظ بعاقبتهم، وإلا فالهلاك والعذاب الأبدي ولا غير سواه.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ المراد بالرؤية هنا العلم والمعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحال بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء الكثير وكأنه يراهم بأُمِّ عينيه ولذا جاء في الآية: ألم تر. ومع أنَّ المخاطب في الآية هو النبي الأكرم ﷺ إلا أنَّ الخطاب موجه إلى الجميع.

(عاد) هم قوم نبي الله هود عليه السلام ويذكر المؤرخون أنَّ اسم (عاد) يطلق على قبيلتين. قبيلة كانت في الزمن الغابر البعيد، ويسميها القرآن الكريم بـ (عاد الأولى) كما في الآية (٥٠) من سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ وكانت قبل التاريخ. ويحددون تاريخ القبيلة الثانية بحدود (٧٠٠) سنة قبل الميلاد، وكانت تعيش في أرض الأحقاف أو اليم . وكان أهل عاد أقوياء البنية، طوال القامة، لذا كانوا يعتبرون من المقاتلين الأشداد، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدم مدني، وكانت مدنهم عامرة وقصورهم عالية وأراضيهم يعمها الخضار. وقيل: إنَّ (عاد) هو اسم جد تلك القبيلة، وكانت تسمى القبيلة بـ (عادة).

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ اختلف المفسرون في علام يطلق اسم (إرم) هل هو شخص أم قبيلة أم مدينة ؟ ينقل الزمخشري في الكشاف عن بعضهم، قوله: إنَّ عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وسميت القبيلة باسم الجد وهو (إرم). ويعتقد آخرون إنَّ (إرم) هم عاد الأولى ، و (عاد) هي القبيلة الثانية، ويقال أيضاً: إنَّ (إرم) هو اسم مدينتهم. وما يناسب الآية التالية أنْ يكون (إرم) هو اسم مدينتهم.

(عماد) بمعنى العمود وجمعه (عمد) وهي على ضوء التفسير الأول تشير إلى ضخامة أجسادهم كأعمدة البناء، وعلى ضوء التفسير الثاني تشير إلى عظمة أبنيتهم وعلو قصورهم وما فيها من أعمدة كبيرة.

وعلى القولين فهي إشارة إلى قدرة وقوة قوم عاد. ولكن التفسير الثاني (أعمدة قصورهم العظيمة) أنسب. ولذا تقول الآية التالية.

﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ والآية تبين أنَّ المراد بـ (إرم) المدينة وليس شخص أو قبيلة، ولعل هذه الآية هي التي دعت بعض كبار المفسرين من اختيار هذا التفسير، ونراه كذلك راجحاً.

وتذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين.

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴾ وصنعوا منها البيوت والقصور. ثمود من أقدم الأقوام ، ونبيهم صالح عليه السلام وكانوا يعيشون في وادي القرى بين المدينة والشام، وكانوا يعيشون حياة مرفهة، ومدنهم عامرة. وقيل: ثمود اسم جد القبيلة، وقد سميت به.

(جابوا) من الجَوْبَة- على زنة توبة- وهي الأرض المقطوعة، ثم استعملت في قطع كل أرض، فمراد الآية قطع أجزاء الجبال وبناء البيوت القوية، كما أشارت إلى ذلك الآية (٨٢) من سورة الحجر ﴿ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ وقيل: قوم ثمود أول من قطع الأحجار من الجبال، وصنع البيوت المحكمة في قلبها. ومما لا شك فيه أنَّ ثمود قوم قد وصلوا إلى أعلى درجات التمدن في زمانهم، ولكن ما يذكر عنهم في بعض كتب التفسير، يبدو وكأنه مبالغ فيه أو أسطورة، كأنْ يقولوا: إنهم بنوا ألفا وسبعمائة مدينة من الحجر! وتتعرض الآية التالية لقوم ثالث.

﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ أي ألم تر ما فعل ربك بفرعون الظالم المقتدر ؟ ! والأوتاد جمع وتد، وهو ما يثبت به. وقد وصف فرعون بذي الأوتاد ؟ وثمة تفاسير مختلفة لذلك:

الأول: لأنه كان يملك جنوداً وكتائباً كثيرة، وكانوا يعيشون في الخيم المثبتة بالأوتاد.

الثاني: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالباً ما كان يدق على أيديهم وأرجلهم بأوتاد ليثبتها على الأرض، أو يضعهم على خشبة ويثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد في أيديهم وأرجلهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا. وورد هذا الكلام في رواية نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام وتنقل كتب التاريخ إنه قد عذب زوجته (آسية) بتلك الطريقة البشعة حتى الموت، لأنها آمنت بما جاء به موسى عليه السلام وصدقت به.

الثالث: ذي الأوتاد كناية عن قدرة واستقرار الحكم.

ولا تنافي فيما بين التفاسير الثلاثة، ويمكن إدخالها جميعها في معنى الآي.

وينتقل القرآن العرض ما كانوا يقومون به من أعمال.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ الفساد الذي يشمل كل أنواع الظلم والاعتداء والانحراف ، والذي هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم ، فكل من يطغى سيؤول أمره إلى الفساد لا محال.

ويذكر عقابهم الأليم وبعبارة موجزة فصب عليهم ربك سوط عذاب، صب عليهم تستعمل في الأصل لانسكاب الماء، وهنا إشارة إلى شدة واستمرار نزول العذاب، ويمكن أن يكون إشارة لتطهير الأرض من هؤلاء الطغاة وتحذر الآية التالية كل من سار على خطو أولئك الطواغيت.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ المرصاد من الرصد، وهو الاستعداد للترقب، وهو في الآية يشير إلى عدم وجود أي ملجأ أو مهرب من رقابة الله وقبضت ، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب والعذاب. وفي ذلك تسلية لقلب النبي ﷺ وتطمينا لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهي قد أكد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضة القدرة الإلهية أبداً أبدا، وفيه تحذير أيضا لأولئك الذين يؤذون النبي ﷺ ويظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك وإلا سيصيبهم ما أصاب الأكثر منهم قدرة وقوة....

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

موقف الإنسان من تحصيل النعمة وسلبها

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاة، وتحذيرهم وإنذارهم، تأتي هذه الآيات لتبين مسألة الابتلاء والتمحيص وأثرها على الثواب والعقاب الإلهي، وتعتبر مسألة الابتلاء من المسائل المهمة في حياة الإنسان. وتشرع الآيات بـ:

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ وكأنه لا يدري بأنَّ الابتلاء سنة ربانية تارة يأتي بصورة اليسر والرخاء، وأخرى بالعسر والضراء. فلا ينبغي للإنسان أنْ يغتر عند الرخاء، ولا أنْ ييأس عندما تصيبه عسرة الضراء، ولا ينبغي له أنْ ينسى هدف وجوده في الحالتين، وعليه أنْ لا يتصور بأنَّ الدنيا إذا ما أرخت نعمها عليه فهو قد أصبح مقرباً من الله، بل لابد أنْ يفهمها جيدا ويؤدي حقوقها، وإلا فسيفشل في الامتحان. فالآية إذن تشير إلى فلسفة البلاء، وما يصيب الإنسان من محن وإحن في دنياه. وتوجه الآيتان التاليتان نظر الإنسان إلى الأعمال التي تؤدي إلى البعد عن الله وتوجب عقابه ....

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ فالآية لم تخص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأنَّ الوضع النفسي والعاطفي لليتيم أهم بكثير من مسألة جوعه. فلا ينبغي لليتيم أنْ يعيش حالة الانكسار والذلة بفقدان أبيه، وينبغي الاعتناء به وإكرامه لسد الثغرة التي تسببت برحيل أبيه، وقد أولت الأحاديث الشريفة والروايات هذا الجانب أهمية خاصة، وأكدت على ضرورة رعاية وإكرام اليتيم. فإكرام اليتيم لا ينحصر بحفظ أموالهم –كما يقول البعض– بل يشمل حفظ الأموال وغيرها. (تحاضون) من الحض وهو الترغيب، فلا يكفي إطعام المسكين بل يجب على الناس أنْ يتواصوا ويحث بعضهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنة التربوية كل المجتمع. وتعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة.

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾مما لا شك فيه أنَّ الاستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم ، ولذا فيمكن أنْ يكون المذموم في الآية أحد الأمور التالية:

الأول: الجمع بين حق الإنسان وحق الآخرين في الميراث، لأن كلمة (لم) بمعنى الجمع، وفسرها الزمخشري في الكشاف بمعنى الجمع بين الحلال والحرام. وكانت عادة العرب في الجاهلية أنْ يحرموا النساء والأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنه نصيب المقاتلين، لأنَّ أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب والإغارة.

الثاني: عدم الإنفاق من الإرث على المحرومين والفقراء من الأقرباء وغيرهم، فإنْ كنتم تبخلون بهذه الأموال التي وصلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكدون في تحصيله، وهذا عيب كبير فيكم.

الثالث: هو أكل إرث اليتامى والتجاوز على حقوق الصغار، وذلك من أقبح الذنوب، لأنَّ فيه استغلال فاحش لحق مَنْ لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

والجمع بين هذه التفاسير الثلاث ممكن.

ثم يأتي الذم الرابع ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾فأنتم عبدة دنيا، طالبي ثروة، عشاق مال ومتاع، ومن يكون بهذه الحال فمن الطبيعي أنْ لا يعتني في جمعه للمال، أكان من حلال أم من حرام ومن الطبيعي أيضا أنْ يتجاوز على الحقوق الشرعية المترتبة عليه، بأنْ لا ينفقها أو ينقص منها، ومن الطبيعي كذلك إنَّ القلب الذي امتلأ بحب المال والدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر الله عز وجل . ولذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسألة امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

١- إكرام اليتيم. ٢- إطعام المسكين. ٣- أسهم الإرث. ٤- وجمعه من طريق مشروع وغير مشروع.

والملاحظ أنَّ الاختبارات المذكورة إنما تدور حول محور الأموال ، للإشارة ما للمال من مطبات مهلكة، ولو تجاوزها الإنسان لسهلت عليه بقية العقبات في طريقه نحو التكامل والرقي والسمو ....

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يوم لا تنفع الذكرى

بعد أنْ ذمت الآيات السابقة الطغاة وعبدة الدنيا والغاصبين لحقوق الآخرين، تأتي هذه الآيات لتحذرهم وتهددهم بوجود القيامة والحساب والجزاء.

فتقول أولاً: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ كلا فليس الأمر كما تعتقدون بأنْ لا حساب ولا جزاء، وأنَّ الله قد أعطاكم المال تكريماً وليس امتحاناً .... فالآية تشير إلى الزلازل والحوادث المرعبة التي تعلن عن نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة، حيث تتلاشي الجبال وتستوي الأرض. وبعد أنْ ينتهي مرحلة القيامة الأولى (مرحلة الدمار) تأتي المرحلة الثانية، حيث يعود الناس ثانية للحياة ليحضروا في ساحة العدل الإلهي.

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فسيقف الجميع في ذلك المحشر لإجراء الأمر الإلهي وتحقيق العدالة الربانية، وقد بينت لنا الآيات ما لعظمة ذلك اليوم ، وكيف أنَّ الإنسان لا سبيل له حينها إلا الرضوخ التام بين قبضة العدل الإلهي. وجاء ربك كناية عن

حضور الأمر الإلهي لمحاسبة الخلائق، أو أنَّ المراد ظهور آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، أو ظهور معرفة الله عز وجل في ذلك اليوم، بشكل بحيث لا يمكن لأي كان إنكاره، وكأن الجميع ينظرون إليه بأُمِّ أعينهم. وبلا شك، وإشارة إلى ورود الملائكة عرصة يوم القيامة على هيئة صفوف، ويحتمل تعلق الصفوف بكل السماوات. وتقول الآية التالية.

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ وما نستنبطه من الآية إنَّ جهنم قابلة للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنة للمتقين (وأزلفت الجنة للمتقين)، وروي لما نزلت هذه الآية تغيَّر وجه رسول الله ﷺ وعرف في وجهه حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقالوا: يا علي لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي الله، فجاء علي عليه السلام فاحتضنه ثم قال: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، ما الذي حدث اليوم ؟

قال: جاء جبرائيل عليه السلام فأقرأني وجيء يومئذ بجهنم.

قال: فقل: كيف يجاء بهم ؟

قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثم أتعرض لجهنم، فتقول: ما لي ولك يا محمد، فقد حرم الله لحمك عليَّ، فلا يبقى أحد إلا قال: نفسي نفسي، وإنَّ محمداً يقول: رب أمتي أمتي.

نعم فحينما يرى المذنب كل تلك الحوادث تهتز فرائصه ويتزلزل رعباً، فيستيقظ من غفلته ويعيش حالة الهم والغم، ويتحسر على كل لحظة مرت من حياته بعد ما يرى ما قدمت يداه، ولكن هل للحسرة حينها من فائدة؟ ! وكم سيتمنى المذنب لو تسنح له الفرصة ثانية للرجوع إلى الدنيا وإصلاح ما أفسد، ولكنه سيرى أبواب العودة مغلقة، ولا من مخرج ! ولكن أين ؟ فقد طويت صحائف الأعمال، ويومها يوم حساب بلا عمل وعندها بملأ يصرخ كيانه يقول.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾وفي قولته نكتة لطيفة، فهو لا يقول قدمت لآخرتي بل لحياتي، وكأنَّ المعنى الحقيقي للحياة لا يتجسد إلا في الآخرة. كما أشارت لهذه الآية (٦٤) من سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ وتشير الآية التالية إلى شدة العذاب الإلهي

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾فمن استخدم في دنياه كل قدرته في ارتكاب أسوء الجرائم والذنوب، فلا يجني في آخرته إلا أشد العذاب ....

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾

الشرف العظيم

وتنتقل السورة في آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنة ثقة بالله وبهدف الخلق، بالرغم من معايشتها في خضم صخب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكل لطف ولين ومحبة، حيث تقول: يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي. فهل ثمة أجمل وألطف من هذا التعبير !

تعبير يحكي دعوة الله سبحانه وتعالى لتلك النفوس المؤمنة المخلصة، المحبة والواثقة بوعده جل شأنه دعوتها لتعود إلى ربها ومالكها ومصلحها الحقيقي ....

(سورة البلد)

سورة البلد (مكية) وعدد آياتها (عشرون) آية.

مباحث السورة / هذه السورة المباركة على قصرها تحمل حقائق كبرى:

١ – في بداية هذه السورة، بعد قسم ذي محتوى عميق، تقرر الآية أنَّ حياة الإنسان في هذه الدنيا مقرونة بمشاكل وأتعاب.

٢ – في مقطع آخر من هذه السورة، إشارة إلى أهم النعم الإلهية، ثم ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

٣ – وفي آخر هذه السورة تقسيم الناس إلى أصحاب الميمنة و أصحاب المشئمة، ثم يأتي ذكر جانب من أعمال المجموعة الأولى وصفاتها (المجموعة المؤمنة الصالحة) وما ينتظرها من جزاء، ثم المجموعة الثانية (وهي الكافرة المجرمة) وما تواجهه من مصير.

فضل تلاوتها / روي عن رسول الله ﷺ : مَنْ قرأها أعطاه الله الأمن من غضبه يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ في مواضع كثيرة يبدأ القرآن بالقسم عند تعرضه للحقائق الهامة بالقسم الذي يؤدي بدوره إلى حركة في الفكر والعقل، بالقسم المرتبط ارتباطاً خاصاً بالموضوع المطروح. وفي هذا الموضع تبدأ الآية بالقسم بهذه المدينة المقدسة (مكة).

﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ لم يرد ذكر مكة في الآية صريحاً، لكن الدلالات تشير إلى أنَّ المقصود بالبلد مكة، وأهمية هذه المدينة المقدسة لا تبلغها مدينة، والمفسرون مجمعون على ذلك. أرض مكة مشرفة ومعظمة، لأنَّ فيها أول مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، وكان هذا المركز مطاف أنبياء الله العظام ولذلك أقسم الله بها، ولكن السورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفاً وكرامةً (وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد) فالبلد استحق أنْ يقسم به الله لوجودك أنت أيها النبي الكريم فيه ! فلا يتصورن كفار مكة أنَّ القرآن يقسم ببلدهم تكريماً لهم ولأوثانهم، لا فهذا البلد مكرَّم لما يحمله من تاريخ الرسالات السماوية، ولما يحتضنه من رسالة خاتمة ونبي خاتم.

وفي الآية تفسير آخر يعتبر (لا) في الآية السابقة نافية، ويكون المعنى: لا أقسم بهذا البلد المقدس حال كون حرمته قد هتكت والأنفس والأموال والأعراض فيه قد أحلت وأبيحت. ويكون ذلك –على هذا التفسير– توبيخاً وتقريعاً لكفار قريش وهم الذين يعتبرون أنفسهم خدمة الحرم وسدنته، ويكنُّون له احتراماً يفوق كل احترام حتى أنَّ الرجل منهم يرى قاتل أبيه فيه فلا يتعرض له، بل حتى قيل إنَّ الرجل يحمل معه شيئاً من لحاء أشجار مكة فلا يتعرض له أحد، فلماذا إذن لم تراعوا هذه الآداب والتقاليد في حق النبي الأكرم ﷺ ؟ !

لماذا تماديتم في إيذائه وإيذاء صحابته، حتى سولت لكم أنفسكم استباحة دمه ؟ !

وقد ورد هذا التفسير في حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أيضاً.

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ للمفسرين آراء عديدة عن المقصود بالوالد والولد في الآية منها:

أولاً: إنَّ الوالد إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح. والتفسير هذا يتناسب مع القسم بمكة، ونعلم أنَّ إبراهيم وابنه رفعا القواعد من البيت، وبذلك وضعا حجر أساس البلد الأمين. والعرب في الجاهلية كانوا يجلُّون إبراهيم وابنه ويفخرون في الانتساب إليهما.

ثانياً: إنَّ المقصود بالوالد والولد آدم وذريته.

ثالثاً: آدم والأنبياء من ذريته.

رابعاً: كل والد وما ولد، متوالي الأجيال. وتعاقبها بالولادة من أعجب بدائع الكون، ولذلك خصها الله تعالى بالقسم.

ولا يستبعد الجمع بين هذه التفاسير وإنْ كان الأول أنسب.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ وهذا هو الهدف النهائي للقسم (الكبد) كما يقول الطبرسي في مجمع البيان في الأصل بمعنى الشدة، ولذا يقال للبن إذا استغلظ "تكبد اللبن"، ولكن كما يقول الراغب في مفرداته أنَّ (كبد) ألم يصيب الكبد، ثم أطلق على كل ألم ومشقة.

نعم الإنسان يمر في دورة حياته بمراحل كلها مشوبة بالألم ومقرونة بالعناء. منذ أن يستقر نطفة في رحم أمه حتى ولادته، ثم بعد ولادته في مراحل طفولته وشبابه وشيخوخته يعاني من ألوان والمشاق والآلام، هذه طبيعة الحياة، ومن توقع منها غير ذلك خيبت ظنه. وهذه الحالة تشمل كل أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء الله وأولياؤه الصالحون.

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ فما يحيط بالإنسان من مكابدة يدل على ضعف قدرته، هذه الحقيقة ترد على أولئك الذين يمتطون مركب الغرور، ويخالون أنهم في مأمن من العقاب الإلهي أو أنهم مانعتهم حصونهم ومناصبهم وثرواتهم، فيرتكبون الذنوب ويمارسون العدوان ويديرون ظهورهم لشريعة الله ....

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ إشارة إلى قول الذين يطلب منهم أنْ ينفقوا أموالهم في الخيرات، فيأبون ويقولون بغرور: إننا أنفقنا في هذا السبيل كثيراً من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئاً، وإن أعطوا لأحد شيئاً فللرياء ولتحقيق هدف شخصي .... والفعل (أهلكت) يوحي إبادة الأموال وعدم الحصول على عائد منها. و (لبد) تعني الشئ المتراكم، وهنا تعني المال الوفير.

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ إنه غافل عن هذه الحقيقة حقيقة اطلاع الباري تعالى على كل الأمور وعلى ظواهر الأعمال، بل على ما يختلج في أعماق النفس والقلب، وما يدور في الخلد والنية ....

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

نعمة العين واللسان والهداية

استتباعاً للآيات السابقة وما دار فيها من حديث عن الغرور والغفلة في الطاغين، تذكر هذه الآيات الكريمة جانباً من أهم ما أنعم الله به على الإنسان من نعم مادية ومعنوية كي تكسر روح الغرور، وتدفع إلى التفكير في خالق هذه النعم، ولكي تحرك روح الشكر في نفس الكائن البشري ومن ثم تسوقه إلى معرفة الخالق: ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين في هذه العبارات القصيرة إشارة إلى ثلاث نعم مادية هامة ونعمة معنوية كبرى هي بمجموعها من أعظم النعم الإلهية :

نعمة العين واللسان والشفة من جانب، ونعمة الهداية ومعرفة الخير والشر من جانب آخر.

(النجد) في الأصل يعني المكان المرتفع، ويقابلها (تهامة) وهي الأرض المنخفضة، وهنا كناية عن الخير والشر وعن سير السعادة والشقاء.

ومع كل هذه النعم، نعمة الهداية، حبث لو انحرف الإنسان عن جادة الحق، فلا يلومن إلا نفسه. عبارة وهديناه النجدين إضافة لما لها من مدلول على مسألة الاختيار وحرية الإنسان، تدل أيضاً على ما يتطلبه طريق الخير من جهد وعناء، لأنَّ (النجد) مكان

مرتفع وتسلق المكان المرتفع يتطلب كداً وسعياً وجهداً، فأولى بالإنسان أنْ يبذل الجهد والسعي على طريق الخير، وانتخاب الطريق بيد الإنسان. و(النجدين) هنا طريق الخير وطريق الشر. وإنَّ التعبير بالنجدين إشارة إلى ظهور طريقي الخير والشر وبروزهما، كبروز وظهور الأرض المرتفعة.

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

بعد ذكر النعم الكبيرة في الآيات السابقة، تنحي هذه الآيات باللائمة على أولئك الذين يكفرون بهذه النعم، ولا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه.

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ وما المقصود من العقبة ؟ الآيات التالية تفسرها.

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ من هنا فالعقبة التي لم يتهيأ الكافرون بأنعم الله لاجتيازها هي: فك رقبة عبد من الرقبة أي تحريره أو إطعام في يوم الضائقة الاقتصادية والمجاعة، يتيماً ذا قربى أو فقيراً قد لصق بالتراب من شدة فقره، العقبة هي مجموعة أعمال الخير التي تتجه لخدمة الناس والأخذ بيد الضعفاء والمعوزين .... واجتياز تلك العقبات فرع لاجتياز هذه الطاعات، تأمل بدقة تعبير (اقتحم) في الآية أصله من الاقتحام وهو الدخول في عمل صعب مخيف كما قال الراغب في المفردات، أو الولوج والعبور بشدة ومشقة كما في تفسير الكشاف، وهذا يعني أنَّ اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنه تأكيد على ما ورد في أول السورة بشأن ما يكابد الإنسان في حياته (لقد خلقنا الإنسان في كبد) وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: إنَّ الجنة حُفَّتْ بالمكاره، وإنَّ النار حُفَّتْ بالشهوات.
ثم تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، وسبل اجتيازها فتقول.

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان ومتواصون بالصبر والاستقامة على الطريق، ومتواصون بالرحمة والعطف. وبهذا السياق القرآني لبيان طبيعة العقبة نفهم أنَّ القادرين على اجتيازها هم المتحلُّون بالإيمان والخلق الكريم كالتواصي بالصبر والرحمة، وذوو أعمال البر والإحسان كتحرير العبيد وإطعام الأيتام والمساكين، والتعبير بكلمة (تواصوا) تعني تبادل التوصية، لها دلالة اجتماعية هامة، هي إنَّ عملية التواصي بالسير على طريق الحق وبالاستقامة على طاعة الله ومكافحة جموح الأهواء النفسية، ليست عملية فردية يل يجب أنْ تتخذ طابعاً اجتماعياً عاماً في كل المجتمع الإيماني، وكل الأفراد مسؤولون أنْ يوصي بعضهم الآخر بحفظ هذه الأصول. وفي خاتمة هذه الأوصاف تذكر السورة مكانة المتحلين بها فتقول.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ فصحيفة أعمالهم تسلم إليهم في محضر الله سبحانه وتعالى بيدهم اليمنى. ويحتمل أنْ تكون (الميمنة) من اليُمْنِ والبركة، أي إنَّ أصحاب هذه الصفات ذووا بركة لأنفسهم ولمجتمعهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ و(المشئمة) من الشؤم تقابل (الميمنة) من اليمن، أي إنَّ هؤلاء الكافرين مشؤومون لا يُمن فيهم ولا بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم ولمجتمعهم ثم إنَّ علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلمه صحيفة أعماله بيده اليسرى.

(سورة الشمس)

سورة الشمس (مكية) وعدد آياتها (خمس عشرة) آية.

مباحث السورة / هذه السورة هي في الواقع سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب من الأدران، ومعانيها تدور حول هذا الهدف، وفي مقدمتها قسم بأحد عشر مظهراً من مظاهر الخليقة وبذات الباري سبحانه، من أجل التأكيد على أنَّ فلاح الإنسان يتوقف على تزكية نفسه، والسورة فيها من القسم ما لم يجتمع في سورة أخرى. وفي المقطع الأخير من السورة ذكر لقوم (ثمود) باعتبارهم نموذجاً من أقوام طغت وتمردت، وانحدرت – بسبب ترك تزكية نفسها – إلى هاوية الشقاء الأبدي، والعقاب الإلهي الشديد.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: مَنْ قرأها فكأنما تصدَّقَ بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر.

ومن المؤكد أنَّ هذه الفضيلة الكبرى لا ينالها إلا من استوعب محتواها بكل وجوده، ووضع مهمة تهذيب النفس نصب عينيه دائماً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

التفسير

تتضمن السورة المباركة (أحد عشر) قَسَماً، وفي حساب آخر (سبعة) أقسام، وقد ذكرنا آنفاً أنَّ القسم في القرآن يستهدف مقصدين:

الأول: بيان أهمية ما جاء القسم من أجله.

الثاني: أهمية ما أقسم به القرآن، لأنَّ القسم عادة يكون بالمهم من الأمور، من هنا تعمل هذه الأقسام على تحريك الفكر في الإنسان كي يمعن النظر في هذه الموضوعات الهامة من عالم الخليقة، وليتخذ منها سبيلاً إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ الشمس ذات دور هام وبَنَاء جداً في الموجودات الحية على ظهر البسيطة فهي إضافة إلى كونها مصدراً للنور والحرارة –وهما عاملان أساسيان في حياة الإنسان– تعتبر مصدراً لغيرهما من المظاهر الحياتية، حركة الرياح، وهطول الأمطار، ونمو النباتات .....

(وَضُحَاهَا) الضحى في الأصل انتشار نور الشمس، وهذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشمس عن الأفق ويغمر النور كل مكان، ثم يطلق على تلك البرهة من اليوم اسم الضحى ، والقسم بالضحى لأهميته، لأنه وقت هيمنة نور الشمس على الأرض. والقسم الثالث بالقمر.

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ وهذا التعبير –كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين– إشارة إلى القمر حين يكتمل ويكون بدراً كاملاً في ليلة الرابع عشر من كل شهر، فيسطع بجماله النير ويهيمن على جو السماء، ولجماله وبهائه في هذه الليلة أكثر من أية ليلة أخرى جاء القسم به في الآية الكريمة .... والقسم الرابع بالنهار.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ و(التجلية) هي الإظهار والإبراز. واختلف المفسرون في مرجع الضمير في جلاها، قال أكثرهم يعود إلى الأرض أو الدنيا، أي قسماً بالنهار إذا أظهر الأرض بضوئه. وليس في الآيات السابقة إشارة إلى الأرض، ولكنها تتضح من

قرينة المقام .... فالقسم بهذه الظاهرة السماوية الهامة، يبين أهميتها الكبرى في حياة البشر وفي جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركة والحياة، وكل الفعاليات والنشاطات ومساعي الحياة تتم عادة في ضوء النهار. والقسم الخامس بالليل.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ قسماً بالليل بكل ما فيه من بركة وعطاء، إذ هو يخفف من حرارة شمس النهار ، ثم هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية واستقرارها، ولولا ظلام الليل لما كان هناك هدوء واستقرار، لأنَّ استمرار سطوع الشمس يؤدي إلى ارتفاع في درجة الحرارة وتلف كل شيء ..... وفي القَسَمَيْن السادس والسابع تحلق بنا الآية إلى السماوات وخالق السماوات.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ فأصل خلقة السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليقة، وبناء كل هذه الكواكب والأجرام السماوية وما يحكمها من أنظمة أعجوبة أخرى، وأهم من كل ذلك خالق هذه السماوات.

ويلاحظ في عبارة (وما بناها) أنَّ (ما) تستعمل في العربية لغير العاقل، ولا يصح استعمالها في موضع الحديث عن الباري العليم الحكيم سبحانه. ولذا ذهب بعض إلى أنها مصدرية لا موصولة، وبذلك يكون معنى الآية الكريمة: (والسماء وبنائها) ولكن ورد في مواضع أخرى من القرآن الكريم استعمال (ما) للعاقل، كقوله سبحانه: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، من المفسرين مَنْ قال إنَّ (ما) استعملت هنا لتطرح مسألة المبدأ بشكل مبهم كي يستطيع البشر بالدراسة والنظر أنْ يتوصلوا إلى علم بالمبدأ سبحانه وحكمته، لتتبدل بعد ذلك (ما) إلى (مَنْ) أي من الشيء المجهول الذي يعبر عنه بـ (ما) إلى معلوم، غير أنَّ التفسير الأول أنسب. القسم الثامن والتاسع بالأرض وخالق الأرض.

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ الأرض التي تحتضن حياة الإنسان وجميع الموجودات الحية، الأرض بجميع عجائبها بجبالها، وبحارها، وسهولها، ووديانها ..... (طَحَىٰهَا) والطحو بمعنى البسط والفرش، وبمعنى الذهاب بالشيء وإبعاده أيضاً، وهنا بمعنى (البسط) لأنَّ الأرض كانت مغمورة بالماء، ثم غاض الماء في منخفضات الأرض، وبرزت اليابسة وانبسطت، ويعبر عن ذلك أيضاً بدحو الأرض هذا أولاً. وثانياً كانت الأرض في البداية على شكل مرتفعات ومنخفضات ومنحدرات شديدة غير قابلة للسكن عليها، فهطلت أمطار مستمرة سَوَّت بين هذه التعاريج، وتسطحت الأرض فكانت صالحة لمعيشة الإنسان وللزراعة .... وأخيراً القسم الحادي عشر والقسم الثاني عشر بالنفس الإنسانية وبارئها.

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ قيل إنَّ المراد بالنفس هنا روح الإنسان، وقيل إنه جسمه وروحه معاً.

فلو كان المراد من النفس الروح، فسواها تعني إذن نظمها وعدل قواها ابتداء من الحواس الظاهرة وحتى قوة الإدراك، والذاكرة، والتخيل، ونظائرها من الظواهر المندرجة في إطار علم النفس.

ولو كان المراد من النفس الروح والجسم معاً، فالتسوية تشمل أيضاً ما في البدن من أنظمة وأجهزة يدرسها علم التشريح وعلم الفسلجة .... والأنسب هنا أنْ يكون معنى النفس هنا شاملاً للمعنيين لأنَّ قدرة الله سبحانه تتجلى في الاثنين معاً. ويلاحظ أنَّ الآية ذكرت كلمة (نفس) نكرة وفي ذلك إشارة إلى ما في النفس من عظمة تفوق قدرة التصور وإلى ما يحيطها من إبهام، يجعلها موجوداً مجهولاً. والآية التالية تتناول أهم ظاهرة في الخليقة وتقول.

﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ نعم، حين اكتملت خلقة الإنسان وتحقق وجوده، علمه الله سبحانه الواجبات والمحظورات. أصبح بالتالي كائناً يستطيع أنْ يتسلق سلم الكمال الإنساني ليفوق الملائكة، ومن الممكن أنْ ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام ويبلغ مرحلة بل هم أضل، وهذا يرتبط بالمسير الذي يختاره الإنسان عن إرادة.

وبعبارة أخرى إنَّ الله سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل والضمير اليقظ بحيث يستطيع أنْ يميز بين (الفجور) و(التقوى) عن طريق العقل والفطرة، لذلك ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الآية تشير في الحقيقة إلى مسألة (الحسن والقبح العقليين) (١) وقدرة الإنسان على إدراكهما.

---

(١) وهذه من المسائل المهمة جداً والتي تبحث في علم الكلام.

(الفجور) من مادة (فجر) وتعني الشق الواسع وسمي بياض الصبح بالفجر لأنه يشق ستار الظلام. ولما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنها سميت بالفجور، فالمقصود بالفجور في الآية طبعاً الأسباب والعوامل والطرق المؤدية إلى الذنوب.

و(التقوى) من الوقاية وهي الحفظ ، وتعني أنْ يصون الإنسان نفسه من القبائح والآثام والسيئات والذنوب.

ويلزم التأكيد أنَّ الآية الكريمة: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ لا تعني أنَّ الله سبحانه قد أودع عوامل الفجور والتقوى في نفس الإنسان كما تصور بعضهم، واستنتج من ذلك دلالة الآية الكريمة على وجود التضاد في المحتوى الداخلي للإنسان ! بل تعني أنَّ الله تعالى علم الإنسان هاتين الحقيقتين وألهمه إياهما، وبيَّن له طريق السلامة وطريق الشر، ومثل هذا المفهوم ورد في الآية (٣) من سورة الدهر: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

بعد هذه الأقسام المهمة المتتالية يخلص السياق القرآني إلى النتيجة وهو جواب القَسَم فيقول.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾و(الزكاة) في الأصل بمعنى النمو والبركة، ثم استعملت الكلمة بمعنى التطهير، وقد يعود ذلك إلى أنَّ التطهير من الآثام يؤدي إلى النمو والبركة. والمسألة الأساسية في حياة الإنسان هي هذه التزكية، فإنْ حصلت سعدَ الإنسان وإلا شقي وكان من البائسين. ثم يعرج السياق القرآني على المجموعة المخالفة فيقول.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (خاب) من الخيبة، وهي فوت الطلب كما يقول الراغب في المفردات والحرمان والخسران. (دساها) من مادة (دس) وهي في الأصل بمعنى إدخال الشيء قسراً، ومنه (الدسيسة) التي تقال للأعمال الخفية والضارة. فإنَّ هذا التعبير كناية عن الفسق والذنوب، فأهل التقوى والصلاح يظهرون أنفسهم، بينما المذنبون يخفونها، وتزكية النفس وتنميتها تكون بروح التقوى وطاعة الله، أما تلوثها فيكون بأنواع المعاصي والذنوب.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

بعد التحذير الذي أطلقته الآية السابقة بشأن عاقبة من ألقى بنفسه في أوحال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقاً تاريخياً واضحاً لهذه السنة الإلهية، وتحدثت عن مصير قوم (ثمود) (١) بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق. (الطغوى) و(الطغيان) بمعنى واحد وهو تجاوز الحد، وفي الآية تجاوز الحدود الإلهية والعصيان أمام أوامره. ثم تستعرض السورة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول.

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾وأشقى ثمود، هو الذي عقر الناقة التي ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم، وكان قتلها بمثابة إعلان حرب على نبي الله صالح عليه السلام. وروي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: من أشقى الأولين ؟

قال: عاقر الناقة.

قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟

---

(١) قوم (ثمود) من أقدم الأقوام التي سكنت منطقة جبلية بين الحجاز والشام. كانت لهم حياة رغدة مرفهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنهم لم يؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذبوا نبيهم صالحاً، واستهزؤوا بآيات الله، فكان عاقبة أمرهم أنْ أبيدوا بصاعقة سماوية. للتفصيل في قصتهم يراجع

قال: قلتُ لا أعلم يا رسول الله.

قال: الذي يضربك على هذه، وأشار إلى يافوخه. (١)

وعبارة ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه الناقة لم تكن عادي ، بل كانت معجزة، تثبت صدق نبوة صالح، ومن خصائصها – كما في الرواية المشهورة أنها خرجت من قلب صخرة في جبل لتكون حجة على المنكرين.

و (عقر الناقة) قطع أساسها وإهلاكها. وقيل (العقر) بتر أسافل أطراف الناقة، مما يؤدي إلى سقوطها وهلاكها.

ويلاحظ أنَّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشقاها، بينما نسب العقر إلى كل طغاة قوم ثمود (فعقروها ، وهذا يعني أنَّ كل هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة، وذلك:

أولاً: لأنَّ مثل هذه المؤامرات يخطط لها مجموعة ثم ينفذها فرد واحد أو أفراد.

ثانياً: لأنَّ هذه الجريمة تمت برضا القوم فهم شركاء في الجريمة بهذا الرضا. وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضى، فقال سبحانه: فعقروها فأصبحوا نادمين. وعقب هذا التكذيب أنزل الله عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ (دمدم) تعني أهلك ، وتأتي أحياناً بمعنى عذب وعاقب، وأحياناً بمعنى سحق واستأصل، وبمعنى سخط أو أحاط. و (سواها) من التسوية وهي تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحة عظيمة وصاعقة وزلزلة، أو بمعنى إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعا في العقاب والعذاب، حتى لم يسلم أحد منهم. فهو سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، ولذلك فإنَّ مشيئته في العقاب نافذة حازمة. فالطغاة –إذن– عليهم أنْ يتنبهوا ويحذروا غضب الله وسخطه ونقمته.

ارتباط القسم القرآني بجواب القسم

قد يسأل ما الارتباط بين هذه الأقسام الأحد عشر المتتالية في السورة، وبين الحقيقة التي جاءت الأقسام لتأكيدها ؟

وجواب ذلك إذ يظهر أنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أنْ يقول لعباده: إني وفرت لكم كل الوسائل المادية والمعنوية لسعادتكم، فبنور الشمس والقمر أضأت لكم الحياة وباركتها، ونظمت لكم الليل والنهار والحركة والسكون، ومهدت الأرض لحياتكم. من جهة، ومن جهة أخرى خلقت أنفسكم بكل الكفاءات اللازمة، ووهبتكم الضمير اليقظ، وألهمتكم معرفة حسن الأمور وقبحها، فلا ينقصكم شيء إذن لطي طريق السعادة، فلماذا إذن –مع كل هذا– لا تزكون أنفسكم وتستسلمون للدسائس الشيطانية ؟

من مجموع ما ذكرنا نفهم السبب في بدء القسم في هذه السورة المباركة بالشمس، وهكذا القمر ونور النهار وظلام الليل، والكرة الأرضية، حيث أنَّ لكل واحد منها دوراً هاماً في حياة الإنسان وغير الإنسان، ولذلك جاء القسم بها جميعاً، وأهم من كل ذلك الإنسان بروحه وجسمه فهو أعجب من الجميع وأشد غموضاً وسراً منها.

---

(١) وثمة تشابه في الواقع بين قاتل ناقة صالح قدار بن سالف، وقاتل أمير المؤمنين عليه السلام عبد الرحمن بن ملجم المرادي. فلم يكن الاثنان يحملان عداءً شخصياً، بل كان هدف الاثنين إطفاء نور الله والقضاء على معجزةٍ وآيةٍ من آيات الله، وكما أنَّ العذاب الإلهي عَمَّ قوم ثمود بعد حادثة الناقة، كذلك عم المسلمين بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام داهية دهماء تمثلت في التسلط الأموي المتجبّر الذي سام المسلمين سوء العذاب. ويذكر أنَّ الحاكم الحسكاني أورد روايات كثيرة مستفيضة في هذا المجال.

(سورة الليل)

سورة الليل (مكية) وعدد آياتها (إحدى وعشرون) آية.

مباحث السورة:

أولاً / تركز السورة أساساً على القيامة وما في ذلك اليوم من جزاء وعقاب،
ثانياً / القَسم بثلاث ظواهر في بداية السورة ثم تقسيم الناس إلى منفقين متقين، وبخلاء منكرين، وتذكر عاقبة كل مجموعة.
ثالثاً / الإشارة إلى أنَّ الهداية من الله سبحانه لعباده هي إنذارهم من النار يوم القيامة، وبيان مَنْ يدخل هذه النار ومن ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين.

فضل تلاوتها / عن النبي الأكرم ﷺ: من قرأها أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسَّر له اليسر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ ﴾

التفسير

هذه السورة المباركة أيضاً تبتدئ بثلاثة أقسام تثير التفكير في المخلوقات وفي الخالق.

القسم الأول ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ الليل حين يغطي بظلامه نصف الكرة الأرضية، أو يغطي قرص الشمس، وهذا القسم تأكيد على أهمية الليل ودوره الفاعل في حياة الأفراد، من تعديله لحرارة الشمس، ونشره السكينة على كل الموجودات الحية، وتوفير الجو لعبادة المتهجدين ومناجاة الصالحين.

القسم الثاني ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ النهار يبدأ من اللحظة التي يطلع فيها الفجر، فيشق قلب ظلام الليل، ثم يمتد ليملأ كل السماء، ويغمر كل شيء بالنور، وهذا النور هو رمز الحركة والحياة والعامل على نمو كل الموجودات الحية.
في القرآن الكريم تركيز على مسألة نظام (النور) و(الظلمة) ودورهما في حياة البشر، لأنهما من نعم الله الكبرى ومن آياته العظمى سبحانه. ثم القسم الأخير في السورة بالخالق المتعال.

القسم الثالث ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ وجود الجنسين في عالم الإنسان والحيوان والنبات، والمراحل التي تمر بها النطفة منذ انعقادها حتى الولادة، والخصائص التي يمتاز بها كل جنس متناسبة مع دوره ونشاطه، والأسرار العميقة المخبوءة في مفهوم الجنسية، كلها من دلالات وآيات عالم الخليقة الكبير، وبها يمكن الوقوف على عظمة الخالق، وما يحيط بهذه الذات من غموض تجعله سبحانه فوق كل وهم وخيال وظن وقياس.
والحقيقة إنَّ القَسَمَيْنِ الأول والثاني يشيران إلى (الآيات الآفاقية) والقسم الثالث إلى (الآيات الأنفسية) وقد أشار إلى ذلك تعالى بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ ثم يأتي الهدف النهائي من كل هذه الأقسام بقوله سبحانه.

﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾ اتجاهات سعيكم مختلفة، ونتائجها مختلفة أيضاً، هذا يعني أنَّ أفراد البشر لا يستقرون في حياتهم على حال، بل هم في سعي مستمر، وفي استثمار دائم للطاقة التي أودعها الله في نفوسهم. ثم يأتي تقسيم الناس على قسمين، ويبين خصائص كل قسم.

﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ (أعطى) هو الإنفاق في سبيل الله ومساعدة المحتاجين. والتأكيد على (التقوى) عقب الإعطاء قد يشير إلى ضرورة تنزيه النية وإخلاص القصد عند الإنفاق، وإلى الحصول على المال من طريق مشروع، وإنفاقه في طريق مشروع أيضاً، وإلى خلوه من المن والأذى، فكل هذه الصفات تجتمع في عنوان التقوى. والتصديق

بالحسنى هو الإيمان بالإسلام، الذي هو أكمل الأديان .... فسنيسره لليسرى قد تكون إشارة إلى التوفيق الإلهي وإلى تيسير الطاعة لمثل هؤلاء الأفراد، أو فتح طريق الجنة أمامهم وما يقابلونه من استقبال الملائكة وتحيتهم، أو كل ذلك.

فمن المؤكد أنَّ الذين سلكوا طريق الإنفاق والتقوى، واطمئنوا إلى جزاء الله وثوابه في الآخرة، تتذلل أمامهم المشاكل وينعمون في الدنيا والآخرة بالسكينة والاطمئنان.

وفي الجهة المقابلة تقف المجموعة الأخرى التي تتحدث عنها الآيات التالية.

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ ﴾

(من بخل) في هذه المجموعة مقابل (من أعطى) في تلك. وكلمة (استغنى) أي طلب الغنى، فقد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم ووسيلتهم لاكتناز المال، أو قد تكون إشارة إلى ظنهم بأنهم مستغنون عن ثواب الآخرة، عكس الطائفة الأولى المنشدة إلى مثوبة الله، أو قد تكون بمعنى الإحساس بالاستغناء عن طاعة الله وبالتالي التخبط المستمر في الآثام. من بين هذه التفاسير الثلاثة يبدو التفسير الأول أنسب، وإنْ أمكن أيضا الجمع بين الثلاثة. فالمقصود من التكذيب بالحسنى هو إنكار ثواب الآخرة، أو إنكار الدين الإلهي. و(التيسير للعسر) بالنسبة لهذه المجموعة يقابله (التيسير لليسر) للمجموعة الأولى التي يشملها الله بتوفيقه، وييسر لها طريق الطاعة والإنفاق، وبذلك تتذلل أمامها مشاكل الحياة، أما هذه المجموعة فتحرم التوفيق، ويتعسر عليها شق الطريق وتواجه الضنك والنصب في الدنيا والآخرة، ثم يأتي التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ لا يستطيع أنْ يصطحب ماله من هذه الدنيا، ولا يستطيع هذا المال -إذا اصطحبه- أنْ يقيه من السقوط في نار جهنم.

وإنَّ (ما) في الآية قد تكون نافية، وقد تكون للاستفهام الإنكاري، أي ماذا يجديه المال إذا سقط في حفرة القبر أو في هاوية جهنم ؟ ! (تردى) من الردى بمعنى الهلاك، وبمعنى السقوط من مكان مرتفع يؤدي إلى الهلاك.

﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١ ﴾

التفسير

بعد الآيات الكريمة السابقة التي قسمت الناس على مجموعتين: مؤمنة سخية، وعديمة الإيمان بخيلة، وبينت مصير كل منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أنَّ على الله الهداية لا الإجبار والإلزام، ويبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم.

وأنَّ انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه ولا حاجة لله سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ فالهدى يكون عن طريق التكوين (الفطرة والعقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب والسنة)، وإن لنا للآخرة والأولى فلا حاجة بنا لإيمانكم وطاعتكم، ولا طاعتكم تجدينا نفعاً ولا معصيتكم تصيبنا ضراً، وكل منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

ويحتمل أنْ تكون الآيتان لتشجيع المؤمنين الأسخياء، والتأكيد على أنَّ الله سبحانه سيشملهم بمزيد من الهداية، وييسر لهم الطريق في هذه الدنيا وفي الآخرة، فالله قادر على ذلك لأنَّ له الآخرة والأولى، صحيح أنَّ الدنيا مقدمة على الآخرة زمنياً، ولكن الآخرة أهم وهي الهدف النهائي، ولذلك تقدم ذكرها على الدنيا في الآية.

﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴾ (تلظى) من اللظى، وهو الشعلة المتوهجة الخالصة والشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، وتطلق (لظى) أحياناً على جهنم. ثم تشير الآية إلى المجموعة التي ترد هذه النار المتلظية الحارقة وتقول: الأشقى الذي كذب وتولى ..... وأما من ينجو من هذه النار فهو الأتقى.

إذن فالآيات بمجموعها تريد أنْ تبين حال مجموعتين: عديمة الإيمان البخيلة، والمؤمنة السخية التقية، وتذكر أنَّ مصير الأولى جهنم، والثانية الجنة. وصفات المجموعة الثانية يبينها تعالى بقوله.

﴿ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ وعبارة (يتزكى) تشير إلى قصد القربة، وخلوص النية، سواء أريد منها معنى النمو الروحي والمعنوي، أم قصد بها تطهير الأموال، فلا أحد قد أنعم على هذا (الأتقى) ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة، بل هدفه رضا الله لا غير إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى.

(سورة الضحى)

سورة الضحى (مكية) وعدد آياتها (إحدى عشرة) آية.

مباحث السورة / من أهم مباحثها:

أولاً: تبدأ بقَسَمين ثم تبشر النبي ﷺ بأنَّ الله لا يتركه أبداً. ثم تبشره بعطاء رباني تجعله راضياً

ثانياً: ثم تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسد فيها الرحمة الإلهية التي كانت تشمله دائماً وتحميه وتسنده في أشد اللحظات.

ثالثاً: تتكرر فيها الأوامر الإلهية برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النعم الإلهية وشكرها.

فضل تلاوتها / وري عن النبي ﷺ: مَنْ قرأها كان ممن يرضاه الله، ولمحمد أنْ يشفع له، وله عشر حسنات بعدد كل يتيم وسائل. وفضيلة التلاوة هذه هي طبعا من نصيب من يقرأ ويعمل بما يقرأ . جدير بالذكر أنَّ الروايات تذكر هذه السورة والسورة التي تليها (ألم نشرح لك صدرك) على أنها سورة واحدة، ولذلك لابد من قراءتهما معا بعد سورة الحمد في الصلاة (لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد في الصلاة حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام)، ونظير ذلك في سورتي الفيل ولإيلاف قريش.

في سبب نزولها روي عن ابن عباس: احتبس الوحي عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً، فقال المشركون إنَّ محمداً قد وَدَّعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، فنزلت السورة. وروي أنه لما نزلت السورة قال النبي ﷺ لجبرائيل عليه السلام: ما جئتُ حتى اشتقتُ إليك، فقال جبرائيل: وأنا كنتُ أشد إليك شوقاً ولكني عبد مأمور وما نتنزل إلا بأمر ربك. وقيل ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

في بداية السورة المباركة قسمان: الأول بالنور. والثاني بالظلمة.

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾وهو قسم بالنهار حين تغمر شمسه كل مكان. والضحى يعني أوائل النهار، أي حين يرتفع قرص الشمس في كبد السماء، ويعم نورها الأرض ، وهو في الحقيقة أفضل ساعات النهار، لأنه –على حد تعبير بعضهم– شباب النهار، وفيه لا يكون الجو حاراً في فصل الصيف ، ويكون الدف ء قد عم في فصل الشتاء وتصبح خلاله روح الإنسان مستعدة لممارسة النشاط.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾أي إذا عمت سكينته كل مكان. (سجى) من السجو أي سكن وهدأ، وتأتي الكلمة أيضاً بمعنى غطى، وأقبل ظلامه. والميت الملفوف بالكفن (مسجى)، وفي الآية بمعنى سكن وهدأ، والليلة الخالية من الرياح تسمى (ليلة ساجية) أي هادئة، والمهم في الليل هدؤوه وسكينته مما يضفي على روح الإنسان وأعصابه هدوءً وارتياحاً، ويعده لممارسة نشاط يوم غد، وهو لذلك نعمة مهمة استحقت القسم بها.

بين القسمين ومحتوى السورة تشابه كبير وارتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النبي ﷺ، والليل كانقطاع الوحي المؤقت. وبعد القسمين يأتي جواب القسم.

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ قلى من قلا على وزن صدا، وهو شدة البغض، ومن القلو أيضاً بمعنى الرمي. وفي هذا التعبير سَكَنٌ لقلب النبي ﷺ، ليعلم أنَّ التأخير في نزول الوحي إنما يحدث لمصلحة يعلمها الله تعالى، وليست كما يقول الأعداء لترك الله نبيه أو لسخطه عليه. فهو مشمول دائما بلطف الله وعنايته الخاصة، وهو دائما في كنف حماية الله سبحانه.

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أي أنت في هذه الدنيا مشمولٌ بألطاف الله تعالى، وفي الآخرة أكثر وأفضل. وقيل إنَّ الآخرة والأولى يشيران إلى بداية عمر النبي ﷺ ونهايته، أي إنك ستستقبل في عمرك نصراً ونجاحاً أكثر مما استدبرت. وفي ذلك إشارة إلى اتساع رقعة انتشار الإسلام وانتصارات المسلمين المتلاحقة على الأعداء، واندثار آثار الشرك وعبادة الأوثان، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين. وتأتي البشرى للنبي الكريم لتقول له.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾وهذا أعظم إكرام وأسمى احترام من رب العالمين لعبده المصطفى محمد ﷺ فالعطاء الرباني سيغدق عليه حتى يرضى، حتى ينتصر على الأعداء ويعم نور الإسلام الخافقين، كما أنه سيكون في الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهية. والنبي ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء، وقائد البشرية، لا يمكن أنْ يتحقق رضاه في نجاته فحسب، بل إنه سيكون راضياً حين تقبل منه شفاعته في أمته. ومن هنا جاءت الروايات لتؤكد أنَّ هذه الآية أكثر آيات القرآن الكريم دلالة على قبول الشفاعة منه عليه أفضل الصلاة والسلام.

* روي عن النبي ﷺ: إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أهل الكبائر من أمتي فيشفعني الله فيهم، والله لا تشفعت فيمن آذى ذريتي.

* وروي عن الباقر عليه السلام: في قوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك) الشفاعة، والله الشفاعة، والله الشفاعة.

* وفي حديث رواه محمد بن علي عليهما السلام عن عمه محمد الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: أشفعُ لامتي حتى يناديني ربي: أرضيت يا محمد ؟ فأقول: نعم يا رب رضيت. ثم إنَّ أمير المؤمنين التفت إلى جماعة وقال: يا أهل العراق تزعمون أنَّ أرجى آية في كتاب الله عز وجل: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله: ولسوف يعطيك ربك فترضى وهي والله الشفاعة ليعطيها في أهل لا إله إلا الله حتى تقول: رب رضيت.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

ذكرنا أنَّ هدف هذه السورة المباركة تسلية قلب النبي ﷺ وبيان ألطاف الله التي شملته، وهذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنبي ثلاث هبات من الهبات الخاصة التي أنعم الله بها على النبي، ثم تأمره بثلاثة أوامر. فالنعمة الأولى

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾فقد كنت يا محمد في رحم أمك حين توفي والدك فآويتك إلى كنف جدك عبد المطلب (سيد مكة). وكنت في السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكنني زدت حبك في قلب عبد المطلب، وكنت في الثامنة حين رحل جدك عبد المطلب، فسخرت لك عمك أبا طالب، وليحافظ عليك كما يحافظ على روحه. نعم كنت يتيما فآويتك. وقيلت في معنى هذه الآية آراء أخرى .... ثم يأتي ذكر النعمة الثانية

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ نعم لم تكن أيها النبي على علم بالنبوة والرسالة، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدي به الإنسانية، وهذا المعنى ورد في قوله تعالى أيضاً: (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من

عبادنا) واضح أنَّ النبي ﷺ كان فاقداً لهذا الفيض الإلهي قبل وصوله مقام النبوة، فالله سبحانه أخذ بيده وهداه وبلغ به هذا المقام، وإلى هذا تشير الآية (٣) من سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾، من هنا فإنَّ المقصود من الضلالة في كلمة (ضالاً) في الآية ليس نفي الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النبي ﷺ، بل بقرينة الآيات التي أشرنا إليها تعني نفي العلم بأسرار النبوة وبأحكام الإسلام، وتعني عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكد على ذلك كثير من المفسرين. لكنه ﷺ بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأمور بعون الله تعالى. (تأمل بدقة) قال تعالى في الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، عند ذكر الشهادة وسبب استشهاد أكثر من شاهدة واحدة في كتابة عقود الدين: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ والضلالة في هذه الآية تعني النسيان بقرينة قوله فتذكر. وفي الآية تفاسير أخرى....وأما النعمة الثالثة

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ العائل في الأصل كثير العيال، وجاءت أيضاً بمعنى الفقير، وهي في الآية بهذا المعنى، لقد جعلناك تستأثر باهتمام (خديجة) هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كل ثروتها تحت تصرفك ومن أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغانم كثيرة في الحروب ساعدتك في تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى. وعن علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآيات قال: ألم يجدك يتيماً فآوى، قال : فرداً لا مثيل في المخلوقين فآوى الناس إليك. ووجدك ضالاً أي ضالة في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك. ووجدك عائلاً تعول أقواماً بالعلم فأغناهم بك. هذه الرواية تتحدث طبعاً عن بطون الآية، وإلا فإن ظاهرها هو ما ذكرناه.

وفي الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة، والخطاب وإنْ كان متجهاً إلى الرسول ﷺ فإنه يشمل أيضاً كل المسلمين.

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ تقهر من القهر -كما يقول الراغب- الغلبة مع التحقير، ولكن تستعمل في كل واحد من المعنيين، ومعنى التحقير هنا هو المناسب. وهذا يدل على أنَّ هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفي، ولذا جاء في الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ قال: من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرُّ على يده نور يوم القيامة. كأنَّ الله يخاطب نبيه قائلاً: لقد كنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أنْ تهتم بالأيتام كل اهتمام وأنْ تروي روحهم الظمأى بحبك وعطفك.

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (نَهَرَ) بمعنى رد بخشونة، وفي معنى (السائل) عدة تفاسير:

الأول: أنه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية والعقائدية والدينية، والدليل على ذلك هو أنَّ هذا الأمر تفريع مما جاء في الآية السابقة (ووجدك ضالاً فهدى) فشكر هذه الهداية الإلهية يقتضي أنْ تسعى أيها النبي في هداية السائلين، وأنْ لا تطرد أي طالب للهداية عنك.

الثاني: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم رد هذا الفقير السائل يائساً.

الثالث: إنَّ المعنى يشمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين، وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهية لنبيه ﷺ ومع إيوائه حين كان يتيماً.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله إنفاقا يبين مدى هذه النعم .وقد روي عن رسول الله ﷺ: إنَّ الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أنْ يرى أثر النعمة عليه. من هنا يكون معنى الآية: بَيِّن ما أغدق الله عليك من نعمٍ بالقول والعمل، شكراً على ما أغناك الله إذ كنت عائلاً. بعض المفسرين ذهب إلى أنَّ النعمة في الآية هي النعمة المعنوية ومنها النبوة والقرآن، والأمر للنبي بالإبلاغ والتبيين ....

القيادة المنطلقة من المعاناة والآلام

الآيات الكريمة في هذه السورة، ضمن سردها النعم الإلهية على رسول الله ﷺ تعكس أيضاً مسألة يتم النبي في صباه، وظروفه المادية الصعبة التي عاناها، والأتعاب والآلام التي قاساها، ومن بين هذه الآلام انطلق، ويجب أنْ يكون كذلك القائد الإلهي الإنساني، يجب أنْ يذوق مرارة العيش، ويتلمس بنفسه الظروف القاسية، ويشعر بكل وجوده الحرمان، كي يستطيع أنْ يتفهم صحيح ما تعانيه الفئات المحرومة، ويتحسس آلام الناس ومعاناتهم في معيشتهم، يجب أنْ يفقد أباه في صغره كي يشعر بآلام الأطفال الأيتام، ولابد أنْ يبقى جائعاً لأيام وأنْ ينام عاصب البطن كي يفهم بكل وجوده آلام الجياع، لذلك كان ﷺ تغرورق عينه بالدموع حين يرى يتيماً، وكان يظمُّ ذلك اليتيم إلى صدره ويداعبه بكل حرارة. يجب أنْ يتفهم ما يعانيه مجتمعه من فقر ثقافي، كي يعتز بكل من يأتيه لطلب معرفة أو علم، ويستقبله بصدر رحب. ليس النبي الخاتم وحده بل قد يكون كل الأنبياء منطلقين من حياة المعاناة والألم، وهكذا كل القادة الحقيقيين الناجحين كانوا كذلك، ويجب أنْ يكونوا كذلك، فمن كان يرفل في نعومة العيش، وفي الثراء والقصور، وكان ينال كل ما يريد، كيف يستطيع أنْ يدرك آلام المحرومين، وكيف يستطيع أنْ يتفهم معاناة الفقراء والبائسين ليهب لمساعدتهم ؟ !

إكرام اليتيم والاهتمام به

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب في صغرهم، وهؤلاء الأطفال يجب أنْ يتمتعوا بحماية من مختلف الجهات. فمن الناحية العاطفية يشعر هؤلاء بنقص فإذا لم يسد فإنهم سيشبون أفراداً غير سالمين، وكثيراً ما يكونون قساة مجرمين خطرين، ومن الناحية الإنسانية يجب أنْ يعيش هؤلاء في حماية ورعاية كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أنْ يشعر أفراد المجتمع بضمان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتم في يوم من الأيام. والأيتام قد يكونون أصحاب تركة مالية فيجب أنْ تصان بكل دقة، وقد يكونون مُعدمين مالياً فيجب الاهتمام بهم من هذه الناحية، والآخرون يتحملون مسؤولية التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام ورفق كي يزيلوا عنهم غبار عناء الوحدة. لذلك ركزت آيات القرآن الكريم ونصوص الشريعة الأخرى على هذه المسألة ذات البعد الأخلاقي والبعد الاجتماعي والإنساني. وعن رسول الله ﷺ: إنَّ اليتيم إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله لملائكته يا ملائكتي مَنْ أبكى هذا اليتيم الذي غُيِّبَ أبوه في التراب ؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي، فإني أشهدكم أنَّ لمَنْ أسكته وأرضاه أنْ أرضيه يوم القيامة. وأكثر من ذلك ما روي عنه ﷺ: إذا بكى اليتيم وقَعَتْ دموعه في كَفِّ الرحمن. وروي عنه ﷺ: أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة إذا اتقى الله عز وجل، وأشار بالسبابة والوسطى. ولأهمية هذه المسألة قرنها علي أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته المعروفة بالصلاة والقرآن وقال: الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم. وعن أحد الصحابة قال: كنا جلوساً عند رسول الله فأتاه غلام فقال: غلام يتيم وأخت لي يتيمة، وأم لي أرملة، أطعمنا مما أطعمك الله، أعطاك الله مما عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، إذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فقال: سبع لك وسبع لأختك وسبع لأمك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه وقال: جبر الله يتمك وجعلك خلفا من أبيك وكان من أبناء المهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: رأيتك يا معاذ وما صنعت. قال: رحمته. ﷺ: لا يلي أحد منكم يتيماً فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه إلا كتب الله له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكل شعرة سيئة، ورفع له بكل شعرة درجة.

وأما في المجتمعات الكبيرة مثل مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن للمسلمين أنْ يكتفوا طبعاً بالأعمال الفردية، بل لابد أنْ تتمركز القوى لرعاية الأيتام وفق برنامج اقتصادي وثقافي وتعليمي مدروس، كي ينشأ هؤلاء الأيتام أفراداً لائقين للمجتمع الإسلامي، وهذا يتطلب تعاوناً اجتماعياً عاماً.

(سورة الشرح)

سورة الشرح (مكية) وعدد آياتها (ثماني) آيات.

مباحث السورة / المعروف أنَّ هذه السورة نزلت بعد سورة الضحى، ومحتواها يؤيد ذلك، لأنها تسرد أيضاً قسماً من الهبات الإلهية للرسول الأكرم ﷺ. في سورة الضحى عرض لثلاث هبات إلهية بعضها مادية وبعضها معنوية، وفي هذه السورة ذكرٌ لثلاث هبات أيضاً غير أنَّ جميعها معنوية، وتدور السورة بشكل عام حول ثلاثة محاور:

الأول: بيان النعم الثلاث.

الثاني: تبشير النبي ﷺ بزوال العقبات أمام دعوته.

الثالث: الترغيب في عبادة الله الواحد الأحد.

فضل تلاوتها / ورد عن النبي ﷺ: مَنْ قرأها أعطي من الأجر كمن لقي محمداً مغتماً ففرج عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾

التفسير

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وهذه هي الهبة الأولى.

(الشرح) في الأصل كما يقول الراغب: توسعة قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق. و (شرح الصدر) سعته بنور إلهي وبسكينة واطمئنان من عند الله، وشرح الصدر في الآية كناية عن التوسعة في فكر النبي وروحه، ولهذه التوسعة مفهوم واسع، تشمل السعة العلمية للنبي عن طريق الوحي والرسالة، وتشمل أيضاً توسعة قدرة النبي ﷺ في تحمله واستقامته أمام تعنت الأعداء والمعارضين. ولذلك حين أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بدعوة فرعون، قال: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وشرح الصدر يقابله (ضيق الصدر) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ولا يمكن أساساً لقائد كبير أنْ يجابه العقبات دون سعة صدر، ومن كانت رسالته أعظم كرسالة النبي الأكرم ﷺ كانت الضرورة لشرح صدره أكبر، كي لا تزعزعه العواصف ولا تثني عزمه الصعاب ولا تبعث في نفسه اليأس مكائد الأعداء .... ثم يأتي ذكر الموهبة الثانية.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ (الوزر) بمعنى الثقل، ومنها الوزير الذي يحمل أعباء الدولة، وسميت الذنوب وزراً لأنها تثقل كاهل صاحبها، أي ألم نضع عنك الحمل الثقيل الذي انقض ظهرك .... والآية تقول إذن الله سبحانه وضع عنك أيها النبي ذلك الحمل الثقيل القاصم للظهر.

وأي حمل وضعه الله عن نبيه ؟ ذكر المفسرون في ذلك معان عدة نذكر منها:

أولاً: القرائن في الآيات تدل على أنه مشاكل الرسالة والنبوة والدعوة إلى التوحيد وتطهير المجتمع من ألوان الفساد، وليس نبي الإسلام وحده بل كل الأنبياء في بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى، وتغلبوا عليها بالإمداد الإلهي وحده، مع فارق في الظروف، فبيئة الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر ومشاكل.

ثانياً: إنَّ الوزر يعني ثقل الوحي في بداية نزوله.

ثالثاً: إنه عناد المشركين وتعنتهم وأذاهم.

رابعاً: إنه الحزن الذي أَلَمَّ بالنبي ﷺ لوفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة.

خامساً: إنه العصمة وإذهاب الرجس.

والظاهر أنَّ التفسير الأول أنسب من غيره والتفاسير الأخرى تفريع من التفسير الأول.

وفي الموهبة الثالثة يقول سبحانه.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فاسمك مع اسم الإسلام والقرآن قد ملأ الآفاق، وأكثر من ذلك اقترن اسمك باسم الله سبحانه في الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. والشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد الله في الإقرار بالإسلام وقبول الدين الحنيف. وأي فخر أكبر من هذا ؟ وأي منزلة أسمى من هذه المنزلة. وروي عن الرسول ﷺ في تفسير هذه الآية قال: قال لي جبرائيل قال الله عز وجل: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي. (وكفى بذلك منزلة) . والتعبير بكلمة (لك) تأكيد على رفعة ذكر النبي رغم كل عداء المعادين وموانع الصادِّين. (١) والآية التالية تبشر النبي ﷺ بأعظم بشرى وتقول.

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ويأتي التأكيد الآخر ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ لا تغتم أيها النبي، فالمشاكل والعقبات لا تبقى على هذه الحالة، ودسائس الأعداء لن تستمر، وشظف العيش وفقر المسلمين سوف لا يظل على هذا المنوال، ويتمهد طريق التقدم والتكامل ويتذلل طريق الحق. (٢)

وأسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النبي ﷺ وبزمانه، بل بصورة قاعدة عامة مستنبطة مما سبق، وتبشر كل البشرية المؤمنة المخلصة الكادحة، وتقول لها: كل عسر إلى جانبه يسر، ولم ترد في الآية كلمة (بعد) بل (مع) للدلالة على الاقتران.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ أي إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمة أخرى، فلا مجال للبطالة والعطل، كن دائما في سعي مستمر ومجاهدة دائمة، واجعل نهاية أية مهمة بداية لمهمة أخرى.

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ أي فاعتمد على الله في كل الأحوال، اطلب رضاه وَاسْعَ لقربه.

---

(١) ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في (شرح نهج البلاغة) عن الزبير بن بكار وهو رجل –كما يقول ابن أبي الحديد– غير شيعي وغير خصم لمعاوية، بل فارق علياً والتحق بمعارضيه– والزبير هنا يروي عن ابن المغيرة بن شعبة يقول: دخلتُ مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظر ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة ؟ فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك ؟ قال: قلت له (لمعاوية) وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنايا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنَّ ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات ! أي ذكر أرجو بقاءه ! ملك أخو تيم (أبو بكر) فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أنْ هلك حتى هلك ذكره، إلا أنْ يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أنْ هلك حتى هلك ذكره، إلا أنْ يقول قائل: عمر ، وإنَّ ابن أبي كبشة (رسول الله ﷺ) ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أنَّ محمداً رسول الله ، فأي عمل يبقى، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك ! لا والله دفناً دفناً . لو أمعنا النظر في هذه الرواية لعلمنا مدى المأساة التي حلت بالمسلمين حتى تولى أمرهم البيت الأموي ! فهذه هي إحدى آثار الابتعاد عن طاعة الله ورسوله والتي كان لبعض الصحابة مواقف قد مهدت لأنْ يتسلط أمثال هؤلاء على المسلمين ابتداءً من رزية يوم الخميس مروراً بسقيفة بني ساعدة ويوم عاشوراء وغيرها من المصائب التي تصب على المسلمين في شرق الأرض وغربها!

(٢) مما ذكرنا يتضح أنَّ الألف واللام في (العسر) للجنس لا للعهد ، و(يسرا) وردت نكرة، لكنها تعني الجنس أيضاً، وتنكيرها في مثل هذه المواضع للتعظيم.

الآيتان –حسب ما ذكرناه– لهما مفهوم واسع عام يقضي بالبدء بمهمة جديدة بعد الفراغ من كل مهمة، وبالتوجه نحو الله في كل المساعي والجهود، لكن أغلب المفسرين ذكروا معاني محددة لهما يمكن أنْ يكون كل واحد منها مصداقاً للآيتين. قال جمع منهم: المقصود إنك إذا فرغت من فريضة الصلاة فادع الله واطلب منه ما تريد.... وإنها تعني كما جاء في روايات عديدة نصب أمير المؤمنين علي عليه السلام بالخلافة بعد الانتهاء من أمر الرسالة كمصداق من المفهوم العام للآية .....

الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) بعد أنْ ينقل عن بعض الإمامية هذا التفسير يقول: هؤلاء قرؤوا (فَانْصب) بكسر الصاد. وهب أنَّ قراءتها كذلك فلا تنهض أنْ تكون دليلاً على نصب علي بن أبي طالب. ثم ينقل عن الزمخشري في الكشاف قوله: لو أمكن للشيعة مثل هذا التفسير، فالنواصب (أعداء علي) يمكنهم أنْ يفسروا الآية على أنها أمر بالنصب (ببغض علي).

وللإجابة على هؤلاء ترى هل أنَّ الشيعة بحاجة إلى تغيير قراءة الآية كي يستدلوا بها على ولاية علي ؟ !

لا طبعاً، بل هذه القراءة المعروفة تكفي للتفسير المذكور، لأنها تقول: إذا فرغت من مهمة مثل مهمة الرسالة فابدأ بمهمة أخرى كمهمة الولاية، وهذا مقبول باعتباره أحد المصاديق، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم –حسب حديث الغدير المعروف وأحاديث أخرى منتشرة في الصحاح والمسانيد– كان في سعي مستمر هي هذا المجال. ولكن المؤسف جداً أنْ يدفع التعصب برجل عالم مثل "الزمخشري" لأنْ يجيز لنفسه القول أنَّ النواصب يمكنهم أنْ يفسروا الآية أيضاً على أنها أمر ببغض علي ! !

أي تعبير ركيك هذا في حق شخص يؤمن به الزمخشري على أنه الخليفة الرابع للمسلمين ! حقا إن مزالق التعصب سيئة ! (١)

(١) نود نقل كلام الزمخشري بنصه كما في في مج /٤ دار إحياء التراث العربي بيروت قوله: (ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة أنه قرأ "فانصب" بكسر الصاد، أي فانصب علياً للإمامة، ولو صحَّ هذا للرافضي لصحَّ للناصبي أنْ يقرأ هكذا ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي وعداوته). فليتأمل في هذه الألفاظ!

(سورة التين)

سورة التين (مكية) وعدد آياتها (ثماني) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة تدور آياتها حول:

أولاً: وتبدأ بقَسَمٍ عميق المعنى.

ثانياً: حسن خلقة الإنسان ومراحل تكامله ونموه وانحطاطه.

ثالثاً: تذكر عوامل انتصار الإنسان ونجاته.

رابعاً: تنتهي بالتأكيد على مسألة المعاد وحاكمية الله المطلقة.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: من قرأها أعطاه الله خصلتين: العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة صيام يوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير

تبدأ السورة بالقسم أربع مرات لبيان أمر مهم: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ثمرتان معروفتان، واختلف المفسرون في المقصود بالتين وبالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شيء آخر.

بعضهم ذهب إلى أنهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية وعلاجية كبيرة.

وبعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان في مدينتي (دمشق) و(بيت المقدس) لأنَّ المكانين منبثق كثير من الرسل والأنبياء، وبذلك ينسجم هذان القسمان مع ما يليهما من قسمين بأراض مقدسة.

وقال آخرون: إنَّ تسمية الجبلين بالتين والزيتون يعود إلى وجود أشجار التين على أحدهما والزيتون على الآخر. إلى غيرها من الأقوال الأخرى

ظاهر الآية يدل على أنَّ المقصود هو الفاكهتان المعروفتان، ولكن القَسَمَين التاليين يجعلان تفسير التين والزيتون بالجبلين أو المركزين المقدسين أنسب.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قيل هو طور سيناء، وهو الجبل المعروف في صحراء سيناء حيث أشجار الزيتون المثمرة، وحيث ذهب موسى لمناجاة ربه، وسيناء تعني المبارك، أو كثير الأشجار، أو الجميل. وقيل إنه جبل قرب الكوفة في أرض النجف. وقيل إنَّ سينين وسيناء بمعنى واحد وهو كثير البركة.

﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ والبلد الأمين مكة، الأرض التي كانت في عصر الجاهلية أيضاً بلداً آمناً وحرماً إلهياً، ولا يحق لأحد فيها أنْ يتعرض لأحد، هذه الأرض لها في الإسلام أهمية عظمي، فالحيوانات والنباتات والطيور فيها آمنة فما بالك بالإنسان .... ثم يأتي جواب القسم.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (تقويم) يعني تسوية الشيء بصورة مناسبة، ونظام معتدل وكيفية لائقة، وسعة مفهوم الآية يشير إلى أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كل الجهات، الجسمية والروحية والعقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، وهذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات يهبط حين ينحرف عن مسيرة الله إلى أسفل سافلين.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (ممنون) من المَنِّ وتعني هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع ولا منقوص، وقيل: إنه خال من المنة، لكن المعنى الأول أنسب. والآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربه والمعرض عن دلائل المعاد وتقول له.

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ إنَّ الدنيا كلها مقدمات لعالم أوسع وأكمل، وبالتعبير القرآني هذه النشأة الأولى تنبئ عن النشأة الأخرى، فلم لا يتذكر الإنسان ؟ ! قال تعالى: (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) عالم النبات كل عام يجسد مشهد الموت والبعث أمام عين الإنسان، وتطور الجنين خلقاً بعد خلق، إنما هو في كل خلق معاد وحياة جديدة، فكيف مع كل هذا ينكر يوم الجزاء ؟ ! واتضح أيضاً أنَّ المقصود من الدين ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، والآية التالية تؤيد ذلك.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ هذا سؤال يستهدف حث الإنسان على الاعتراف بأنه سبحانه أحكم الحاكمين في صنائعه وأفعاله، فكيف يترك هذه الخلائق فلا يجازيهم. وروي عن الرسول ﷺ أنه حين كان يقرأ سورة التين، ويتلو قوله سبحانه: أليس الله بأحكم الحاكمين يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

(سورة العلق)

سورة العلق (مكية) وعدد آياتها (تسع عشرة) آية.

مباحث السورة / المشهور بين المفسرين أنها أول ما نزل من القرآن، ومحتواها يؤيد ذلك أيضاً. ومن مباحثها:

أولاً: هذه السورة تبدأ بأنْ تأمر النبي ﷺ بالقراءة.

ثانياً: تتحدث عن خلقة الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهة، وفي المرحلة التالية تتحدث السورة عن تكامل الإنسان في ظل لطف الله وكرمه، وعن تعليمه وتمكينه من القلم.

ثالثاً: تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كل ما توفرت له من هبات إلهية وإكرام رباني.

رابعاً: تشير بعد ذلك إلى ما ينتظر أولئك الصادِّين عن طريق الهداية والمانعين لأعمال الخير من عقاب.

فضل تلاوتها / روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: " من قرأ في يومه أو ليلته إقرأ باسم ربك ثم مات في يومه أو ليلته مات شهيداً وبعثه الله شهيداً، وأحياه كمن ضرب بسيفه في سبيل الله مع رسول الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ الآية الأولى فيها خطاب للنبي ﷺ، ويلاحظ هنا قبل كل شيء التركيز على مسألة الربوبية، ونعلم أنَّ (الرب) يعني المالك المصلح، أي الشخص الذي يملك شيئاً، ويتعهد إصلاحه وتربيته أيضاً. ولإثبات ربوبية الله جاء ذكر الخلقة وخلقة الكون، إذ إنَّ أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذي يدبر العالم هو خالقه. وهذا في الحقيقة رد على مشركي العرب الذين قبلوا خالقية الله، وأوكلوا الربوبية والتدبير إلى الأوثان، ثم إنَّ ربوبية الله وتدبيره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسة.

والآيات التي بعدها واضحة الإشارة إلى العلم والتعلم والحث على ذلك بما يؤكد عظمة الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى العلم وما له من دور كبير في تقدُّم الأمم ورقيِّها.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

استتباعاً للآيات السابقة التي تحدثت عن النعم المادية والمعنوية الإلهية على الإنسان. وبالتالي فإنَّ النعم تستلزم شكر الإنسان وتسليمه أمام الله، ولكن هذه الآيات تبين ما هو عكس ذلك من الكفر والطغيان من الإنسان.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ ومتى يكون ذلك ؟ فيما لو رأى نفسه مستغنياً وغير محتاج.

﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ هذه طبيعة أغلب أفراد البشر، الأفراد الذين لم يتربوا في مدرسة العقل والوحي، حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، وينسلخون من عبودية الله، ويرفضون الاعتراف بأحكامه، ويصمون آذانهم عن ندائه، ولا يراعون حقاً ولا عدلاً. قيل: إنَّ المقصود بالإنسان في الآية "أبو جهل" الذي كان يطغى أمام الدعوة، لكن مفهوم الإنسان هنا عام، وأمثال أبي جهل مصاديق له. يبدو أنَّ الهدف من الآية إلفات نظر الرسول ﷺ بمنعطفات الطبيعة البشرية كي لا يتوقع قولاً سريعاً من الناس لدعوته، وليعد نفسه لإنكار المنكرين ومعارضة الطغاة المستكبرين، وليعلم أن الطريق أمامه وعر مليء بالمصاعب. ثم يأتي التهديد لهؤلاء الطغاة المستكبرين وتقول الآية التالية.

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ وهو الذي يعاقب الطغاة على ما اقترفوه، وكما إن رجوع كل شئ إليه، ولا مبرر للإنسان أنْ يشعر بالاستغناء ويطغى. ثم تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاة المغرورين، مثل صدهم عباد الله عن السير في طريق الحق.

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ ؟ ! في الحديث أنَّ أبا جهل قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم (أي هل يسجد محمد بينكم) قالوا: نعم، قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلي، فانطلق ليطأ على رقبته، فما فاجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه. فقالوا: مالك يا أبا الحكم ؟ ! قال: إنَّ بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحةً. وقال نبي الله: والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضوا. فأنزل الله سبحانه: أرأيت الذي ينهى إلى آخر السورة. حسب هذه الرواية الآيات التي نحن بصددها لم تنزل في بداية البعثة، بل نزلت حين أعلنت الدعوة، ولذلك قيل إنَّ الآيات الخمس الأولى هي التي كانت أول ما نزل من الوحي والباقي بعد ذلك بمدة. والآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾

بعد الحديث في الآيات السابقة عن الطغاة الكافرين الصادين عن سبيل الله، توجه هذه الآيات أشد التهديد لهم وتقول: كلا لا يكون ما يتصور (لأنه تصور أنْ يصد عن عبادة الله بوضعه قدمه على رقبة النبي).

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ نعم، إذا لم ينته من إثمه وطغيانه سنجره بالقوة من شعر مقدمة رأسه (وهي الناصية) ، وثم وصف الناصية هذه بأنها كاذبة خاطئة وهو وصف لصاحبها ناصية كاذبة خاطئة.

(لَنَسْفَعًۢا) من السفع، وذكر له المفسرون معاني متعددة: الجر بالشدة، الصفع على الوجه، تسويد الوجه، ووضع العلامة والإذلال والأنسب المعنى الأول. وهل حدوث هذا السفع بالناصية في يوم القيامة، حيث يسحب أبو جهل وأمثاله من مقدمة شعر الرأس إلى جهنم، أم في الدنيا، أم في كليهما ؟

لا يستبعد أنْ يكون في كليهما، (الناصية) شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصية) يراد به الإذلال والإرغام، لأنَّ أخذ الشخص بناصيته يفقده كل حركة ويجبره على الاستسلام. (الناصية) تستعمل لمقدمة رأس الأفراد، ووصف الناصية بأنها.

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعني أنَّ صاحبها كاذب في أقواله وخاطئ في أعماله، كما كان أبو جهل. ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأنَّ السورة –عدا المقطع الأول منها– قد نزلت في أبي جهل إذ مر برسول الله ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: (يا محمد ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله وانتهره . . .) ولعلها هي التي أخذ فيها رسول الله بخناقه وقال له: أولى لك ثم أولى. فقال: يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله وإني لأكثر هذا الوادي نادياً. وهنا نزلت الآية التالية تقول لأبي جهل. ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه وعشيرته وليستنجد بهم. و(النادي) في الآية يقصد به القوم الذين يجتمعون في النادي. وأرادت منه الآية أولئك الذين يستند إليهم أمثال أبي جهل من أهل وعشيرته وأصحاب ونحن سندع أيضاً زبانية جهنم.

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ ليعلم هذا الجاهل الغافل أنه عاجز عن فعل أي شيء وإنه ‹ صفحة ٣٣٦ › في قبضة خزنة جهنم كقشة في مهب الريح، و(الزبانية) جمع زبنية، وهو في الأصل بمعنى الشرطة من مادة (زبن) –على زنة متن– وهو الدفع والردع والإبعاد. وهنا بمعنى ملائكة العذاب وخزنة جهنم. وفي آخر آية من السورة وهي آية السجدة يقول سبحانه.

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ كلا أي ليس الأمر كما يتصور بأنه قادر على أنْ يمنع سجودك : لا تطعه واسجد واقترب فأبو جهل أقل من أنْ يستطيع منع سجودك أو الوقوف بوجه دينك، فتوكل على الله وأعبده واسجد له، وبذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر. ويستفاد ضمنياً من هذه الآية أنَّ السجود عامل اقتراب من الله، ولذا ورد في الحديث: أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً.

وفي روايات أهل البيت عليهم السلام أنَّ القرآن يتضمن أربعة مواضع فيها سجود واجب وهي في (ألم السجدة) و (فصلت) و (النجم) و(العلق) وبقية المواضع السجدة فيها مستحبة.

ولهذ السجود الواجب أحكام عدة منها:

- ليس في هذا السجود تكبيرة افتتاح، ولا تشهد ولا تسليم .....
- لا يشترط فيه الطهارة من الحدث ولا الخبث ولا الاستقبال ولا طهارة محل السجود ....
- الأحوط وجوباً فيه السجود على الأعضاء السبعة ووضع الجبهة على الأرض ....
- لا بد فيه من النية وإباحة المكان ....
- يستحب فيه الذكر الواجب في الصلاة، ويتكرر السجود تكرر السبب .... (١)

(١) منهاج الصالحين / السيد الخوئي.

(سورة القدر)

سورة القدر (مكية) وعدد آياتها (خمس) آيات.

مباحث السورة / محتوى السورة كما هو واضح من اسمها بيان نزول القرآن الكريم في ليلة القدر، وبيان أهمية هذه الليلة وبركاتها. وروي أنَّ النبي ﷺ رأى في منامه بني أمية يتسلقون منبره، فصعب ذلك على النبي وآلمه، فنزلت سورة القدر تسليه (لذلك قيل إنّ ألف شهر في السورة هي مدة حكم بني أمية).

فضل تلاوتها / ويكفي في فضيلة السورة تلاوتها ما روي عن النبي ﷺ: من قرأها أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيى ليلة القدر. وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: من قرأ إنا أنزلناه بجهر كان كشاهر سيفه في سبيل الله، ومن قرأها سراً كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله. وواضح إنَّ كل هذه الفضائل في التلاوة لا تعود على من يقرأها دون أنْ يدرك حقيقتها، بل إنها نصيب من يقرأها ويفهمها ويعمل بها، ومن يقدِّر القرآن حق قدره ويطبق آياته في حياته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

يستفاد من آيات الذكر الحكيم أنَّ القرآن نزل في شهر رمضان. قال تعالى: (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن)، وظاهر الآية يدل على أنَّ كل القرآن نزل في هذا الشهر.

وهنا يطرح سؤال له طابع تاريخي وله ارتباط بما رافق أحداث حياة النبي ﷺ من نزول القرآن.

من المؤكد أنَّ القرآن الكريم نزل تدريجياً خلال (٢٣) عاماً. فكيف نوفِّق بين هذا النزول التدريجي وما جاء في الآيات السابقة بشأن نزول القرآن في شهر رمضان وفي ليلة القدر ؟

الجواب على هذا السؤال كما ذكره المحققون يتلخص في أنَّ للقرآن نزولين:

الأول/ النزول الدفعي، وهو نزول القرآن بأجمعه على قلب النبي ﷺ أو على البيت المعمور، أو من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

الثاني/ النزول التدريجي، وهو ما تم خلال (٢٣) سنة من عصر النبوة.

ويُذكر أنَّ تعبير الآيات عن نزول القرآن يكون مرة بكلمة (إنزال) ومرة أخرى بكلمة (تنزيل). ويستفاد من كتب اللغة أنَّ التنزيل للنزول التدريجي، والإنزال له مفهوم واسع يشمل النزول الدفعي أيضاً. وهذا التفاوت في التعبير القرآني قد يكون إشارة إلى النزولين المذكورين. في الآيتين التاليتين يبين الله تعالى عظمة ليلة القدر ويقول سبحانه.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ والتعبير هذا يوضّح عظمة ليلة القدر، وألف شهر تعني أكثر من ثمانين عاماً، وهل العدد (ألف) في الآية للعد أو التكثير ؟

قيل إنه للتكثير، وقيمة ليلة القدر خير من آلاف الأشهر أيضاً، ولكن الروايات تبين أنَّ العدد المذكور للعد، والعدد عادة للعد إلا إذا توفرت قرينة واضحة تصرفه إلى التكثير. ولمزيد من وصف هذه الليلة تقول الآية التالية.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ و(تنزل) فعل مضارع يدل على الاستمرار، والأصل (تتنزل) مما يدل على أنَّ ليلة القدر لم تكن خاصة بزمن النبي الأكرم ﷺ وبنزول القرآن، بل هي ليلة تتكرر في كل عام باستمرار.

وما المقصود بـ (الروح) ؟

أولاً: إنه جبرائيل الأمين، ويسمى أيضاً الروح الأمين.

ثانياً: إنَّ الروح بمعنى الوحي بقرينة قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

ثالثاً: إنَّ الروح مخلوق عظيم يفوق الملائكة. وروي أنَّ الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الروح وهل هو جبرائيل، قال: جبرائيل من الملائكة، والروح أعظم من الملائكة، أليس أنَّ الله عز وجل يقول: تنزل الملائكة والروح. فالاثنان متفاوتان بقرينة المقابلة.

وذكرت تفاسير أخرى للروح هنا نعرض عنها لافتقادها الدليل.

(من كل أمر) أي لكل تقدير وتعيين للمصائر، ولكل خير وبركة. فالهدف من نزول الملائكة في هذه الليلة إذن هو لهذه الأمور. فالملائكة تنزل في ليلة القدر ومعها كل هذه الأمور. وعبارة (ربهم) تركز على معنى الربوبية وتدبير العالم، وتتناسب مع عمل الملائكة في تلك الليلة حيث تنزل لتدبير الأمور وتقديرها، وبذلك يكون عملها جزء من ربوبية الخالق.

﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ والآية الأخيرة هذه تصف الليلة بأنها مفعمة بالخير والسلامة والرحمة حتى الصباح. فهي إذن ليلة مفعمة بالسلامة من بدايتها حتى مطلع فجرها. وإطلاق كلمة (سلام) على هذه الليلة بمعنى (سلامة) (بدلا من سالمة) هو نوع من التأكيد كأن نقول فلان عدل، للتأكيد على أنه عادل.

ما هي الأمور التي تُقَدَّر في ليلة القدر ؟

ورد أنه في سبب تسمية هذه الليلة بليلة القدر قيل الكثير، من ذلك:

١ – لأنها الليلة التي تُعين فيها مقدرات العباد لسنة كاملة، يشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ هذه الآية الكريمة تنسجم مع ما جاء من الروايات تقول: في هذه الليلة تعين مقدرات الناس لسنة كاملة، وهكذا أرزاقهم، ونهاية أعمارهم، وأمور أخرى تفرق وتبين في تلك الليلة المباركة. وهذه المسألة طبعاً لا تتنافى مع حرية إرادة الإنسان ومسألة الاختيار، لأنَّ التقدير الإلهي عن طريق الملائكة إنما يتم حسب لياقة الأفراد وميزان إيمانهم وتقواهم وطهر نيتهم وأعمالهم. أي يقدر كل فرد ما يليق له.

٢ – وقال بعض إنها سميت بالقدر لما لها من قدر عظيم وشرف كبير، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾

٣ – وقيل لأنَّ القرآن بكل قدره ومنزلته نزل على رسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة الملك العظيم في هذه الليلة.

٤ – إنها الليلة التي قدر فيها نزول القرآن.

٥ – إنها الليلة التي من أحياها نال قدراً ومنزلة.

٦ – إنها الليلة التي تنزل فيها الملائكة حتى تضيق بهم الأرض لكثرتهم. لأنَّ القدر جاء بمعنى الضيق أيضاً كقوله تعالى: (ومن قدر عليه رزقه)

وغيرها من الأقوال وكل هذه التفاسير يستوعبها المفهوم الواسع لليلة القدر مع أنَّ التفسير الأول أنسب وأشهر.

أيَّةُ ليلة هي ليلة القدر ؟

لا شك أنَّ ليلة القدر من ليالي شهر رمضان، لأن الجمع بين آيات القرآن يقتضي ذلك. فالقرآن نزل في شهر رمضان من جهة، ومن جهة أخرى تقول آيات السورة التي نحن بصددها أنه نزل في ليلة القدر. ولكن آية ليلة من شهر رمضان ؟

قيل في ذلك كثير، وذكرت تفاسير عديدة من ذلك:

أنها أول ليلة من شهر رمضان المبارك، الليلة السابعة عشرة، الليلة التاسعة عشرة، الليلة الحادية والعشرون، الليلة الثالثة والعشرون، الليلة السابعة والعشرون، والليلة التاسعة والعشرون.

والمشهور في الروايات أنها في العشر الأخيرة من شهر رمضان، وفي الليلتين الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين. لذلك ورد في الروايات أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحيي كل الليالي العشر الأخيرة من الشهر المبارك بالعبادة. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنها الليلة الحادية والعشرون أو الثالثة والعشرون. وعندما أصرَّ عليه أحدهم في تعيين واحدة بين الليلتين لم يزد الإمام على أنْ

يقول: ما أيسر ليلتين فيما تطلب ! ! وثمة روايات متعددة عن أهل البيت عليهم السلام تركز على الليلة الثالثة والعشرين. بينما روايات العامة تركز على الليلة السابعة والعشرين. فليلة القدر إذن محاطة بهالة من الإبهام سنذكر سببه فيما يلي.

لماذا خفيت ليلة القدر ؟

الاعتقاد السائد أنَّ اختفاء ليلة القدر بين ليالي السنة، أو بين ليالي شهر رمضان المبارك يعود إلى توجيه الناس إلى الاهتمام بجميع هذه الليالي، مثلما أخفى رضاه بين أنواع الطاعات كي يتجه الناس إلى جميع الطاعات، وأخفى غضبه بين المعاصي كي يتجنب العباد جميعها، وأخفى أحباءه بين الناس كي يحترم كل الناس، وأخفى الإجابة بين الأدعية لتقرأ كل الأدعية، وأخفى الاسم الأعظم بين أسمائه كي تعظم كل أسمائه، وأخفى وقت الموت كي يكون الناس دائما على استعداد. ويبدو أنَّ هذا دليل مقبول.

نزول القرآن الكريم

إنَّ الحديث عن نزول القرآن في هذا الشهر وكيفية نزوله وهل كان دفعة واحدة أو تدريجياً أو أنه ابتدأ بنزوله في شهر رمضان إلى غير ذلك حديث أطال العلماء القول فيه، حيث أشارت بعض الآيات المباركة أنه نزل في شهر رمضان كما ورد، وآية أخرى ذكرت أنه نزل في ليلة مباركة ﴿إنّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وآية أخرى أنه أنزل في ليلة القدر ﴿إنّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ﴾، فإنَّ هذا سيؤدي بنا إلى القول: هل هذا يعني أنَّ هناك تعدد لنزول القرآن، إضافة إلى ذلك أنه وردت في القرآن آيات تشير إلى نزوله بلفظ (النزول) الدال على الهبوط من العلو جملة واحدة من دون ملاحظة التفرق والتدريج ﴿إنّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ﴾، وقسم آخر ورد فيه لفظ (التنزيل) الدال على الهبوط من العلو مع التفرق والتدرج ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّا نَحْنُ نزَّلنَاهُ تَنْزِيلاً﴾، وللجمع بين تلك الآيات هنالك وجوه ثلاث يتعرض إلى ذكرها السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري رحمه الله في تفسيره (مواهب الرحمن):

الوجه الأول: إنه أنزل جملة في شهر رمضان إلى البيت المعمور في السماء الدنيا ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متفرقاً ليقرأه على الناس في مجموع مدة الدعوة .... وأشكل عليه بأنَّ نزوله إلى السماء الدنيا لم يكن فيه أي منَّةٌ علينا ولا معنى لاتصافه بالهداية والفرقان وبقائه في السماء الدنيا مدة سنين .... وأجيب عنه .....

الوجه الثاني: إنَّ المراد بنزول القرآن في شهر رمضان هو ابتداء نزوله فيه ثم أنزل بعد ذلك متفرّقاً في أوقات مختلفة، والقرآن كما يطلق على المجموع يطلق على البعض أيضاً.

ويرد عليه: أنه مخالف لظاهر الآيات المباركة الدالة على نزول القرآن بأجمعه في شهر رمضان وفي الليلة المباركة منه كما مر، مضافاً أنَّ بعثة الرسول صلى الله عليه وآله كانت في غير شهر رمضان، ومن المستبعد جداً أنْ لا ينزل في أول البعثة شيء من القرآن الكريم وتخلو مدة منه، مع أنَّ المشهور أنَّ أول سورة نزلت مصاحبة للبعثة إما سورة العلق أو سورة المدثر، وفيهما شواهد على أنها نزلتا حين البعثة وأمر الرسول بالرسالة.

الوجه الثالث: إنَّ المراد بنزول القرآن في ليلة القدر هو نزول سورة من سوره المشتملة على جلِّ معارف القرآن كسورة الحمد، فكأنَّ نزولها في ليلة القدر من شهر رمضان هو نزول القرآن بأجمعه، ويصح أنْ يقال نزل القرآن جملة وبذلك يمكن الجمع بين نزول القرآن في أول بعثته صلى الله عليه وآله ونزول القرآن في الليلة المباركة من شهر رمضان.

وغير ذلك من وجوه الأخرى .....

(سورة البينة)

سورة البينة (مدنية) وعدد آياتها (ثماني) آيات.

مباحث السورة /

أولاً / تتحدث في مواضع متعددة عن أهل الكتاب، وكيفية مواجهة المسلمين لهم.

ثانياً / تحدثت السورة عن الصلاة والزكاة وأهدافهما.

ثالثاً / تناولت رسالة النبي ﷺ وما فيها من دلائل بينة على أنَّ هذه الرسالة التي كان أهل الكتاب ينتظرونها، ولكن حين ظهرت أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصية.

فضل تلاوتها / روي عن النبي ﷺ: لو يعلم الناس ما في (لم يكن) لعطلوا الأهل والمال وتعلموها . فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ فقال: لا يقرأها منافق أبداً ولا عبدٌ في قلبه شك في الله عز وجل، والله إنَّ الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق الله السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها، وما من عبد يقرؤها بليلٍ إلا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإنْ قرأها نهاراً أعطي عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ في بداية السورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشركي العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدعون أنهم غير منفكين عن دينهم إلا بدليل واضح قاطع. والبينة التي أرادوها رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهراً من رب العالمين، وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة. كان هذا ادعاؤهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياته تغير هؤلاء واختلفوا وتفرقوا. وما تفرقوا إلا بعد أنْ جاءهم الدليل الواضح والنبي الصادح بالحق . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة. والبينة في الآية هي الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثانية شخص رسول الله ﷺ وهو يتلو عليهم القرآن. و(المطهرة) أي طاهرة من كل ألوان الشرك والكذب والباطل، ومن تلاعب شياطين الجن والإنس. ثم يتوالى التقريع لأهل الكتاب ومن بعدهم للمشركين، لأنهم اختلفوا في الدين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر.

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

قيل: في معنى (وما أمروا) أنَّ المقصود هو إنَّ التوحيد والصلاة والزكاة من المسائل الثابتة في دين أهل الكتاب، لكنهم لم يبقوا أوفياء لهذه التعاليم.

وقيل: المقصود هو إنَّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أمور معروفة فلماذا يعرضون عنها ؟

يبدو أنَّ المعنى الثاني أقرب. لأنَّ الآية السابقة تتحدث عن الاختلاف في قبول الدين الجديد، والمناسب هنا أنْ يكون المراد في هو الدين الجديد أيضاً. و (حنفاء) جمع حنيف، من الفعل الثلاثي حَنَفَ، أي عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم، ويبدو أنَّ الكلمة كانت في الأصل تستعمل للانحراف والاعوجاج، والنصوص الإسلامية استعملتها بمعنى الانحراف عن الشرك إلى التوحيد والهداية. جملة (وذلك دين القيمة) إشارة إلى أنَّ الأصول المذكورة في الآية وهي: التوحيد الخالص، والصلاة (الارتباط بالله) والزكاة (الارتباط بالناس) من الأصول الثابتة الخالدة في جميع الأديان، بل إنها قائمة في أعماق فطرة الإنسان. ذلك لأنَّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثم إنَّ الروح الاجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

هذه الآيات تذكر مجموعتين من الناس مختلفتين في موقفهما من الدعوة كافرة ومؤمنة تذكر الكافرين أولاً بالقول لكفرهم بالدين المبين، وإلا فإنَّ كفرهم ليس بجديد. وعبارة (أولئك هم شر البرية) عبارة قارعة مثيرة ، تعني أنه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضل وأسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق وإتمام الحجة، وساروا في طريق الضلال.

الآية التالية تذكر المجموعة الثانية، وهم المؤمنون وتذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من مثوبة. ويلاحظ أنَّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة الإيمان. وفي ذلك إشارة إلى أنَّ ادعاء الإيمان وحده لا يكفي، بل لابد أنْ تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكن الكفر وحده وإنْ لم يقترن بالأعمال السيئة مبعث السقوط والشقاء. وعبارة (أولئك هم خير البرية) تبين بجلاء أنَّ الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء والآيات الأخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه (ولقد كرمنا بني آدم) فهذه الآية تحدثت عن الجزاء المادي الذي ينتظر المؤمنين، وعن الجزاء المعنوي الروحي لهم، وهو رضا الله عنهم ورضاهم عنه. إنهم راضون عن الله لأنَّ الله أعطاهم ما أرادوه، والله راضٍ عنهم لأنهم أدوا ما أراده منهم، وأية لذة أعظم من أنْ يشعر الإنسان أنه نال رضا المحبوب ووصاله ولقائه. وجملة (ذلك لمن خشي ربه) تدل على أنَّ كل هذه البركات تنطلق من (خشية الله) لأنَّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كل طاعة وتقوى وعمل صالح.

أمير المؤمنين علي عليه السلام وشيعته خير البرية

هناك روايات كثيرة بطرق العامة في مصادرهم الحديثية المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعية فسرت الآية: أولئك هم خير البرية بأنهم علي وشيعته.

فالحاكم الحسكاني النيسابوري عالم العامة المعروف في القرن الخامس الهجري نقل هذه الروايات في كتابه المشهور (شواهد التنزيل) بطرق مختلفة، ويزيد عدد هذه الروايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

١ – عن ابن عباس قال: عندما نزلت آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ قال رسول الله لعلي: هو أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضباناً مقحمين.

٢ – عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا جالسين عند النبي جوار الكعبة، فأقدم علينا علي، وحين رآه النبي قال: قد أتاكم أخي، ثم التفت إلى الكعبة، وقال: ورب هذه البينة ! إنَّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة. ثم التفت إلينا وقال: أما والله إنه أولكم إيماناً بالله، وأقومكم بأمر الله، وأوفاكم بعهد الله، وأقضاكم بحكم الله، وأقسمكم بالسوية، وأعدلكم في الرعية، وأعظمكم عند الله مزية. قال جابر: فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ فكان علي إذا أقبل قال أصحاب محمد قد أتاكم خير البرية بعد رسول الله.

٣ – في (الدر المنثور) عن ابن عباس قال: حين نزلت آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ قال رسول الله لعلي: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين.

وكثير من علماء العامة نقلوا مثل هذه الروايات في كتبهم منهم: الخطيب الخوارزمي في المناقب، وأبو نعيم الأصفهاني في كفاية الخصام، والعلامة الطبري في تفسيره، وأين صباغ المالكي في الفصول المهمة .... فهذا الحديث من الأحاديث المعروفة المشهورة المقبولة لدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل علي وأتباعه. وهذه الروايات تدل ضمناً أنَّ كلمة (الشيعة) باعتبارها اسماً لأتباع علي عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين على لسان الرسول نفسه، وليس أنَّ الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخرة فهو خطأ كبير.

إخلاص النية في العبادة

بعض علماء أصول الفقه استدلوا بالآية: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ على لزوم (قصد القربة) في العبادات، وأنَّ الأصل في الأوامر أنها تعبدية لا توصلية. وهذا يتوقف على كون (الدين) في الآية بمعنى العبادة كي يصح الاستدلال بها على لزوم الإخلاص في العبادات، وكذلك يتوقف على أنْ يكون (الأمر) في الآية بشكل مطلق كي يكون مفهومها لزوم قصد القربة في كل الأوامر (عدا ما خرج منها بدليل)، غير أنَّ مفهوم الآية ليس كذلك على الظاهر، فالمقصود إثبات التوحيد مقابل الشرك، أي إنَّ هؤلاء لم يؤمروا إلا بالتوحيد، وبهذا لا ترتبط المسألة بالأحكام الفرعية.

(سورة الزلزلة)

سورة الزلزلة (مدنية) وعدد آياتها (ثماني) آيات.

مباحث السورة / تدور السورة حول ثلاثة محاور رئيسية:

أولاً: تتحدث عن علامات البعث ويوم القيامة.

ثانياً: شهادة الأرض على جميع أعمال العباد.

ثالثاً: وبعد ذلك تقسم الناس إلى مجموعتين صالحة وطالحة وتبين أنَّ كل مجموعة ترى ثمار عملها.

فضل تلاوتها / روي عن رسول الله ﷺ: من قرأها فكأنما قرأ البقرة وأعطي من الأجر كمن قرأ ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير

هذه السورة تبدأ ببيان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التي ترافق نهاية هذا العالم وبدء البعث والنشور.

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ عبارة (زلزالها) تعني أنَّ الأرض بأجمعها تهتز في ذلك اليوم خلافاً للزلازل العادية الموضعية عادة، أو أنها إشارة إلى الزلزلة المعهودة أي زلزلة يوم القيامة، و(الأثقال) ذكر لها المفسرون معانٍ منها:

١- قيل إنها البشر الذين يخرجون من أجداثهم على أثر الزلزال. كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾

٢- وقيل إنها الكنوز المخبوءة التي ترتمي إلى الخارج، وتبعث الحسرة في قلوب عباد الدنيا.

٣- ويحتمل أيضاً أنْ يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة في باطن الأرض، وهو ما يحدث أثناء البراكين والزلازل، فإنَّ الأرض في نهاية عمرها تدفع ما في أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم.

ويمكن الجمع بين هذه التفاسير. ولكن لما كان القرآن يتحدث في مواضع مختلفة عن أحداث النفختين معا، فالتفسير الأول أنسب لما ورد من ذكر الزلزال المرعب في نهاية العالم. وما يرافق الإنسان من الدهشة والحيرة عندما يرى ذلك.

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾فهذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان في ذلك اليوم، وهي إذن رقيبة على ما نفعله عليها، وفي حديث عن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أخبارها أنْ تشهد على كل عبد وأمة بما عملوا على ظهرها، تقول عمل كذا وكذا، يوم كذا، فهذا أخبارها. وفي حديث عن علي عليه السلام قال: صلوا المساجد في بقاع مختلفة، فإنَّ كل بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة. وكل ذلك هو بوحي ربها، وهي لا تتوانى في تنفيذ أمر الرب.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾يصدرُ من الصدور، وهو خروج الإبل من بركة الماء مجتمعة هائجة وعكسه الورود. وهي هنا كناية عن خروج الأقوام من القبور وورودهم على المحشر للحساب، أشتات جمع شَت على وزن شط وهو المتفرق والمبعثر. أي إنَّ الناس يردون ساحة المحشر متفرقين مبعثرين. وورد في هذا التفرُّق أقوال:

١- قد يكون التفرق والتبعثر لورود أهل كل دين منفصلين عن الآخرين.

٢- قد يكون لورود أهل كل نقطة من نقاط الأرض بشكل منفصل.

٣- قد يكون لورود جماعة بأشكال جميلة مستبشرة، وجماعة بوجوه عبوسة مكفهرة إلى المحشر.

٤- إنَّ كل أمة ترد مع إمامها وقائدها كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾

٥- أنْ يحشر المؤمنون مع المؤمنين والكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماما لأن مفهوم الآية واسع.

والمقصود من عبارة ليروا أعمالهم هل هو: ليروا جزاء أعمالهم، أو ليروا صحيفة أعمالهم وما سجل فيها من حسنات وسيئات، أو المشاهدة الباطنية بمعنى المعرفة بكيفية الأعمال، أو أنها تعني تجسم الأعمال ورؤية الأعمال نفسها ؟ ! التفسير الأخير أنسب مع ظاهر الآية. وهذه الآية أوضح الآيات الدالة على تجسم الأعمال، حيث تتخذ الأعمال في ذلك اليوم أشكالا تتناسب مع طبيعتها وتنتصب أمام صاحبها، وتكون رفقتها سروراً وانشراحاً أو عذاباً وبلاءً.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُۥ وَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَـرَهُۥ ﴾ ثم ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة والكافرة، الصالحة والطالحة، وهما كان مفهوم الذرة فهو هنا أصغر وزن. وهذه الآية تهز كيان الإنسان الواعي من الأعماق، وتشير إلى أنَّ حساب الله في ذلك اليوم دقيق وحساس للغاية، وميزان أعمال الناس دقيق إلى درجة يحصي أقل أعمال الإنسان.

والدقة في تحري الأعمال كم في الآيتين المذكورتين وآيات أخرى مشابهة تدل دلالة واضحة على الدقة المتناهية في تحري الأعمال وفي المحاسبة يوم القيامة، كقوله سبحانه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ والخردل بذر صغير جداً لنبات معروف يضرب به المثل لصغره. فهذه التعابير القرآنية تدل على أنَّ أصغر الأعمال يحاسب عليها في ذلك اليوم، وهذه الآيات تحذر أيضاً من استصغار الذنوب الصغيرة، أو التهاون في أعمال الخير والصغيرة. فما يحاسب عليه الله سبحانه مهما كان ليس بقليل الأهمية، لذلك قال بعض المفسرين إنَّ هذه الآيات نزلت حين كان بعض الصحابة يتهاون في إنفاق الأموال القليلة، وكانوا يقولون إنَّ الأجر يتوقف على إنفاق ما نحب، والأشياء الصغيرة لا نحبها، وهكذا كانوا يستهينون بالذنوب الصغيرة، فنزلت الآيات وحثتهم على فعل الخيرات مهما قلت ونهتهم عن الذنوب مهما صغرت.

فهذه الآية هي الآية الجامعة حيث روي عن عبد الله بن مسعود قال: إنَّ أحكم آية في القرآن: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُۥ وَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَـرَهُۥ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يسميها (الجامعة) وحقاً لو تدبر الإنسان في محتوى هذه الآية تكفيه دافعاً إلى طريق الخير وناهياً عن طريق الفساد والانحراف. لذا ورد أيضاً عن زيد بن أسلم أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: علمني ما علمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه إذا زلزلت الأرض حتى بلغ فمن يعمل الخ . . . قال الرجل: حسبي. فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: دعه فقد فقه الرجل.

التكفير عن الذنوب

جواب على سؤال يطرح هنا سؤال بشأن ما تحدثت عنه الآيات وهو أنَّ الإنسان يرى كل أعماله صالحة أم طالحة، صغيرة أم كبيرة. فكيف ينسجم ذلك مع الآيات التي تطرح مفاهيم (الإحباط) و (التكفير) و (العفو) و (التوبة) ؟ فآيات الإحباط تقرر أنَّ بعض السيئات مثل الكفر يذهبن الحسنات قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ وآيات التكفير تقول : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وآيات العفو والتوبة توضح محو الذنوب بتوبة العبد وعفو الرب. فكيف تنسجم هذه المفاهيم مع رؤية كل أعمال الخير والسوء ؟

والجواب إنَّ الآيات المذكورة أعلاه والتي تنص على رؤية أعمال الخير وأعمال السوء يوم القيامة هو أصل كلي وقانون عام، وكل قانون قد يكون له استثناءات. وآيات العفو والتوبة والإحباط والتكفير هي من هذه الاستثناءات.

وثمة جواب آخر هو إنه في حالة الإحباط والتكفير تحدث في الواقع موازنة وكسر وانكسار تماماً مثل المطالبات والقروض التي يقل بعضها على حساب بعض، وحينما يرى الإنسان نتيجة هذه الموازنة فإنما رأى في الواقع كل أعماله الصالحة والطالحة، ومثل هذا يصدق أيضاً على العفو والتوبة لأنَّ العفو لا تتم دون لياقة، والتوبة هي بنفسها من الأعمال الصالحة ....

(سورة العاديات)

سورة العاديات (مدنية) وعدد آياتها (إحدى عشرة) آية.

مباحث السورة /

أولاً / تبدأ السورة بالقسم بأمور محفزة محركة.

ثانياً / تتناول بعض مظاهر الضعف البشري كالكفر والبخل وحب الدنيا.

ثالثاً / تشير السورة إشارة قصيرة معبرة إلى مسألة المعاد وإحاطة الله بعباده.

فضل تلاوتها / روي عن النبي ﷺ: مَنْ قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جمعاً. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ: مَنْ قرأ والعاديات وأدمن قراءتها بعثه الله مع أمير المؤمنين يوم القيامة خاصة، وكان في حجره ورفقائه. وفي بعض الروايات أنَّ سورة (والعاديات) تعادل نصف القرآن. ومن الواضح أنَّ كل هذه الفضيلة إنما هي نصيب من جعل السورة منهاجاً لحياته وآمن بكل محتواها وعمل بها.

وفي سبب النزول روي أنَّ هذه السورة نزلت بعد واقعة ذات السلاسل وكانت الحادثة أنَّ في السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول ﷺ نبأ تجمع اثني عشر ألف راكب في أرض (يابس) تعاهدوا على أنْ لا يقر لهم قرار حتى يقتلوا الرسول ﷺ وعلياً ﷺ ويبيدوا الجماعة المسلمة. وبعث النبي ﷺ جمعاً من أصحابه إليهم فكلموهم، ولكن دون جدوى. فأرسل النبي ﷺ علياً ﷺ مع جمع غفير من المهاجرين والأنصار لمحاربتهم. فحثوا الخطى إلى منطقة العدو وطووا الطريق في الليل، فحاصروا العدو وعرضوا عليهم الإسلام أولاً، وحين أبوا شنوا هجومهم والجو لما يزل في ظلام ودحروهم، فقتلوا جماعة وأسروا النساء والأطفال وغنموا أموالاً كثيرة. ونزلت سورة (والعاديات) وجيوش الإسلام لم تصل إلى المدينة بعد، وفي ذات اليوم صلى رسول الله ﷺ بالناس الغداة وقرأ (والعاديات) فلما فرغ من صلاته قال أصحابه هذه سورة لم نعرفها، فقال رسول الله ﷺ: نعم إنَّ علياً ظفر بأعداء الله وبشرني بذلك جبرائيل ﷺ في هذه الليلة. فقدم عليٌّ ﷺ بعد أيام بالغنائم والأسارى.

وقيل: إنَّ هذه الواقعة من المصاديق البارزة للآية وليست سبباً لنزولها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾(العاديات) جمع عادية من العَدْو، وهو المغادرة والابتعاد بالقلب، فتكون العداوة، أو بالحركة الخارجية فيكون العدو وهو الركض، أو بالمعاملات فيسمى العدوان.

و (العاديات) في الآية هي الجاريات بسرعة، و(الضبح) صوت الخيل وهي تتنفس بشدة عند الجري.

قلنا إنَّ هذه السورة تبدأ بالقسم بأمور محفزة منبهة. تقسم أولاً بالخيول الجارية المندفعة إلى ميدان الجهاد وهي تحمحم وتتنفس بشدة، ويمكن أنْ يكون القسم هذا بإبل الحجاج المتجهة من عرفات إلى المشعر الحرام، ومن المشعر الحرام إلى منى وهي تتنفس بشدة.

لهذه الآية تفسيران:

الأول: إنَّ المقسوم به في الآية الخيل السريعة الجري نحو ميدان الجهاد، ولما كان الجهاد أمراً مقدساً، فهذه الحيوانات في جريها في هذا المسير المقدس تنال من المكانة واللياقة ما تستحق أنْ يقسم بها.

الثاني: إنَّ المقسوم به الإبل الجارية في موسم الحج بين المواقف المشرفة وهي تنقل الحجاج، لذلك كانت ذا قداسة تستحق القسم بها.

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ (الموريات) جمع مورية، والإيراء يعني إضرام النار، و(القدح) ضرب الحجارة أو الخشب أو الحديد بما يشبهه لتوليد النار. وهي خيل المجاهدين التي تجري بسرعة فائقة في ميدان القتال، بحيث تنقدح النار من تحت أرجلها جراء احتكاك حوافرها بصخور الأرض. أو هي الإبل التي تجري بين مواقف الحج، فتتطاير الحصى والحجارة من تحت أرجلها وترتطم بحصى وحجارة أخرى فتنقدح النيران.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ (المغيرات) جمع مغيرة، والإغارة الهجوم على العدو، وقيل إنَّ الكلمة تتضمن معنى الهجوم بالخيل، ولكن موارد استعمالها يبين أنَّ هذا القيد إنْ كان موجودا في الأصل فقد حذف بالتدريج. والقسم الثالث بالتي تغير صباحاً على ، ولو اعتبرنا القسم بإبل الحجاج، فالمغيرات في الآية هي قوافل الإبل في صباح العيد من المشعر إلى منى.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ (أثرن) من الإثارة وهي نشر الغبار والدخان في الجو. وقد تأتي بمعنى الهياج أو انتشار أمواج الصوت في الفضاء. و(النقع) هو الغبار، وأصل الكلمة انغماس الماء أو الانغماس في الماء والانغماس في التراب يشبهه، ولذلك اتخذ نفس الاسم. تشير الآية التالية إلى سرعة هذه العاديات في هجومها، وذلك بإثارتها الغبار في كل جانب، أو إنَّ الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

وفي آخر خصائص هذه المغيرات تذكر الآية أنها ظهرت بين الأعداء في الفجر، فهجومها كان مباغتاً خاطفاً بحيث استطاعت خلال لحظات أنْ تشق صفوف العدو وتشن حملتها في قلبه، وتشتت جمعه، وهذا نتيجة ما تتحلى به من سرعة ويقظة واستعداد وشهامة وشجاعة. أو إنها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

نستخلص مما سبق أنَّ القسم في الآيات بهذه الخيول التي هي أولاً تسرع إلى ميدان الجهاد بنَفَسٍ شديد، ثم تزيد سرعتها حتى يتطاير الشرر من تحت حوافرها فيشق عتمة الليل، وبعدها تقترب من منطقة العدو فتباغته، وعند انبلاج عتمة الليل تشن هجوماً شديداً يثير الغبار في كل جانب، ثم تتوغل إلى قلب العدو وتشتت صفوفه فالقسم إذن بهذه الخيول المقتدرة ! بفرسانها الشجعان ! بأنفاس مركب المجاهدين ! بشرارات النيران المتطايرة من تحت حوافرها ! بذلك الهجوم المباغت ! بذرات الغبار المنتشرة في الفضاء ! بدخولها قلب صفوف الأعداء وتحقيق النصر الحاسم عليهم ! من هنا يتضح أنَّ الجهاد له منزلة عظيمة حتى أنَّ أنفاس خيل المجاهدين استحقت أنْ يقسم بها .... ثم يأتي جواب القسم ويقول سبحانه.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾و(كنود) اسم للأرض التي لا تنبت، وتطلق على الإنسان الكفور والبخيل أيضاً. نعم فالإنسان البعيد عن التربية الصحيحة والذي لم تشرق في قلبه أنوار المعارف الإلهية وتعاليم الأنبياء، الإنسان الخاضع لأهوائه وشهواته

الجامحة هو حتماً كفور بالنعمة وبخيل وإنه لكنود. والمفسرون ذكروا لكلمة (كنود) معاني كثيرة، ولكنها غالباً فروع للمعنى الأصلي الذي ذكرناه، من ذلك:

١ – الذي يهول من مصائبه وينسى النعم.

٢ – هو الذي يأكل نعم الله وحده، ويمنعها عن الآخرين. وورد عن الرسول ﷺ قال: أتدرون من الكنود ؟ قيل: الله ورسوله أعلم. قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده.

٣ – الذي لا يواسي إخوته في مشاكلهم ومصائبهم.

٤ – من يمنع نعمته عن الآخرين ويجزع في المشاكل والمصائب.

٥ – من ينفق النعم الإلهية في المعاصي.

وهذه المعاني –كما ذكرنا– مصاديق وتفريعات لمعنى الكفران والبخل. والإنسان في مثل هذه الاستعمالات القرآنية تعني الأفراد المتطبعين على الشر والشهوات الجامحة والطغيان.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾فهو بصير بنفسه، وإن استطاع أنْ يخفي سريرته فلا يستطيع أنْ يخفيها عن الله وعن ضميره، سواء اعتراف بهذه الحقيقة أم لم يعترف. فصفة الكنود وهي الكفران والبخل واضحة إلى درجة لا يستطيع أن} يخدع ضميره وأنْ يغطي عليها.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾أي إنه شديد الحب للمال والمتاع. وهذا الانشداد المفرط بالمال والثروة هو سبب هذا البخل والكفران. كلمة (الخير) لها معنى واسع يشمل كل نعمة. كثير من النعم مثل العلم والمعرفة والتقوى والجنة والسعادة ليست مذمومة، ولا ينكر عليها القرآن. لذلك فسر الخير في الآية بأنه المال. يدل على ذلك قرينة المقام والآية السابقة، وآيات أخرى كقوله سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فإطلاق الخير على المال في الآية يعود إلى أنَّ المال في حد ذاته شئ حسن، ويستطيع أنْ يكون وسيلة لأنواع الخيرات، لكن الإنسان الكنود يصرفه عن هدفه الأصلي، وينفقه في طريق ذاتياته وأهوائه.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ (بعثر) من البعثرة وهي البعث والإثارة والإخراج، وبعثرة ما في القبور أي بعث الموتى وإخراجهم من القبور، و(حُصِّل) من التحصيل، وهو في الأصل يعني إخراج اللب من القشر، وكذلك تصفية المعادن، واستخراج الذهب وأمثاله من الخامات، ثم استعملت لمطلق الاستخراج والفصل. والكلمة في الآية تعني فصل الخير عن الشر في القلوب، الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنة عن الصفات السيئة، تفصل في ذلك اليوم وتظهر وينال كل فرد حسب ذلك جزاؤه. كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ وفي الآية استفهام استنكاري لما سيقدم عليه الإنسان من مواطن لا ينفع النفس كفرها وجحودها بنعم الله تعالى، فهو عليم بأعمالهم ونياتهم وسيجازيهم وفق ذلك.

وهذا التحذير لو دخل دائرة إيمان البشر لكان سداً منيعاً بينهم وبين الذنوب العلنية والخفية والخارجية والباطنية، ولا يخفى على أحد ما لهذا الاعتقاد من آثار تربوية.

ارتباط قسم هذه السورة بأهدافها

من الأسئلة التي تطرح حول هذه السورة سؤال حول الارتباط بين ما في هذه السورة من قسم بخيول المجاهدين، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ فمواضع القسم في القرآن يشاهد فيها ارتباط بين القسم والمقسم به، وفصاحة القرآن وبلاغته تقتضي ذلك.

قد يكون الارتباط في هذه السورة أنَّ القرآن يقول: ثمة أفراد من بني الإنسان يُضَحّون على طريق الجهاد ويبذلون النفس والنفيس في سبيل الله، فكيف والحال هذه يستولي على بعض الناس البخل والكفران، فلا يؤدون فريضة شكر النعم ولا يبذلون في سبيل الله ؟ ! صحيح أنَّ القسم في الآيات بالخيل، لكن الخيل إنما اكتسبت أهميتها لأنها مركب المجاهدين، فالقسم إذن بجهاد المجاهدين. (وهكذا الأمر إذا كان القسم بإبل الحجاج). وقيل أيضاً إنَّ الارتباط المذكور يحصل بأنَّ هذه الحيوانات تجري على طريق رضا الله ، فلماذا لا تخضع أنت أيها الإنسان له، وأنت أشرف المخلوقات وأحق من غيرك ؟ ! والمناسبة الأولى أوضح.

هل الإنسان كنود بطبيعته ؟

قد يستفاد من قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ أنَّ البخل والكفران صفة لازمة لطبيعة الإنسان، فكيف يتناسب هذا مع ما يمتلكه الإنسان من ضمير يقظ وشعور فطري يدعوه إلى شكر المنعم وإلى التضحية ؟

مثل هذا السؤال يطرح في المواضع التي تتحدث عن صفة بارزة من صفات الضعف الإنساني كقوله سبحانه عن الإنسان بأنه ظلوم وجهول، وإنه هلوع، وإنه يؤوس وكفور، وإنه ليطغى. فهل نقاط الضعف هذه قائمة في طبيعة الكائن البشري ؟

كيف يمكن أنْ يكون هذا والقرآن يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ جواب هذا السؤال يتضح لو عرفنا أنَّ الإنسان له بعدان وجوديان، ولذلك يستطيع في مُنْحناه الصعودي أنْ يرتقي إلى أعلى عليين، وفي منحناه النزولي إلى أسفل سافلين. فإذا خضع للتربية الإلهية واستلهم نداء العقل وبنى نفسه كان مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ وإذا أعرض عن الإيمان والتقوى وخرج عن خط أولياء الله كان موجوداً ظلوماً كفاراً ويؤوساً وكفوراً وهلوعاً وكنوداً. من هنا فلا تناقض بين هذه الآيات، وكل منها يشير إلى واحد من بُعدي وجود الإنسان. نعم في داخل فطرة الإنسان تمتد جذور كل الحسنات والمفاخر والفضائل، كما إنَّ فيه استعداداً لما يقابل هذه الفضائل. (تأمل بدقة)

عظمة الجهاد

القرآن تعرض للحديث عن مسألة الجهاد وعظمة المجاهدين في سبيل الله في مواضع عديدة . ولكن الحديث في هذه السورة فريد في تعظيمه للجهاد إذ عد حتى أنفاس خيل المجاهدين وشرر حوافرها والغبار الذي تثيره عظيمة استحقت أن يقسم بها . وركزت الآيات بشكل خاص على السرعة والعمل الخاطف للمجاهدين باعتباره أحد عوامل النصر في الحروب، وعلى المباغتة باعتبارها عاملاً آخر من عوامل الانتصار في الحرب، وكل هذه تعاليم في منهج الجهاد. ويلفت النظر في سبب نزول الآية أنَّ علياً عليه السلام أمر أنْ تسرج الخيل في ظلام الليل وأنْ تعد إعداداً كاملاً، وحينما انفلق الفجر وزالت العتمة صلى بالناس الصبح، وشن هجومه مباشرة، وما أنْ انتبه العدو حتى وجد نفسه تحت وطأة خيل جيش الإسلام، هذه الحملة السريعة المباغتة جعلت إصابات المسلمين أقل ما يمكن، وحسمت الحرب خلال ساعات، وهذه المسائل انعكست جميعاً في آيات هذه السورة بشكل دقيق رائع. فواضح أنَّ محور التكريم في هذه السورة ليس الخيل أو شرارة حوافرها أو الغبار المتصاعد من تحت أرجلها بل هو (الجهاد) ثم (عدته) التي تشمل كل أنواع أجهزة الحرب في أي زمان ....

(سورة القارعة)

سورة القارعة (مكية) وعدد آياتها (إحدى عشرة) آية.

مباحث السورة / تتناول هذه السورة بشكل عام، المعاد ومقدماته بتعابير حادة، وبيان مؤثر، وإنذار صريح وواضح، حيث تصنف الناس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين:
الجماعة التي تكون أعمالها ثقيلة في ميزان العدل الإلهي، فتحظى جزاء بذلك حياة راضية سعيدة في جوار الرحمة الإلهية، وجماعة أعمالها خفيفة الوزن، فتعيش في نار جهنم الحارة المحرقة. وقد اشتق اسم هذه السورة من الآية الأولى فيها.

فضل تلاوتها / روي عن الإمام الباقر عليه السلام: مَنْ قرأ القارعة آمنه الله من فتنة الدجال أنْ يؤمن به، ومن قيح جهنم يوم القيامة إنْ شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير

﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ من القرع، وهو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد، وسميت العصا والمطرقة بالمقرعة لهذه المناسبة، بل سميت كل حادثة هامة صعبة بالقارعة.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ الآية تخاطب حتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقول له: وما أدراك ما القارعة، وهذا يدل على أنَّ عظمة هذه الحادثة القارعة إلى درجة لا تخطر على فكر أحد. أكثر المفسرين ذكروا أنَّ القارعة أحد أسماء القيامة، ولكن لم يوضحوا هل أنه اسم لمقدمات القيامة إذ تقرع هذه الدنيا، وينطفئ نور الشمس والقمر، أو إنه اسم للمرحلة التالية أي مرحلة إحياء الموتى، وظهور عالم جديد ....، وفي وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ (الفَراش) جمع فَراشة، وهي الحشرة المعروفة ذات الألوان الزاهية، وقيل إنها الجراد، ويبدو أنَّ هذا المعنى مستلهم من قوله تعالى حيث يصف الناس يوم القيامة كأنهم جراد منتشر، لكن المعنى اللغوي للكلمة هو الحشرة المعروفة. والتشبيه بالفراش قد يكون لأنَّ هذه الحشرات تلقي بنفسها بشكل جنوني في النار، وهذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم في جهنم، ويحتمل أنْ يكون التشبيه لما يصيب جميع الناس في ذلك اليوم من حيرة.
وإنْ كان الفراش بمعنى الجراد فوجه التشبيه هو إنَّ الجراد -خلافاً لكل الحيوانات التي تطير بشكل جماعي- ليس لها مسير مشخَّص في حركتها، وكل منها يطير في اتجاه. ثم تذكر الآية التالية وصفا آخر لذلك اليوم وتقول.

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ و(العهن) هو الصوف المصبوغ، و(المنفوش) هو المنشور ويتم ذلك عادة بآلة الحلج الخاصة. سبق أنْ ذكرنا أنَّ القرآن الكريم في مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنها تتحرك أولاً، ثم تدك

وتتلاشى، وأخيراً تصبح بشكل غبار متطاير في السماء. وهذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج، الصوف المتطاير في مهب الريح، لم يبق منه إلا ألوان، وهذه آخر مراحل انهدام الجبال. ثم تتطرق الآيات التالية إلى الحشر والنشر وإحياء الموتى وتقسيمهم إلى مجموعتين.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (موازين) جمع ميزان، وهو وسيلة للوزن تستعمل في وزن الأجسام، ثم استعملت في المعايير المعنوية. وذهب بعضهم إلى أنَّ أعمال الإنسان تتجسم في ذلك اليوم، وتصبح قابلة للوزن، وتوزن حقيقة بميزان الأعمال. وقيل أيضاً أنَّ صحيفة أعمال الفرد هي التي توزن، فإنْ كانت تحمل صالحاً ثقلت، وإلا خفت أو انعدم وزنها.

وفي الواقع ليس من الضروري أنْ يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كل وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد في الحديث: إنَّ أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين. وعن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الميزان قال: الميزان العدل. وبهذا نفهم أن أولياء الله وقوانين العدل الإلهي هي موازين يعرض عليها الناس وأعمالهم ويتم قياس الوزن على مقدار الشبه والمطابقة.

وصف العيشة بأنها (راضية) وصف رائع عن حياة ملؤها النعمة ورغد العيش لأهل الجنة في القيامة. هذه ميزة الحياة الآخرة بشكل خاص، لأنَّ الحياة الدنيا –مهما كان فيها من رفاه ونعمة ورغد عيش ورضا– لا تخلو من المكدرات. وأما الحياة الأخرى هي وحدها المليئة بالرضا والأمن والسلام وهدوء البال.

كلمة (أُم) تعني المأوى والملجأ، لأنَّ (الأم) هي مأوى أبنائها وملاذهم، ويكون معنى الآية: إنَّ هؤلاء المذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، وويل لمن كان ملجؤه جهنم. وقيل (أم) تعني الدماغ، لأنَّ العرب تطلق على الدماغ اسم (أم الرأس) ويكون معنى الآية أنَّ رؤوس هؤلاء هاوية في جهنم، بعبارة أخرى إنَّ هؤلاء يلقون على رؤوسهم في نار جهنم. ونستبعد هذا الاحتمال، لعدم انسجامه مع الآية التالية: وما أدراك ما هيه ؟

(هاوية) من هوى أي سقط، والهاوية اسم لجهنم لأنها محل سقوط المذنبين. وهي إشارة أيضاً إلى عمق نار جهنم.

(حامية) من حَمى على وزن نفى وهو شدة الحرارة. وحامية هنا إشارة إلى قدرة نار جهنم على الإحراق. وقوله سبحانه وما أدراك ما هيه، نار حامية تأكيد على شدة عذاب نار جهنم وعلى أنها فوق تصور كل البشر.

ثقل ميزان الأعمال

إنَّ الأعمال الصالحات هي دون شك متفاوتة في قيمتها ووزنها، لذلك فالنصوص الإسلامية ركزت على بعض الأعمال أكثر من غيرها واعتبرتها سبباً لثقل ميزان الأعمال يوم القيامة. من ذلك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في تفسير لا إله إلا الله: يعني بوحدانيته، لا يقبل الله الأعمال إلا بها، وهي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة. وعن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام: ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد. ثم يقول في ذيل الرواية: وإنَّ الرجل لتوضع أعماله في الميزان فيميل به فيخرج الصلاة فيضعها في ميزانه فيرجح. وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: مَنْ كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه.

(سورة التكاثر)

سورة التكاثر (مكية) وعدد آياتها (ثماني) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة تتناول في مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استناداً إلى مسائل موهومة، وتذم ذلك وتلوم عليه، ثم تحذرهم من حساب المعاد وعذاب جهنم ومما سيسألون يوم ذاك عن النعم التي من الله بها عليهم.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: مَنْ قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، وأعطي من الأجر كأنما قرأ ألف آية. واضح أنَّ كل هذا الثواب إنما هو لمن يقرأها ولمن يطبقها في برنامج حياته ويتفاعل معها روحياً ونفسياً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧ ﴾

التفسير

(أَلْهَاكُمُ) من اللهو، وهو الانشغال بالأعمال الصغيرة والانصراف عن المهام الكبيرة. والراغب يفسر اللهو بالعمل الذي يشغل الإنسان ويصرفه عن مقاصده وأهدافه. (التَّكَاثُرُ) يعني التفاخر والمباهاة. (زُرْتُمُ) من الزيارة. الآيات توجه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين وتقول: ألهاكم التكاثر في الأنفس والأموال حتى إنكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم. : واحتمل بعض المفسرين في تفسير الآية أنَّ المعنى هو إنكم انشغلتم بالتكاثر والتفاخر حتى لحظة موتكم وورودكم إلى المقابر. لكن المعنى الأول أكثر انسجاما مع عبارة حتى زرتم المقابر.

الآيات التالية فيها تهديد شديد لهؤلاء المتكاثرين تقول.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾فليس الأمر كما ترون وبه تتفاخرون، بل سوف تعلمون عاجلاً نتيجة هذا التكاثر الموهوم. لمزيد من التأكيد يقول سبحانه.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾جمع من المفسرين ذهبوا إلى أنَّ الآيتين تكرار لموضوع واحد وتأكيد عليه، وكلتاهما تشيران إلى العذاب الذي ينتظر هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين. وبعضهم قال: إنَّ الأولى إشارة إلى عذاب القبر والبرزخ، والثانية إلى عذاب القيامة.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾كلا ليس الأمر كما تظنون أيها المتفاخرون المتكاثرون، فلو إنكم تعلمون الآخرة علم اليقين، لما اتجهتم إلى التفاخر والمباهاة بهذه المسائل الباطلة. ولمزيد من التأكيد والإنذار تقول لهم الآيات التالية لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم في ذلك اليوم عليكم أنْ توضحوا كيف أنفقتم تلك النعم الإلهية. وهل استخدمتموها في طاعة الله أم في معصيته، أم أنكم ضيعتم النعمة ولم تؤدوا حقها ؟

اليقين ومراحله

اليقين يقابل الشك، كما إنَّ العلم يقابل الجهل، واليقين يعني وضوح الشيء وثبوته. ويستفاد من الروايات أنَّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان. والإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام يجعل الإيمان أعلى من الإسلام درجة، والتقوى أعلى من الإيمان درجة، واليقين أعلى من التقوى درجة ثم يقول: ولم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين. ويسأل الراوي: ما هو اليقين ؟

يقول: التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله !

وعلو مقام اليقين على مقام التقوى والإيمان والإسلام أكدت عليه روايات أخرى.

ومن هذه النصوص وأمثالها نفهم جيداً أنَّ الإنسان –حين يصل إلى مقام اليقين– تغمر قلبه وروحه طمأنينة خاصة. ومع هذا فلليقين مراتب، وهي ثلاثة:

١ – **علم اليقين**: وهو الذي يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأنْ يشاهد دخاناً فيعلم علم اليقين أنَّ هناك ناراً.

٢ – **عين اليقين**: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأنْ يرى بعينه مثلاً النار.

٣ – **حق اليقين**: وهو كأنْ يدخل الإنسان النار بنفسه ويحس بحرقتها، ويتصف بصفاتها.

وهذه أعلى مراحل اليقين. يقول المحقق الطوسي: اليقين اعتقاد جازم مطابق ثابت، لا يمكن زواله، وهو في الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال، وله مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

(سورة العصر)

سورة العصر (مكية) وعدد آياتها (ثلاث) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة رغم قصرها تقدم المنهج الجامع والكامل لسعادة الإنسان. فتبحث:

أولاً: تبدأ السورة من قسم عميق المحتوى بالعصر.

ثانياً: تتحدث عن خسران كل أبناء البشر خسراناً قائماً في طبيعة حياتهم التدريجية.

ثالثاً: تستثني مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، وهي التي لها منهج ذو أربع مواد: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهذه الأصول الأربعة هي في الواقع المنهج العقائدي والعملي الفردي والاجتماعي للإسلام.

فضل تلاوتها / روي عن الإمام الصادق عليه السلام: مَنْ قرأ (والعصر) في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقاً وجهه، ضاحكاً سنه، قريرة عينه، حتى يدخل الجنة. وواضح أنَّ كل هذه الفضيلة وهذه البشرى نصيب من طبق الأصول الأربعة المذكورة في حياته، لا أنْ يقنع فقط بقراءتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

التفسير

في بداية هذه السورة نواجه قسماً قرآنياً جديداً، يقول سبحانه. كلمة (العصر) في الأصل الضغط، وإنما أطلق على وقت معين من النهار لأنَّ الأعمال فيه مضغوطة. ثم أطلقت الكلمة على مطلق الزمان ومراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زماني معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام. ولذلك ذكر المفسرون في معنى العصر احتمالات كثيرة:

١ – قيل إنه وقت العصر من النهار، بقرينة وجود مواضع أخرى أقسم الله فيها بأول النهار كقوله تعالى: والضحى أو والصبح إذا أسفر. وإنما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو في وقت من النهار يحدث فيه تغيير في نظام المعيشة وحياة البشر ....

٢ – قيل إنه كل الزمان وتاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، والأحداث الجسيمة، وهو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهي.

٣ – قيل إنه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدي المنتظر عليه السلام وهي مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة وعظمة فائقة في تاريخ البشر، والقسم في الآية إنما هو بتلك الأزمنة الخاصة.

٤ – قيل إنَّ الكلمة يراد بها صلاة العصر، لأهميتها الخاصة بين بقية الصلوات، لأنها الصلاة الوسطى –كما قيل– التي أمر الله أنْ يحافظ عليها خاصة.

مع أن التفاسير أعلاه غير متضادة، ويمكن أنْ تجتمع كلها في معنى الآية، ويكون القسم بكل هذه الأمور الهامة، ولكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان وتاريخ البشرية. لأنَّ القسم القرآني –كما ذكرنا مراراً– يتناسب مع الموضوع الذي أقسم الله من أجله ومن المؤكد أنَّ خسران الإنسان في الحياة ناتج عن تصرم عمرهم، أو أنه عصر بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنَّ المنهج ذا المواد الأربع في ذيل هذه السورة نزل في هذا العصر. تتضح مما سبق عظمة آيات القرآن وسعة مفاهيمها، فكلمة واحدة تحمل من المعاني العميقة ما يجعلها صالحة لكل هذه التفاسير المتنوعة.

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ الآية التالية تحمل الموضوع الذي جاء القسم من أجله، يقول سبحانه الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى، تمر الساعات والأيام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية والمعنوية، تتناقص

قدرته باستمرار. إنه كشخص عنده ثروة عظيمة، وهذه الثروة يؤخذ منها كل يوم شيء باستمرار رغم إرادته، هذه طبيعة الحياة الدنيوية، طبيعة الخسران المستمر !

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ هذه الآية تؤكد على الجانب الآخر الذي يقابل الخسارة وهو الربح والفوز بالآخرة، فكل نفس من أنفاس الإنسان يقربه خطوة نحو الموت، ولذا ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجله. وهكذا كل ضربة من ضربات القلب تقرب الإنسان من الموت من هنا لا بد من المبادرة إلى ملء الفراغ الذي يولده هذا الخسران الحتمي.

منهج السعادة

من المهم أنْ نقف ولو قليلاً عند المنهج الذي وضعه القرآن الكريم للنجاة من الخسران، إنه منهج يتكون من أربعة أصول هي:

الأصل الأول/ الإيمان. وهو البناء التحتي لكل نشاطات الإنسان، لأن فعاليات الإنسان العملية تنطلق من أسس فكره واعتقاده، لا كالحيوانات المدفوعة في حركاتها بدافع غريزي. بعبارة أخرى أعمال الإنسان بلورة لعقائده وأفكاره، ومن هنا فإنَّ جميع الأنبياء بدؤوا قبل كل شيء بإصلاح الأسس الاعتقادية للأمم والشعوب. وحاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل والشقاوة والتمزق الاجتماعي. والآية الكريمة قالت: (إلا الذين آمنوا) فذكرت الإيمان بمعناه المطلق ليشمل الإيمان بكل المقدسات، ابتداء من الإيمان بالله وصفاته حتى الإيمان بالقيامة والحساب والجزاء والكتب السماوية وأنبياء الله وأوصيائهم.

الأصل الثاني/ العمل الصالح. وهو ثمرة دوحة الإيمان، تقول الآية (وعملوا الصالحات) لا العبادات فحسب ولا الإنفاق في سبيل الله وحده، ولا الجهاد في سبيل الله فقط، ولا الاكتفاء بطلب العلم، بل كل الصالحات التي من شأنها أنْ تدفع إلى تكامل النفوس وتربية الأخلاق والقرب من الله وتقدم المجتمع الإنساني. هذا التعبير يشمل الأعمال الصغيرة كرفع الحجر من طريق الناس والأعمال الجسام مثل إنقاذ ملايين الناس من الضلالة والانحراف ونشر الرسالة الحقة والعدالة في أرجاء العالم.

وما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في تفسير وعملوا الصالحات بأنه المواساة والمساواة للأخوة في الله، إنما هو من قبيل بيان المصداق الواضح للآية. والقرآن ذكر (الصالحات) هنا بصيغة الجمع مقرونة بالألف واللام لتدل على معنى العموم والشمول، ولتبين أنَّ طريق تفادي الخسران الطبيعي الحتمي بعد الإيمان، هو أداء الأعمال الصالحة جميعاً، وعدم الاكتفاء بعمل واحد أو بضع أعمال صالحات.

حقاً لو رسخ الإيمان في النفس لظهرت على الفرد مثل هذه الآثار، فالإيمان ليس فكرة جامدة قابعة في زوايا الذهن، وليس اعتقاداً خالياً من التأثير، إنما الإيمان يصوغ كل وجود الإنسان وفق منهج معين، والإيمان مثل مصباح منير مضيء في غرفة، فهو لا يضئ الغرفة فحسب، بل إنَّ أشعته تسطع من كل نوافذ الغرفة إلى الخارج بحيث يرى كل مار نوره بوضوح. وهكذا حين يسطع مصباح الإيمان في قلب إنسان، فإنَّ نوره ينعكس من لسان الإنسان وعينه وأذنه ويديه ورجليه. ومن هنا اقترن ذكر الصالح في أغلب مواضع القرآن بذكر الإيمان باعتبارها لازماً وملزوماً، فقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ ولما كان الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلا في ظل حركة اجتماعية تستهدف الدعوة إلى الحق ومعرفته من جهة، والدعوة إلى الصبر والاستقامة على طريق النهوض بأعباء الرسالة، فإنَّ هذين الأصلين تبعهما أصلان آخران هما في الحقيقة ضمان لتنفيذ أَصْلَي الإيمان والعمل الصالح.

الأصل الثالث/ التواصي بالحق. أي الدعوة العامة إلى الحق، ليميز كل أفراد المجتمع الحق من الباطل، ويضعوه نصب أعينهم، ولا ينحرفون عنه في مسيرتهم الحياتية. ومعنى (تواصوا) كما يقول الراغب أنْ يوصي بعضهم إلى بعض. و (الحق) في الأصل الموافقة والمطابقة للواقع. وذكر للكلمة معاني قرآنية متعددة من ذلك، القرآن، والإسلام، والتوحيد، والعدل، والصدق، والوضوح، والوجوب وأمثالها من المعاني التي ترجع إلى نفس المعنى الأصلي الذي ذكرناه. فعبارة تواصوا بالحق تحمل على

أي حال معنى واسعاً يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويشمل أيضاً تعليم الجاهل وإرشاده، وتنبيه الغافل، والدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، وواضح أنَّ المتواصين بالحق يجب أنْ يكونوا بدورهم من العاملين به والمدافعين عنه.

الأصل الرابع/ التواصي بالصبر. إذ بعد الإيمان والحركة في المسيرة الإيمانية تبرز في الطريق العوائق والموانع، وبدون الصبر والاستقامة لا يمكن المواصلة في إحقاق الحق والعمل الصالح والثبات على الإيمان. فإحقاق الحق في المجتمع لا يمكن من دون حركة عامة وعزم اجتماعي، ومن دون الاستقامة والوقوف بوجه ألوان التحديات.

مما تقدم نفهم أنَّ الأصول الأربعة التي ذكرتها هذه السورة المباركة تشكل المنهج الجامع لحياة الإنسان وسعادته. ولذلك ورد في الروايات أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا اجتمعوا لا يفترقون إلا بعد تلاوة سورة (والعصر) ويتذاكروا في مضامينها. والمسلمون اليوم إذا طبقوا هذه الأصول الأربعة في حياتهم الفردية والاجتماعية لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل وتدهور وتخلف، ولبدلوا ضعفهم وهزيمتهم انتصاراً، ولاقتلعوا شر الأشرار من على ظهر الأرض.

الإيمان والعمل الصالح

الإيمان والعمل الصالح من أهم المسائل التي أكد عليها القرآن الكريم وكذا الرويات المباركة، ومن السور القرآنية هذه السورة المباركة التي بيَّنت صفات الفائزين عند الله تعالى والتي كانت أولى تلك الصفات هو الإيمان والعمل الصالح وما يترتب عليهما من التواصي بالحق والصبر.

فالمؤمن له مكانة عظيمة عند الله تعالى، ويجب أنْ تتوفر فيه من الصفات التي لها أثر بالغ على شخصيته الإسلامية، والروايات قد بيَّنت ذلك، ونحن نذكر بعض ما يتعلق به:

* روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: بالإيمان يُستدلُّ على الصالحات، وبالصالحاتِ يستدل على الإيمان، وبالإيمان يُعْمَرُ العلم. (١)
* روي عن النبي ﷺ: ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمني، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدَّقه العمل. (٢)
* روي عن الإمام الصادق عليه السلام: إنَّ الله عزوجل وضع الإيمان على سبعة أسهم، على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم. (٣)
* وروي عنه عليه السلام: أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أنْ يواخي الرجل على دينه فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنِّفه (ليعيِّره) بها يوماً (ما). (٤)
* عن أمير المؤمنين عليه السلام: رأس الإيمان الصدق. (٥)

هذه الروايات وغيرها كثيرة جداً تبين عظمة الإيمان ومنزلة المؤمن والخصال التي يجب أنْ يتحلى بها لتكون الآثار على ذلك واضحة من خلال القول والعمل دون ادِّعاء الإيمان فقط، لذا نرى أنَّ القرآن الكريم قد قرن بين الإيمان والعمل الصالح وكيف يدعو كل منهما إلى الآخر وهذا من الأمور البديهية لكل عاقلٍ، فكل أمرٍ يؤمن به الإنسان ينبغي أن تظهر ذلك الإيمان على سلوكه بغضِّ النظر عما يؤمن به من المعتقدات والمبادىء وهذا ما نلمسه من عرض القرآن الكريم لصفات المؤمنين والكافرين وغيرهما.

---

(١) ميزان الحكمة عن نهج البلاغة.
(٢) المصدر نفسه عن بحار الأنوار.
(٣) المصدر نفسه عن الكافي.
(٤) المصدر نفسه عن معاني الأخبار.
(٥) المصدر نفسه عن غرر الحكم.

(سورة الهمزة)

سورة الهمزة (مكية) وعدد آياتها (تسع) آيات.

مباحث السورة / ولهذه السورة مباحث مهمة لها دور على الإنسان في تنظيم سلوكه تجاه الآخرين، نذكر منها:

أولاً: تتحدث عن أناس كرسوا كل همهم لجمع المال، وحصروا كل قيم الإنسان الوجودية في هذا الجمع.

ثانياً: ثم تتحدث عن بعض صفات هؤلاء الناس فتراهم يسخرون من الذين لا يملكون المال وبهم يستهزئون.

ثالثاً: تتحدث في النهاية عن المصير المؤلم الذي ينتظر هؤلاء، وكيف أنهم يلقون في جهنم صاغرين.

فضل تلاوتها / عن النبي ﷺ: مَنْ قرأ سورة الهمزة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه.

وعن الإمام الصادق ﷺ: من قرأ ويل لكل همزة في فريضة من فرائضه، نفت عنه الفقر وجلبت عليه الرزق وتدفع عنه ميتة السوء.

ورد في سبب النزول قال جمع من المفسرين إنَّ آيات هذه السورة نزلت في (الوليد بن المغيرة) الذي كان يغتاب النبي ويطعن فيه ويستهزئ به. وقيل إنها نزلت في أفراد آخرين من رؤوس المشركين وأعداء الإسلام مثل (الأخنس بن شريق) و(أمية بن خلف) و(العاص بن وائل) ولكن إنْ قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفي ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنها تستوعب كل الذين يحملون هذه الصفات ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

التفسير

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة) و (اللمزة) صيغتا مبالغة، الأولى من الهمز، وهي في الأصل الكسر، أي العائبون المغتابون يكسرون شخصية الآخرين، ولذلك اطلق عليهم اسم الهمزة. و(اللمزة) من اللمز، وهو اغتياب الآخرين وإلصاق العيوب بهم.

تبدأ هذه السورة بتهديد قارع وتقول لكل من يستهزئ بالآخرين ويعيبهم ويغتابهم ويطعن بهم بلسانه وحركاته وبيده وعينه وحاجبه. وللمفسرين آراء متعددة في معاني هاتين الكلمتين، هل معناهما واحد، وهو المغتابون الناس العائبون عليهم، أو إنَّ معناهما مختلف. نذكر منها:

أولاً: قال بعضهم إنَّ معناهما واحد، وذكرهما معا للتأكيد.

ثانياً: قيل الهمزة هو المغتاب، واللمزة العائب.

ثالثاً: قيل الهمزة هم العائبون بإشارة اليد والرأس، واللمزة من يعيب بلسانه.

رابعاً: قيل الأولى إشارة إلى العائب في حضور الشخص، والثانية للعائب في الغيبة.

خامساً: قيل الأولى تعني العائب في العلن، والثانية للعائب في الخفاء وبإشارة العين والحاجب.

وغيرها من الأقوال، ومن مجموع آراء اللغويين في الكلمتين يستفاد أنهما بمعنى واحد. ولهما مفهوم واسع يشمل كل ألوان إلصاق العيوب بالناس وغيبتهم والطعن والاستهزاء بهم باللسان والإشارة والنميمة والذم.

ثم تذكر الآية التالية منبع ظاهرة اللمز والهمز في الأفراد، وترى أنها تنشأ غالباً من كبرٍ وغرورٍ ناشئين بدورهما من تراكم الثروة لدى هؤلاء الأفراد.

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ الذي جمع مالاً وعدده بطريق مشروع أو غير مشروع، فهو انْشَدَّ بالمال انشداداً جعله منشغلاً دائماً بِعَدِّ المال والالتذاذ ببريق الدرهم والدينار، ومن الطبيعي أنْ يكون تعامل مثل هذا الإنسان بالسخرية والاستهزاء مع المؤمنين الفقراء. فهذه الآية تقصد الذين يدخرون الأموال ولا ينظرون إليها باعتبارها وسيلة بل هدفاً، ولا يحدهم قيد أو شرط في جمعها، حتى ولو كان من طريق الحرام والاعتداء على حقوق الآخرين وارتكاب كل دنيئة ورذيلة، ويعتبرون ذلك دليلاً على عظمتهم وشخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسد حاجاتهم الحياتية، ولذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلما كثرت أموالهم، وإلا فإنَّ المال في الحدود المعقولة ومن الطرق المشروعة ليس بمذموم، بل إنَّ القرآن الكريم عبر عنه في موضع بأنه (فضل الله) حيث يقول تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ من هنا يتبين أنَّ الظن بقدرة المال على الإخلاد هو الذي يدفع إلى جمع المال، وجمع المال أيضاً عامل على الاستهزاء والسخرية بالآخرين عند هؤلاء الغافلين. ولكن القرآن الكريم يرد على هؤلاء ويقول.

﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ (لينبذن) من نَبَذَ، أي –كما يقول الراغب في مفرداته– رمي الشيء لتفاهة قيمته. أي إنَّ الله سبحانه يرمي هؤلاء المغرورين المتعالين يوم القيامة في نار جهنم كموجودات تافهة لا قيمة لها، ليروا نتيجة كبرهم وغرورهم. و(الحطمة) صيغة مبالغة من (حطم) أي هشم، وهذا يعني أنَّ نار جهنم تهشم أعضاء هؤلاء. ويستفاد من بعض الروايات أنَّ الحطمة ليست كل نار جهنم، بل هي طبقة رهيبة في حرارتها. ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ عبارة (نار الله) دليل على عظمة هذه النار، و (الموقدة) تعني استعارها المستمر. والعجيب أن هذه النار ليست مثل نار الدنيا التي تحرق الجلد أولا ثم تنفذ إلى الداخل، بل هي تبعث بلهبها أولاً إلى القلب، وتحرق الداخل وتبدأ أولاً بالقلب ثم بما يحيطه، ثم تنفذ إلى الخارج ....

ما هذه النار التي تبعث بشررها إلى قلب الإنسان أولاً ؟ !

ما هذه النار التي تحرق الداخل قبل الخارج ؟ ! فليتأمل الإنسان في ذلك

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ (مؤصدة) من الإيصاد، بمعنى الإحكام في غلق الباب. فهؤلاء في الحقيقة يقبعون في غرف تعذيب مغلقة الأبواب لا طريق للخلاص منها ، كما كانوا يجمعون أموالهم في الخزانات المغلقة الموصدة. و (العمد) جمع عمود، و(ممددة) تعني طويلة. وقال جمع من المفسرين إنها الأوتاد الحديدية العظيمة التي تغلق بها أبواب جهنم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبداً.

الكبر والغرور أساس الذنوب الكبيرة

إنَّ الاستعلاء والتكبرعلى الآخرين بلاء عظيم يصيب الإنسان فيدفعه إلى ارتكاب أنواع المعاصي، كالغفلة عن الله، والكفران بالنعم، والانغماس في الأهواء والشهوات، والاستهانة بالآخرين، والاستهزاء بالمؤمنين .... كلها من الآثار المشؤومة لهذه الصفة الدنيئة، فالأفراد الذين يعانون من عُقَدِ النقص ما إنْ تتوفر لهم مكنة حتى يستفحل فيهم الكبر والغرور بحيث لا يقيمون للآخرين وزناً، ويودي ذلك إلى انفصالهم عن المجتمع وانفصال المجتمع عنهم، يغرقون في عالم وهمي، ويرون أنفسهم موجوداً متميزاً، وهذا يدفعهم إلى الاستهانة بأرواح الآخرين وأعراضهم وأمواله وينشغلون بالهمز واللمز، ويخالون أنهم بإلصاق العيب بالآخرين وذمهم يزيدون من عظمتهم وشخصيتهم. وفي بعض الروايات شبه هؤلاء الأفراد بالعقرب اللاسعة. وجاء في حديث عن رسول الله ﷺ قال: رأيت ليلة الإسراء قوماً يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه، ويقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم، فقلت : يا جبرائيل من هؤلاء ؟ فقال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون.

(سورة الفيل)

سورة الفيل (مكية) وعدد آياتها (خمس) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة كما يظهر من اسمها تشير إلى الحادثة التاريخية التي اقترنت بولادة رسول الله ﷺ وفيها نجى الله سبحانه الكعبةَ من شر جيشٍ كافرٍ كبيرٍ تجهز من اليمن ممتطياً الفيل. فهذه السورة تذكر الناس بتلك القصة العجيبة التي كان كثير من أهل مكة يحفظون أحداثها في ذاكرتهم لأنها وقعت في الماضي القريب، والتذكير بهذه القصة فيه تحذير للكفار المغرورين المعاندين، كي يفهموا ضعفهم تجاه قدرة الله تعالى الذي أباد جيشاً عظيماً بطير أبابيل تحمل حجارة من سجيل، وهو سبحانه إذن قادر على أنْ يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فضل تلاوتها / عن الإمام الصادق عليه السلام: مَنْ قرأ في الفريضة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل شهد له يوم القيامة كل سهل وجبل ومدر بأنه كان من المصلين وينادي يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدي، قبلت شهادتكم له أو عليه، ادخلوا عبدي الجنة ولا تحاسبوه فإنه ممن أحبه وأحب عمله. واضح أنَّ كل هذه الفضيلة وهذا الثواب لمن كانت قراءته باعثاً على انكسار روح الغرور في نفسه، وعلى السير في طريق رضا الله سبحانه.

ورد في سبب النزول عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: كان أبو طالب يضرب عن رسول الله ﷺ بسيفه إلى أنْ قال: فقال أبو طالب: يا ابن أخ إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصة ؟

قال: لا بل إلى الناس أرسلت كافة الأبيض والأسود والعربي والعجمي والذي نفسي بيده لأدعونَّ إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومَنْ على رؤوس الجبال ومَنْ في لجج البحار، ولأدعونَّ ألسنة فارس والروم،

فحيرت قريش واستكبرت وقالت: أما تسمع إلى ابن أخيك وما يقول والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من أرضنا ولقلعت الكعبة حجراً حجراً، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، وأنزل في قولهم لقلعت الكعبة حجراً حجراً ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل إلى آخر الآية.

وقصة أصحاب الفيل ذكر المفسرون والمؤرخون هذه القصة بأساليب مختلفة واختلفوا في سنة وقوعها، لكن أصل القصة متواترة .... تراجع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥ ﴾

التفسير

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴾ يخاطب الله رسوله ﷺ في الآية الأولى من السورة ويقول له : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ لقد جاؤوا بجيش جرار مجهز بالعدة والعدد ليهدموا الكعبة، والله سبحانه دحرهم بجيش في ظاهره صغير بسيط. وأباد الفيلة بطير صغير، وهدم الآلة الحربية المتطورة في ذلك الزمان بحجارة من سجيل، ليتضح ضعف هذا الإنسان المغرور المتكبر أمام قدرة الله.

والتعبير بجملة (ألم تر) في الآية مع أنَّ الحادثة وقعت قبل ولادة النبي ﷺ أو مقترنة بولادته، يعود إلى أنَّ الحادثة المذكورة قريبة العهد من عصر النبي ﷺ كما إنها بلغت من الشهرة والتواتر وكأنَّ النبي رأها بعينه المباركة، هذا إلى أنَّ جمعاً من معاصري الرسول كانوا قد رأوها بأعينهم.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها وليقيموا بدلها كعبة اليمن، وليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد، لكنه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرة وعظمة بعد أنْ ذاع نبأ أصحاب الفيل في جزيرة العرب، وأصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذي قبل، وأسبغ على هذه الديار مزيدا من الأمن. كيدهم إذن صار في تضليل ، أي في ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم . ثم تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾(أبابيل) لم تكن في لهجات العرب المعروفة اسماً لطائربل إنها صفة، وقيل إنَّ معناها جماعات متفرقة. أي إنَّ هذه الطير كانت تأتي على شكل مجموعات، والمشهور أنَّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر في اتجاه أصحاب الفيل.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾فإنَّ كل واحدة من هذه الطير كانت تحمل ثلاث حجارات أصغر من الحمصة، واحدة في منقارها واثنين في أرجلها. وما أنْ تسقط هذه الحجارة على أحد حتى تهلكه، و(سجيل) الحجارة الصلبة الشديدة.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾و (العصف) هو النبات الجاف المتهشم، أي هو التبن بعبارة أخرى. وقال (مأكول) إشارة إلى أنَّ هذا التبن قد سحق مرة أخرى بأسنان الحيوان، ثم هشم ثالثة في معدته، وهذا يعني أنَّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجارة عليهم.

وهذا التعبير إضافة إلى ما له من معنى الإبادة التامة، يحمل معنى التفاهة والضعف مما صار إليه هؤلاء المهاجمون الطغاة المستكبرون والمتظاهرون بالقوة.

أهداف قصة الفيل من السورة التالية (سورة لإيلاف)

ولذكر هذه القصة وغيرها من القصص القرآني أهداف عدة، ونستطيع أنْ نجمل بعض أهداف هذه القصة بما يلي:

أولاً: التذكير بنعمة إلهية كبرى من الله سبحانه بها على قريش، وتفهيمهم أنه لولا لطف الله سبحانه وفضله لما بقي أثر لمكة ولا للكعبة ولا لقريش، لعل ذلك يكون عاملاً على كبح جماح هؤلاء المغرورين، وعلى قبول دعوة الدين المبين.

ثانياً: إنَّ هذه الحادثة اقترنت بولادة رسول الله ﷺ وكانت ممهدة للبعثة المباركة، وبزوغ فجر الإسلام.

ثالثاً: تهديد كل طغاة العالم من قريش وغير قريش ليعلموا أنهم لا يستطيعون أبداً أنْ يقاوموا أمام قدرة الله تعالى، فما أجدر بهم أنْ يعودوا إلى رشدهم، ويخضعوا لأمر الله، ويستسلموا للحق والعدل.

رابعاً: تبين أهمية هذا البيت الكبير، فالأعداء الذين استهدفوا هدم الكعبة، ونقل مركزية هذا الحرم الإبراهيمي إلى مكان آخر، قد واجهوا من العذاب ما أصبح عبرة للأجيال، وما زاد من أهمية هذا المركز المقدس.

خامساً: تؤكد على مشيئة الله سبحانه في جعل هذا الحرم آمنا استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وبالتالي فإنها تريد التأكيد على النصر الإلهي المبين لأنبيائه وأوليائه كما وعدهم وعدم اليأس من ذلك مهما بلغت قوة العدو فإنَّ الله تعالى ناصرهم، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾

(سورة قريش)

سورة قريش (مكية) وعدد آياتها (أربع) آيات.

مباحث السورة / تتضمن هذه السورة بيان نعمة الله على قريش ولطفه لهم ومحبته له، كي يحرك فيهم دافع الشكر ويحثهم على عبادة رب هذا البيت العظيم الذي يستمدون منه كل مفاخرهم وشرفهم.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: مَنْ قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها.

هذه الفضيلة دون شك لمن عبد رب البيت حق عبادته، وصان حرمة البيت كما يجب، وتشربت نفسه برسالة هذا المركز التوحيدي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

التفسير

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ (إيلاف) مصدر آلف و(آلفه) أي جعله يألف، أي جعله يجتمع اجتماعاً مقروناً بالانسجام والأنس والالتيام.

في سورة الفيل جاء ذكر إبادة أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة وهذه السورة التي تعتبر امتداداً للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفيل كعصف مأكول، لكي تأتلف قريش في هذه الأرض المقدسة وتتهيأ بذلك مقدمات ظهور نبي الإسلام ﷺ، فكثير من أهل الحجاز كانوا يحجّون البيت كل سنة، ويقترن حجهم بنشاط أدبي واقتصادي في هذا البلد الأمين، كل ذلك كان يحدث في ظل الجو الآمن، ولو أنَّ هذا الأمن قد انعدم أو أنَّ الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهة وأمثاله لما كان لأحد ألفة بهذه الأرض.

وذكر لكلمة (قريش) عدة معانٍ فهي:

١- في الأصل نوع من الأحياء البحرية الضخمة التي تبتلع كل ما يصادفها كما يقول المفسرون واللغويون، من هنا فإنَّ انتخاب هذا الاسم لهذه القبيلة يعود إلى اقتدار هذه القبيلة وقوتها، وإلى استغلال هذه القوة في الانقضاض على الآخرين.

٢- وقيل إنَّ قريشاً من القرش وهو الاكتساب، لأنَّ قريشاً كانت مشغولة دوماً بالتجارة والكسب.

٣- وقيل إنَّ معنى (القرش) التفتيش والمراجعة، وسميت قريش بذلك لتفقدها أحوال الحجاج والمسارعة لمساعدتهم.

٤- و(القرش) في اللغة ورد بمعنى الاجتماع أيضاً، وإذا كان هذا المعنى مقصوداً في التسمية فذلك يعود إلى ما كانت تتصف به هذه القبيلة من اجتماع وانسجام.

على أي حال اسم قريش لم يقترن بسمعة طيبة، فهم وإنْ كانوا عشيرة الرسول إلا أنهم ناصبوا الإسلام أشد العداء، ولم يألوا جهداً في وضع العراقيل أمام الدعوة والوقوف بوجهها وتعذيب الدعاة، و القرائن التاريخية تشير إلى أنَّ هذه القبيلة كانت في الجاهلية أيضاً تستثمر الناس وتستغلهم، ولذلك وجدت في الإسلام خطراً على مصالحها لدعوته إلى تحرير الإنسان، وشنت عليه حرباً لا هوادة فيها إلى أن اندحرت أمام قدرة الإسلام.

﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾ إنَّ مكة تقع في واد غير ذي زرع، والرعي فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكة غالباً من قوافل التجارة، في فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن في الجنوب حيث الهواء معتدل، وفي فصل الصيف إلى أرض الشام في الشمال حيث الجو لطيف. والشام واليمن كانا من مراكز التجارة آنئذ، ومكة والمدينة حلقتا اتصال بينهما. فهذه هي رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

والمقصود بـ (إيلافهم) إما جعلهم يألفون الأرض المقدسة خلال رحلاتهم وينشدون إليها لما فيها من أمن، كي لا تغريهم أرض اليمن والشام، فيسكنون فيها ويهجرون مكة.

وإما يكون المقصود إيجاد الألفة بينهم وبين سائر القبائل طوال مدة الرحلتين، لأنَّ الناس بدؤوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام ويعيرونها أهمية خاصة بعد قصة اندحار جيش أبرهة. وعلى ذلك فيجب عليهم التوجه إلى الله تعالى بعبادته والشكر له على هذه المنزلة.

﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾ إنَّ هذه النعم الإلهية التي أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أنْ تدفعهم إلى عبادة رب البيت لا الأوثان. فليعبدوا رب هذا البيت الذي جعل تجارتهم رائجة مريحة ومربحة، ودفع عنهم الخوف والضرر، كل ذلك باندحار جيش أبرهة، وبفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام مؤسس الكعبة. لكنهم لم يقدِّروا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس ببيت للأوثان. (١)

(١) ينبغي التنبيه على مسألة في الصلاة عند القراءة كما ذكرها الفقهاء في رسائلهم العملية، ذكر السيد الخوئي في منهاج الصالحين مسألة (٦٠٥): (سورتا الفيل والإيلاف سورة واحدة، وكذا سورتا الضحى وألم نشرح، فلا تجزي واحدة منهما بل لا بد من الجمع بينهما مرتباً مع البسملة الواقعة بينهما).

(سورة الماعون)

سورة الماعون (مكية) وعدد آياتها (سبع) آيات.

مباحث السورة / السورة بشكل عام تذكر صفات وأعمال منكري القيامة في خمس مراحل، فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون في سبيل الله، وعلى طريق مساعدة اليتامى والمساكين، ثم هم يتساهلون في الصلاة، ويعرضون عن مساعدة المحتاجين.

فضل تلاوتها / عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: مَنْ قرأ أرأيت الذي يكذب بالدين في فرائضه ونوافله قَبِلَ الله صلاته وصيامه، ولم يحاسبه بما كان منه في الحياة الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

التفسير

(يَدُعُّ) أي يدفع دفعاً شديداً ويطرد بخشونة. و (يَحُضُّ) أي يحرض ويرغب الآخرين على شيء، والحض مثل الحث، إلا أنَّ الحث -كما يقول الراغب- يكون بسوقٍ وسير، والحض لا يكون بذلك. وصيغة المضارع في الفعلين (يدع) و (يحض) تدل على استمرارهم على مثل هذا العمل في حق الأيتام والمساكين. و(الْمَاعُونَ) من المعن وهو الشئ القليل. وكثير من المفسرين قالوا إنَّ المقصود من (الماعون) الأشياء البسيطة التي يستعيرها أو يقتنيها الناس وخاصة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، والماء، والنار، والأواني وأمثالها. فواضح أنَّ الذي يبخل في إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنيء عديم الإيمان.

هذه السورة المباركة تبدأ بسؤال موجه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الآثار المشؤومة لإنكار المعاد، وإنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمة وانعكاساته على أعمال الإنسان، وفي هذه السورة ذكرت خمسة آثار لهذا الإنكار منها :

١- طرد اليتيم.

٢- وعدم الحث على إطعام المسكين. أي إنَّ الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، ولا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

٣- لا يقيمون للصلاة وزناً، ولا يهتمون بأوقاتها، ولا يراعون أركانها وشروطها وآدابها.

٤- الرياء في الصلاة والعبادة دون الإخلاص فيها.

٥- ويمنعون عن إعطاء الخيرات والصدقة أو الحقوق الواجبة.

فهذه مجمل الصفات الخمس التي أشارت إليها السورة المباركة في وصف هؤلاء المكذبين بيوم المعاد.

ويلاحظ هنا بشأن الأيتام، أنَّ العواطف الإنسانية تجاه هؤلاء أكثر أهمية من إطعامهم وإشباعهم، لأنَّ آلام اليتيم تأتي من فقدانه مصدر العاطفة والغذاء الروحي والتغذية الجسمية تأتي في المرحلة التالية.

ومرة أخرى نرى القرآن يتحدث عن إطعام المساكين، وهو من أهم أعمال البر. وفي الآية إشارة إلى أنك إذا لم تستطع إطعام المساكين، فشجع الآخرين على ذلك.

وكذلك الإشارة إلى السهو في الصلاة المقرون بالتقصير. ويلاحظ أنَّ الآية لم تقل (في صلاتهم ساهون) لأنَّ السهو في الصلاة يعرض لكل فرد، ولكنها قالت (عن صلاتهم ساهون) فهم يسهون عن الصلاة بأجمعها.

إضافة إلى التأكيد على مرض الرياء وبيان السبب الأساس له هو عدم الإيمان بيوم القيامة، وعدم الانشداء بطلب الثواب الإلهي. وإلا كيف يمكن للإنسان أنْ يترك مثوبة الله ويتجه إلى الناس ليتزلف إليهم ؟ ! "

والمنع والبخل الشديد الذي يتصف به هؤلاء لعدم الإيمان.

فخلاصة هذه السورة القصيرة، ذكر الله سبحانه مجموعة من الصفات الرذيلة التي إن اتصف بها شخص فهي دليل عدم إيمانه ودناءته وحقارته، ويلاحظ أنها جميعاً فروع لظاهرة التكذيب بيوم الدين أي بيوم الجزاء. إهانة اليتامى، وترك إطعام المساكين، والتهاون في الصلاة، والرياء، وعدم التعاون مع الناس حتى في إعارة الأشياء الصغيرة، تشكل بمجموعها طبيعة حياة هؤلاء المكذبين.

الرياء وأثره على النفس الإنسانية

التظاهر والرياء بلاء اجتماعي كبير، فمن كان يعمل لله جعل أساس عمله مستحكماً، وسعى بكل جهده إلى أنْ يستفيد منه الناس أكثر الاستفادة، لكن المتظاهر المرائي يكتفي بزخرفة الظاهر وتنميقه من دون أنْ يهتم بعمق العمل وباطنه وبحاجة المحتاجين إليه. والروايات في ذم الرياء كثيرة، بعضها وصفته بأنه نوع من الشرك. وهنا نذكر بعضاً منها:

١ – عن رسول الله ﷺ: سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق، فلا يستجيب لهم!

٢ – وعن رسول الله ﷺ: إنَّ المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر ! يا فاجر ! يا غادر ! يا خاسر ! حبط عملك، وبطل أجرك، فلا خلاص لك فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له.

٣– روي عن النبي ﷺ: إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء.

٤– روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: اعلموا أنَّ يسير الرياء شرك.

٥ – وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال مخاطباً زرارة (أحد أصحابه): من عمل للناس كان ثوابه على الناس يا زرارة ! كل رياء شرك.

فالإخلاص في العمل هو الغاية التي يجب أن يصبو إليها المؤمن ليرى آثار ذلك في الدنيا والآخرة.

(سورة الكوثر)

سورة الكوثر (مكية) وعدد آياتها (ثلاث) آيات.

مباحث السورة / ذكر في سبب نزول السورة أنَّ (العاص بن وائل) رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل (العاص) قيل له من الذي كنت تتحدث معه ؟ قال: ذلك الأبتر. وكان قد توفي عبد الله بن رسول الله ﷺ وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر، فسمته قريش عند موت ابنه أبتر. ولمزيد من التوضيح نذكر أنَّ النبي كان له ولدان من أم المؤمنين خديجة عليها السلام أحدهما (القاسم) والآخر (الطاهر) ويسمى أيضاً عبد الله، وتوفي كلاهما في مكة وأصبح النبي من دون ولد. فهذه المسألة وفرت للأعداء فرصة الطعن بالنبي فسموه الأبتر، والعرب حسب تقاليدها كانت تعير أهمية بالغة للولد، وتعتبره امتداداً لمهام الأب. وبعد وفاة عبد الله خال الأعداء أنَّ الرسالة سوف تنتهي بوفاة الرسول ﷺ فالسورة نزلت لترد على هؤلاء الأعداء بشكل إعجازي ولتقول لهم: إنَّ عدو الرسول هو الأبتر، وأنَّ الرسالة سوف تستمر وتتواصل وهذه البشرى بددت من جهة آمال الأعداء وطيبت خاطر النبي ﷺ بعد أن اغتمَّ من لمز الأعداء وتآمرهم.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: مَنْ قرأها سقاه الله من أنهار الجنة، وأعطي من الأجر بعدد كل قربان قربه العباد في يوم عيد، ويقربون من أهل الكتاب والمشركين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

التفسير

الحديث في كل هذه السورة موجه إلى النبي الأكرم ﷺ (مثل سورة والضحى، وسورة ألم نشرح)، وأحد أهداف هذه السور تسلية قلب النبي إزاء ركام الأحداث المؤلمة وطعون الأعداء.

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر) من الكثرة، وبمعنى الخير الكثير، ويسمى الفرد السخي كوثراً.

وذكر للكوثر معانٍ عدة أوردها المفسرون، نذكر منها:

١- نهر في الجنة. حيث ورد أنه لما نزلت سورة الكوثر صعد رسول لله ﷺ المنبر فقرأها على الناس، فلما نزل قالوا: يا رسول الله ما هذا الذي أعطاك الله ؟ قال: نهر في الجنة أشد بياضاً من اللبن، وأشد استقامة من القدح، حافتاه قباب الدر والياقوت. وعن الإمام الصادق ﷺ في معنى الكوثر قال: نهر في الجنة أعطاه الله نبيه عوضاً من ابنه.
٢- وقيل هو حوض النبي الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة.
٣- وقيل هو النبوة والكتاب.
٤- وقيل هو القرآن.
٥- وقيل كثرة الأصحاب والأشياع.
٦- وقيل هو كثرة النسل والذرية وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام حتى لا يحصى عددهم، واتصل إلى يوم القيامة مددهم،
٧- وروي عن الصادق عليه السلام أنه الشفاعة.

ولكن هذه التفاسير تبين غالباً المصاديق البارزة لمعناها الواسع وهو (الخير الكثير).

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ والأمر بالصلاة والنحر للرب مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام ونحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من الله. وتعبير (لربك) دليل واضح على وجوب قصد القربة في العبادات .... وفي آخر آية يقول الله سبحانه لنبيه رداً على ما وصمه به المشركون.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الشانئ) هو المعادي، وهو العداء والحقد. و(أبتر) في الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب. وصدر هذا التعبير من أعداء الإسلام لانتهاك الحرمة والإهانة. والقرآن يقول لهؤلاء الأعداء في الواقع إنكم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول الله. من جهة أخرى كما ذكرنا في سبب نزول السورة، إنَّ قريش كانت تترقب انتهاء الرسالة بوفاة النبي ﷺ لأنهم كانوا يقولون: إنَّ النبي بلا عقب، والقرآن يقول للنبي: لست بلا عقب، بل شانئك بلا عقب.

فاطمة الزهراء عليها السلام والكوثر

قلنا إنَّ (الكوثر) له معنى واسع يشمل كل خير وهبه الله لنبيه ﷺ ومصاديقه كثيرة، لكن كثيراً من علماء الشيعة ذهبوا إلى أنَّ فاطمة الزهراء عليها السلام من أوضح مصاديق الكوثر، لأنَّ رواية سبب النزول تقول: إنَّ المشركين وصموا النبي بالأبتر، أي بالشخص المعدوم العقب، وجاءت الآية لتقول: إنا أعطيناك الكوثر، ومن هنا نستنتج أنَّ الخير الكثير أو الكوثر هو فاطمة الزهراء عليها السلام لأنَّ نسل الرسول ﷺ انتشر في العالم بواسطة هذه البنت الكريمة، وذرية الرسول من فاطمة لم يكونوا امتداداً جسمياً للرسول ﷺ فحسب، بل كانوا امتداداً رسالياً صانوا الإسلام وضَحّوا من أجل المحافظة عليه وكان منهم أئمة الدين الاثني عشر، أو الخلفاء الاثني عشر بعد النبي كما أخبر عنهم رسول الله ﷺ في الأحاديث المتواترة بين السنة والشيعة، وكان منهم أيضاً الآلاف المؤلفة من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين وقادة الأمة. والفخر الرازي في استعراضه لتفاسير معنى الكوثر يقول: القول الثالث (الكوثر) أولاده. قالوا لأنَّ هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم.

(سورة الكافرون)

سورة الكافرون (مكية) وعدد آياتها (ست) آيات.

مباحث السورة /

أولاً: من لحن السورة نفهم أنها نزلت في زمان كان المسلمون في أقلية والكفار في أكثرية، والنبي ﷺ يعاني من الضغوط التي تطلب منه أنْ يهادن المشركين، وأمام هذه الضغوط كان النبي يعلن صموده وإصراره على المبدأ.

ثانياً: في السورة دروس وعبر لكل المسلمين أنْ لا يساوموا أعداء الإسلام في مبادئ الدين مهما كانت الظروف.

ثالثاً: في السورة تكرر مرتين نفي عبادة الإنسان المسلم لما يعبده الكافرون، وهو تأكيد يستهدف بث اليأس في قلوب الكافرين. كما تكرر مرتين نفي عبادة الكافر لما يعبده المسلمون من إله واحد أحد، وهذا دليل على تعنتهم ولجاجهم.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: من قرأ قل يا أيها الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرأ من الشرك، ويعافى من الفزع الأكبر. وعبارة (ربع القرآن) قد تعني أنَّ مسألة مواجهة الشرك والكفر تحتل ربع القرآن وجاءت عصارتها في هذه السورة المباركة. وإنما كانت هذه السورة عاملاً على تباعد مردة الشياطين عن قارئها، لأنها رفض حاسم للشرك والمشركين، والشرك أهم حبائل الشيطان. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان أبي يقول: قل يا أيها الكافرون ربع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال: أعبد الله وحده، أعبد الله وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ الخطاب في هذه الآية إلى قوم مخصوصين من الكافرين كما ذكر كثير من المفسرين، والألف واللام للعهد. وإنما ذهب المفسرون إلى ذلك لأنَّ الآيات التالية تنفي أنْ يعبد الكافرون ما يعبده المسلمون وهو الله سبحانه في الماضي والحال والمستقبل، والمجموعة المخاطبة بهذه الآيات بقيت بالفعل على كفرها وشركها حتى آخر عمرها، بينما دخل كثير من المشركين بعد فتح مكة في دين الله أفواجاً. (١)

التوحيد والشرك

السورة تطرح حقيقة التضاد والانفصال التام بين منهج التوحيد ومنهج الشرك، وعدم وجود أي تشابه بينهم ، التوحيد يشد الإنسان بالله بينما الشرك يجعل الإنسان غريباً عن الله.

التوحيد رمز الوحدة والانسجام في جميع المجالات، والشرك مبعث التفرقة والتمزق في كل الشؤون.

التوحيد يسمو بالإنسان على عالم المادة والطبيعة، ويربطه بما وراء الطبيعة بالوجود اللامتناهي لرب العالمين، بينما الشرك يجعل الإنسان يرسف في أغلال الطبيعة، ويربطه بموجودات ضعيفة فانية.

من هنا فالنبي الأعظم ﷺ وسائر الأنبياء الكرام لم يهادنوا الشرك لحظة واحدة، بل جعلوا مقارعته في رأس قائمة أعمالهم. والسائرون على طريق الله من الدعاة والعلماء الإسلاميين يتحملون مسؤولية مواصلة هذه المسيرة، وعليهم أنْ يعلنوا براءتهم من الشرك والمشركين في كل مكان. وهذا هو طريق الإسلام الأصيل.

---

(١) روي أنَّ السورة نزلت في نفر من قريش منهم "الحارث بن قيس السهمي" و "العاص بن أبي وائل" و "الوليد بن المغيرة" ، و "أمية بن خلف" وغيرهم من القرشيين قالوا: هلم يا محمد فاتبع ديننا نتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهتك سنة ....

(سورة النصر)

سورة النصر (مدنية) وعدد آياتها (ثلاث) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، وفيها بشرى النصر العظيم ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وتدعو النبي أنْ يسبح الله ويحمده ويستغفره شكراً على هذه النعمة.

فضل تلاوتها / عن رسول لله ﷺ: مَنْ قرأها فكأنما شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة. وعن الإمام الصادق ﷺ: مَنْ قرأ إذا جاء نصر الله والفتح في نافلة أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من حر جهنم. واضح أنَّ هذه الفضيلة لمن قرأ هذه السورة فسلك مسلك رسول الله وعمل بسيرته وسنته، لا أنْ يكتفي بلقلقة اللسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

التفسير

هذه الآيات الثلاث القصار في ألفاظها العميقة في محتواها تتضمن مسائل دقيقة كثيرة نسلط عليها الضوء كي تساعدنا في فهم معنى السورة، وإجمالاً فهي:

١ – (النصر) في الآية أضيف إلى الله (نصر الله) وفي كثير من المواضع القرآنية نجد نسبة النصر إلى الله. يقول سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، ويقول: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهذا يعني أنَّ النصر في أي حال لا يكون إلا بإرادة الله، نعم لابد من إعداد القوة للغلبة على العدو.

٢ – في هذه السورة دار الحديث عن نصرة الله، ثم عن الفتح والانتصار، وبعدها عن اتساع رقعة الإسلام ودخول الناس في دين الله زرافات ووحداناً.

٣ – (الفتح) هنا مذكور بشكل مطلق، والقرائن تشير –كما ذكرنا– أنه فتح مكة الذي كان له ذلك الصدى الواسع المذكور في الآية، فإنَّ فتح مكة فتح في الواقع صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، لأنَّ مركز الشرك قد تلاشى بهذا الفتح وانهدمت الأصنام، وتبددت آمال المشركين وأزيلت السدود والموانع من طريق إيمان الناس بالإسلام. من هنا يجب أنْ نعتبر فتح مكة بداية مرحلة تثبيت أسس الإسلام واستقراره في الجزيرة العربية ثم في العالم أجمع.

٤ – في نهاية السورة يأمر الله سبحانه نبيه (بل كل المؤمنين) بثلاثة أمور ليجسد آلاء الشكر وليتخذ الموقف الإيماني المناسب من النصر الإلهي وهي: التسبيح، والحمد، والاستغفار.

٥ – رسول الله ﷺ مثل كل الأنبياء معصوم، فلماذا الاستغفار ؟ والجواب إنَّ هذا تعليم لكل الأمة.

٦ – عبارة إنه كان تواباً تبين علة الاستغفار. أي استغفره وتب إليه لأنه سبحانه تواب، وقد تكون العبارة تستهدف تعليم المسلمين العفو، فكما إنَّ الله تواب كذلك أنتم ينبغي أنْ تقبلوا توبة المذنبين بعد الانتصار ما أمكنكم ذلك، وأنْ لا تطردوهم ما داموا منصرفين عن المخالفة والتآمر. ولذلك اتخذ رسول الله ﷺ في فتح مكة موقف الرحمة والرأفة مقابل الأعداء الحاقدين.

(سورة تبت "المسد")

سورة تبت (مكية) وعدد آياتها (خمس) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة الوحيدة التي تحمل هجوماً شديداً بالاسم على أحد أعداء الإسلام والنبي ﷺ آنذاك وهو أبو لهب، ومن السورة يتضح أنه كان يحمل عداء خاصاً للنبي ﷺ ويمارس هو وزوجه كل أنواع الأذى بحقه. القرآن يصرح بأنهما أهل جهنم، وليس لهما طريق للنجاة، وتحققت هذه النبوءة القرآنية، وكلاهما مات على الكفر.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: من قرأها رجوت أنْ لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة. بديهي أنَّ هذه الفضيلة نصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيرة أبي لهب، لا من يقرأها بلسانه ويعمل عمل أبي لهب في أفعاله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ هذه السورة ترد على بذاءات أبي لهب عم النبي ﷺ، فكان من ألد أعداء الإسلام، وحين صدح النبي بدعوته وأعلنها على قريش وأنذرهم بالعذاب الإلهي قال: تباً لك ألهذا دعوتنا جميعا " ؟ ! و(التب) يعني الخسران المستمر كما يقول الراغب في مفرداته أو هو الخسران المنتهي بالهلاك كما يقول الطبرسي في مجمع البيان.

وهنا يثار تساؤل بشأن سبب ذم هذا الشخص باسمه –وهو خلاف نهج القرآن– وبهذه الشدة.

يتضح ذلك لو عرفنا مواقف أبي لهب من الدعوة.

اسمه (عبد العزى) وكنيته (أبو لهب) وقيل إنه كني بذلك لحمرة كانت في وجهه.

وامرأته (أم جميل) أخت أبي سفيان، وكانت من أشد الناس عداوة وأقذعهم لساناً تجاه النبي ﷺ ودعوته. إنَّ أبا لهب كان يتتبع النبي ﷺ غالباً كالظل، وما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلا سلكه، وكان يقذعه بأفظع الألفاظ، ومن هنا كان أشد أعداء الرسول والرسالة. ولذلك جاءت هذه السورة لترد على أبي لهب وامرأته بصراحة وقوة. إنه الوحيد الذي لم يوقع على ميثاق حماية بني هاشم للرسول ﷺ ووقف في صف الأعداء، واشترك في عهودهم. من كل ما سبق نفهم الوضع الاستثنائي لهذه السورة.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (الجيد) هو الرقبة، وجمعه أجياد. وقال بعض اللغويين: الجيد والعنق والرقبة لها معنى واحد، مع تفاوت هو إنَّ الجيد أعلى الصدر، والعنق القسم الخلفي من الرقبة ، والرقبة لجميعها، و (مسد) هو الحبل المفتول من الألياف. وقيل : حبل يوضع على رقبتها في جهنم، له خشونة الألياف وحرارة النار وثقل الحديد. وإنَّ التعبير أساساً للتحقير والإهانة ....

الرسول ﷺ ودعوة قرابته

هذه السورة المباركة تؤكد مرة أخرى أنَّ القرابة لا قيمة لها إنْ لم تكن مقرونة برباط رسالي، وحملة الرسالة الإلهية كانوا لا يلينون أمام المنحرفين والجبابرة والطغاة مهما كانت درجة قربهم منهم، مع أنَّ أبا لهب كان من أقرب أقرباء الرسول ﷺ فقد عامله الإسلام مثل سائر المنحرفين والضالين، فوجَّهَ إليه أشد الرد والتوبيخ. وعلى العكس ثمة أفراد بعيدون عن الرسول نسباً وقومية ولغة، كانوا بسبب ارتباطهم الرسالي من القرب من الرسول ﷺ حتى قال في سلمان: سلمان منا أهل البيت. إنَّ آيات هذه السورة توجه التقريع لأبي لهب وزوجه، ولكن كان ذلك لما اتصفا به من صفات، من هنا فإنَّ كل فرد أو جماعة على هذه الصفات سيواجهون مصيراً مشابهاً أيضاً.

(سورة التوحيد "الإخلاص")

سورة الإخلاص (مكية) وعدد آياتها (أربع) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة كما هو واضح من اسمها تركز على توحيد الله، وفي أربع آيات قصار تصف التوحيد بشكل جامع لا يحتاج إلى أية إضافة.

فضل تلاوتها / عن رسول الله ﷺ: أيعجز أحدكم أنْ يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ قيل: يا رسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال: اقرؤوا قل هو الله أحد. وعن رسول الله ﷺ: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع أنْ يقرأ في دبر الفريضة بقل هو الله أحد. فإنه من قرأها جمع له خير الدنيا والآخرة وغفر الله له ولوالديه وما ولدا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾

التفسير

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الضمير (هُوَ) في الآية للمفرد الغائب ويحكي عن مفهوم مبهم، وهو في الواقع يرمز إلى أنَّ ذاته المقدسة في نهاية الخفاء، ولا تنالها أفكار الإنسان المحدودة وإنْ كانت آثاره أظهر من أي شيء آخر، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ثم بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة وتقول: (اللَّهُ أَحَدٌ) وقل في الآية تعني أنْ أظهر هذه الحقيقة وبينها. ولفظ الجلالة (اللَّهُ) مشتق من (وَلَهَ) أي تحير، لأنَّ العقول تحير في ذاته المقدسة. وفي ذلك ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: الله معناه المعبود الذي يألَهُ فيه الخلق، ويؤله إليه، والله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات. وقيل: إنَّ لفظ الجلالة مشتق من (آله) بمعنى عبد، والإله هو المعبود. حذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى. ومهما يكن الأصل المشتق منه لفظ الجلالة، فهو اسم يختص به سبحانه ويعني الذات الجامعة لكل الأوصاف الكمالية، والخالية من كل عيب ونقص. هذا الاسم المقدس تكرر ما يقارب من ألف مرة في القرآن الكريم، ولم يبلغه أي اسم من الأسماء المقدسة في مقدار تكراره. وهو اسم ينير القلب، ويبعث في الإنسان الطاقة والطمأنينة، ويغمر وجوده صفاء ونور.

(أَحَدٌ) من الواحدة، ولذلك قال بعضهم: أحد وواحد بمعنى واحد، وهو المتفرد الذي لا نظير له في العلم والقدرة والرحمانية والرحيمية، وفي كل الجهات.

وقيل: إنَّ بين (أحد) و (واحد) فرق هو إنَّ (أحد) تطلق على الذات التي لا تقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن، ولذلك لا تقبل العد ولا تدخل في زمرة الأعداد، خلافاً (للواحد) الذي له ثان وثالث، في الخارج أو في الذهن. ولذلك نقول: لم يأت أحد. للدلالة على عدم مجيء أي إنسان. وإذا قلنا: لم يأت واحد فمن الممكن أنْ يكون قد جاء اثنان أو أكثر .... فمعنى قوله: (الله أحد) أي المعبود الذي يأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته، فرد بإلهيته، متعال عن صفات خلقه.

ومن الرائع في هذا المجال ما جاء في كتاب التوحيد للصدوق: أنَّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول إنَّ الله واحد ؟

فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب (أي تشتت الخاطر) ؟ فقال: أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإنَّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم.

ثم قال: يا أعرابي، إنَّ القول في أنَّ الله واحد على أربعة أقسام. فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأنَّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال إنه ثالث ثلاثة ؟ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز (قوله على الله) لأنه تشبيه، وجل ربنا وتعالى عن ذلك.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربنا. وقول القائل: إنه عز وجل أحدي المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجودٍ ولا عقلٍ ولا وَهْمٍ، كذلك ربنا عز وجل. وباختصار: الله أحدٌ وواحدٌ لا بمعنى الواحد العددي أو النوعي أو الجنسي بل بمعنى الوحدة الذاتية.

بعبارة أوضح: وحدانيته تعني عدم وجود المثل والشبيه والنظير. والدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كل جهة، ومن المسلم أنه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كل جهة، إذ لو كان ثمة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، ولما كان لكل واحدة منهما كمالات الأخرى. (تأمل بدقة).

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾وهو وصف أخر لذاته المقدسة، وذكر المفسرون واللغويون معاني كثيرة لكلمة (صمد) منها:

أولاً: الراغب في المفردات يقول: الصمد هو السيد الذي يصمد إليه في الأمر، أي يقصد إليه.

ثانياً: قيل الصمد الذي ليس بأجوف.

ثالثاً: وفي معجم مقاييس اللغة، الصمد له أصلان: أحدهما القصد، والآخر: الصلابة في الشيء، والله جل ثناؤه الصمد، لأنه يصمد إليه عباده بالدعاء والطلب.

وقد يكون هذان الأصلان اللغويان هما أساس ما ذكر من معاني الصمد مثل: الكبير الذي هو في منتهى العظمة، ومن يقصد إليه الناس بحوائجهم، ومن لا يوجد أسمى منه، ومن هو باق بعد فناء الخلق.

وعن الإمام الحسين بن علي عليه السلام أنه ذكر لكلمة (صمد) خمسة معان هي:

١- الصمد: الذي لا جوف له.
٢- الصمد: الذي قد انتهى سؤدده (أي في غاية السؤدد).
٣- الصمد: الذي لا يأكل ولا يشرب.
٤- الصمد: الذي لا ينام.
٥- الصمد: الذي لم يزل ولا يزال.

وفي الرواية أنَّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلموا فيه بغير علم. فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وأنه سبحانه قد فسر الصمد فقال: الله أحد، الله الصمد، ثم فسره فقال: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وعن ابن الحنفية قال: قال علي عليه السلام تأويل الصمد: لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حد ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثُمة، ولا ملأ ولا خلأ، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلماني ولا نوراني، ولا روحاني ولا نفساني، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر قلب، ولا على شم رائحة، منفي عنه هذه الأشياء. فهذه الرواية توضح أنَّ (الصمد) له مفهوم واسع ينفي كل صفات المخلوقين عن

ساحته المقدسة، لأنَّ الأسماء المشخصة والمحدودة وكذلك الجسمية واللون والرائحة والمكان والسكون والحركة والكيفية والحد والحدود وأمثالها كلها من صفات الممكنات والمخلوقات، بل من أوصاف عالم المادة، والله سبحانه منزه منها جميعاً.

ولكن يجب أنْ لا ننسى المعنى الأصلي لكلمة (صمد) وهو السيد الذي يقصده الناس بحوائجهم، وهو كامل ومملوء من كل الجهات، وبقية المعاني والتفاسير الأخرى المذكورة للكلمة قد تعدو إلى نفس هذا المعنى. الآية التالية ترد على معتقدات اليهود والنصارى ومشركي العرب وتقول.

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ النصارى تعتقد أنَّ المسيح ابن الله، واليهود ذهبت إلى أنَّ العزير ابن الله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنَّ الملائكة بنات الله: ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ويستفاد من بعض الروايات أنَّ الولادة في قوله: (لم يلد ولم يولد) لها معنى واسع يشمل كل أنواع خروج الأشياء المادية واللطيفة منه، أو خروج ذاته المقدسة من أشياء مادية أو لطيفة.

وفي نفس الرسالة التي كتبها الإمام الحسين بن علي عليه السلام إلى أهل البصرة يجيبهم عن تساؤلهم بشأن معنى الصمد قال في تفسير (لم يلد ولم يولد): لم يلد لم يخرج منه شئ كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا يتشعب منه البداوات (الحالات المختلفة) كالسِّنَة والنوم، والخطرة والهم، والحزن والبهجة، والضحك والبكاء، والخوف والرجاء، والرغبة والسأمة، والجوع والشبع، تعالى أنْ يخرج منه شيء، وأنْ يتولد منه شيء كثيف أو لطيف، ولم يولد لم يتولد من شيء، ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، وكالنار من الحجر.

بناء على هذه الرواية فللتولد معنى واسع يشمل خروج وتفرع كل شيء من شيء، وهذا في الحقيقة المعنى الثاني للآية. ومعناها الأول هو المعنى الظاهر الذي ينفي أنْ يكون الباري سبحانه من أبٍ أو أنْ يكون له ابن أضف إلى ذلك إنَّ المعنى الثاني قابل للفهم عند تحليل المعنى الأول، لأنَّ الله سبحانه إنما لم يكن له ولد لأنه منزه عن عوارض المادة، وهذا المعنى يصدق بشأن سائر عوارض المادة الأخرى. ثم تبلغ الآية الأخيرة غاية الكمال في أوصاف الله تعالى.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي ليس له شبيه ومثل إطلاقاً. (الكفوْ) هو الكفء في المقام والمنزلة والقدر، ثم أطلقت الكلمة على كل شبيهٍ ومثيلٍ. استنادا إلى هذه الآية فالله سبحانه منزه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكل نقص ومحدودية. وهذا هو التوحيد الذاتي والصفاتي، مقابل التوحيد العددي والنوعي الذي جاء في بداية تفسير هذه السورة. من هنا فهو تبارك وتعالى لا شبيه له في ذاته، ولا نظير له في صفاته، ولا مثيل له في أفعاله، وهو متفرد لا نظير له من كل الجهات.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى خطب نهج البلاغة: لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً ولا كف ء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه. هذا التفسير الرائع يكشف عن أسمى معاني التوحيد وأدقها.

بحوث (١)

الأول / التوحيد

يعني وحدانية ذات الله تعالى ونفي أي شبيهٍ ومثيلٍ له. إضافة إلى الدليل النقلي المتمثل في النصوص الدينية ثمة دلائل عقلية كثيرة أيضاً تثبت ذلك، نذكر قسماً منها باختصار:

١ - **برهان صرف الوجود**: وملخصه أنَّ الله سبحانه وجود مطلق لا يحده قيد ولا شرط، ومثل هذا الوجود سيكون غير محدود دون شك، فلو كان محدوداً لمُنِيَ بالعدم، والذات المقدسة التي ينطلق منها الوجود لا يمكن أنْ يعترضها العدم والفناء، وليس في الخارج شيء يفرض عليه العدم، ولذلك لا يحده حد. من جهة أخرى لا يمكن تصور وجودين غير محدودين في العالم. إذ لو كان ثمة وجودان لكان كل واحد منهما فاقداً حتماً لكمالات الآخر، أي لا يملك كمالاته ومن هنا فكلاهما محدودان. وهذا دليل واضح على وحدانية ذات واجب الوجود (تأمل بدقة)

٢ - **البرهان العلمي**: عندما ننظر إلى الكون الذي يحيط بنا، نلاحظ في البداية موجودات متفرقة، الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات والحيوانات. وكلما ازددنا إمعاناً في النظر ألفينا مزيداً من الترابط والانسجام بين أجزاء هذا العالم وذراته، وظهر لنا أنه مجموعة واحدة تتحكم فيها جميعاً قوانين واحدة. ومهما تقدم العلم البشري اكتشف مزيداً من ظواهر وحدة أجزاء هذا العالم وانسجامها، حتى أنَّ ظاهرة بسيطة (مثل سقوط تفاحة من الشجرة) يؤدي إلى اكتشاف قانون عام يحكم كل أجزاء الكون، مثل قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن، فهذه الوحدة في نظام الوجود، والقوانين الحاكمة عليه، والانسجام التام بين أجزائه كلها ظواهر تشهد على وحدانية الخالق.

٣ - **برهان التمانع**: (الدليل العلمي الفلسفي) وهو دليل آخر على إثبات وحدانية الله، مستلهم من قوله سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ توضيح هذا الدليل جاء في المجلد ١٠ الصفحة ١٤٥ من هذا التفسير تحت عنوان (برهان التمانع) يراجع.

٤ - **دعوة الأنبياء إلى الله الواحد الأحد**: وهو دليل آخر على وحدانية الله، إذ لو كان هناك خالقان كل واحد منهما واجب الوجود في العالم، لاستلزم أنْ يكون كل واحد منهما منبعاً للفيض. فلا يمكن لوجود ذي كمال مطلق أنْ يبخل في الإفاضة لأنَّ عدم الفيض نقص بالنسبة للوجود الكامل، وحكمته تستوجب أنْ يشمل الجميع بفيضه. وهذا الفيض له نوعان: فيض تكويني (في عالم الخلقة)، وفيض تشريعي (في عالم الهداية). من هنا لو كان هناك آلهة متعددة لوجب أنْ يأتي مبعوثون منهم جميعاً، ليواصلوا فيضهم التشريعي إلى الناس. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول لابنه الحسن عليه السلام وهو يوصيه: واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه. هذه كلها دلائل وحدانية ذاته.

الثاني / فروع التوحيد

تذكر للتوحيد عادة أربعة فروع:

١ - **توحيد الذات**: (وهو ما شرحناه أعلاه).

٢ - **توحيد الصفات**: أي إنَّ صفاته لا تنفصل عن ذاته، ولا تنفصل عن بعضها. على سبيل المثال العلم والقدرة في الإنسان عارضان على ذاته. ذاته شئ، وعلمه وقدرته شئ آخر. كما إنَّ علمه وقدرته منفصلان عن بعضهما. مركز العلم

(١) قد يتبادر إلى الطالب إنَّ ذكر هذه البحوث العقائدية والفلسفية المطولة ينافي المنهج التفسيري القائم على الإيجاز والاختصار الموجود في هذه الصفحات ! نعم فالحقيقة كذلك ولكن لأهمية هذه البحوث وفائدتها في مراحل عدة آثرنا التفصيل فيها لتتم الفائدة. علماً أنها تدَرَّس لطلبة المرحلة الثانية.

روح الإنسان، ومركز قدرته الجسمية ذراعه وعضلاته. لكن صفات الله ليست زائدة على ذاته، وليست منفصلة عن بعضها. بل هو وجود كله علم، وكله قدرة، وكله أزلية وأبدية. ولو لم يكن ذلك لاستلزم التركيب، وإنْ كان مركباً لاحتاج إلى الأجزاء، والمحتاج لا يكون واجباً للوجود.

٣ – **التوحيد الأفعالي**: ويعني أنَّ كل وجود وكل حركة وكل فعل في العالم يعود إلى ذاته المقدسة، فهو مسبب الأسباب وعلة العلل. حتى الأفعال التي تصدر منا هي في أحد المعاني صادرة عنه. فهو الذي منحنا القدرة والاختيار وحرية الإرادة. ومع أننا نفعل الأفعال بأنفسنا، وأننا مسؤولون تجاهها. فالفاعل من جهة هو الله سبحانه لأنَّ كل ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثر في الوجود إلا الله).

٤ – **التوحيد في العبادة**: أي تجب عبادته وحده دون سواه، ولا يستحق العبادة غيره. لأنَّ العبادة يجب أنْ تكون لمن هو كمال مطلق. ومطلق الكمال لمن هو غني عن الآخرين، ولمن هو واهب النعم وخالق كل الموجودات، وهذه صفات لا تجتمع إلا في ذات الله سبحانه. لأنَّ الهدف الأصلي للعبادة هو الاقتراب من ذلك الكمال المطلق، والوجود اللامتناهي هو السعي لإنارة النفس بقبس من صفات كماله وجماله، وينتج عن ذلك الابتعاد عن الأهواء والشهوات والاتجاه نحو بناء النفس وتهذيبها. هذا الهدف لا يتحقق إلا بعبادة الله، وهو الكمال المطلق.

الثالث / التوحيد الأفعالي

توحيد الأفعال له بدوره فروع كثيرة نشير إلى ستة من أهمها:

١ – توحيد الخالقية. والقرآن الكريم يقول: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ودليله واضح، فحين ثبت بالأدلة السابقة أنَّ واجب الوجود واحد، وكل ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أنَّ خالق كل الموجودات واحد أيضاً.

٢ – توحيد الربوبية. أي إنَّ الله وحده هو مدبر العالم ومربيه ومنظمه. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ دليل ذلك أيضاً وحدة واجب الوجود، وتوحيد الخالق في عالم الكون.

٣ – التوحيد في التقنين والتشريع. يقول سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ لما ثبت أنه سبحانه هو المدبر والمدبر، فليس لأحد غيره حتماً صلاحية التقنين، إذ لا سهم لغيره في تدبير العالم كي يستطيع أنْ يضع قوانين منسجمة مع نظام التكوين.

٤ – التوحيد في المالكية. سواء (الملكية الحقيقية) أي السلطة التكوينية على الشيء، أم (الملكية الحقوقية) وهي السلطة القانونية على الشيء، فهي له سبحانه، كما يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ والدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالقية، وحين يكون هو سبحانه خالق كل شيء فهو مالك كل شيء أيضاً. فكل ملكية يجب أنْ تستمد وجودها من مالكيته.

٥ – توحيد الحاكمية. لابد للمجتمع البشري من حكومة، لأنَّ الحياة الاجتماعية تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومة أنْ تقسم المسؤوليات، وتنظم المشاريع، ويحال دون التعدي والتجاوز. ومن جهة أخرى مبدأ الحرية يقرر أنْ لا أحد له حق الحكومة على أحد، إلا إذا سمح بذلك المالك الأصلي والصاحب الحقيقي. من هنا فالإسلام يرفض كل حكومة لا تنتهي إلى الحكومة الإلهية ومن هنا أيضاً نرى شرعية الحكم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللأئمة المعصومين عليهم السلام ثم للفقيه الجامع للشرائط بعدهم.

٦ – توحيد الطاعة لله سبحانه. هو وحده واجب الإطاعة في هذا الكون، وهو تعالى مصدر مشروعية إطاعة غيره. أي إنَّ إطاعة غيره يجب أنْ تعد إطاعة له. دليل ذلك واضح أيضاً، حين تكون الحاكمية له دون سواه فيجب أنْ يكون هو المطاع دون غيره، ولذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن ينوب عنهم هي انعكاس عن طاعتنا لله. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾. ويقول سبحانه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾.

كل واحد من المواضيع المذكورة أعلاه تحتاج إلى شرح وتفصيل، ونحن نكتفي بهذه الخلاصة كي لا نخرج عن إطار هذا التفسير.

(سورة الفلق)

سورة الفلق (مكية) وعدد آياتها (خمس) آيات.

مباحث السورة / تتضمن السورة تعاليم للنبي ﷺ خاصة، وللناس عامة تقضي أنْ يستعيذوا بالله من شر كل الأشرار، وأنْ يوكلوا أمرهم إليه، ويأمنوا من كل شر في اللجوء إليه.

فضل تلاوتها / روي عن النبي ﷺ: أنزلت عليَّ آيات لم ينزل مثلهن: المعوذتان. وعنه ﷺ قال لأحد أصحابه: ألا أعلمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن ؟ قلت: بلى يا رسول الله. فعلمني المعوذتين ثم قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي اقرأهما كلما قمت ونمت. واضح أنَّ هذه الفضيلة نصيب من جعل روحه وعقيدته وعمله منسجماً مع محتوى السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و(الفلق) له معانٍ عدة منها:

أولاً: أي شق وفصل، وسمي طلوع الصبح بالفلق لأنَّ ضوء الصبح يشق ظلمة الليل، ومثله الفجر أطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

ثانياً: قيل إنَّ الفلق يعني ولادة كل الموجودات الحية، بشرية كانت أم حيوانية أم نباتية. فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حبتها أو بيضتها.

ثالثاً: قيل إنَّ الفلق له معنى واسع يشمل كل خلق، لأنَّ الخلق هو شق ستار العدم ليسطع نور الوجود. وكل واحد من هذه المعاني الثلاثة (طلوع الصبح –وولادة الموجودات الحية–وخلق كل موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة الباري والخالق والمدبر، ووصف الله بذلك له مفهوم عميق.

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي من كل موجود شرير من الإنس والجن والحيوان وحوادث الشر والنفس الأمارة بالسوء، وهذا لا يعني أنَّ الخلق الإلهي ينطوي في ذاته على شر، لأنَّ الخلق هو الإيجاد، والإيجاد خير محض.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾(غاسق) من الغسق، وهو –كما يقول الراغب في المفردات– شدة ظلمة الليل في منتصفه. ولذلك يقول القرآن الكريم في إشارته إلى نهاية وقت صلاة المغرب إلى غسق الليل. وأحد المفاهيم الملازمة لهذا المعنى الهجوم، ولذلك استعملت الكلمة في هذا المعنى أيضاً. غاسق تعني إذن في الآية الفرد المهاجم، أو الموجود الشرير الذي يتستر بظلام الليل لشن هجومه. فليست الحيوانات الوحشية والزواحف اللاسعة وحدها تنشط في الليل وتؤذي الآخرين بل الأفراد الشريرين يتخذون من الليل أيضا ستاراً لتنفيذ أهدافهم الخبيثة. (وقب) من الوقب وهو الحفرة، ثم استعمل الفعل (وقب) للدخول في الحفرة، وكأنَّ هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقق مقاصدها الخبيثة. وقد يكون الفعل يعني نفذ وتوغل.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ (النفاثات) من النفث وهو البصق القليل، ولما كان البصق مقرونا بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضاً. وكثير من المفسرين قالوا إنَّ (النفاثات) هي النساء الساحرات. وهي صيغة جمع للمؤنث ومبالغة من نفث، وهذه النسوة كُنَّ يقرأن الأوراد وينفخن في عقد، وبذلك يعملن السحر. وقيل: إنها إشارة للنساء اللاتي كُنَّ يوسوسن في أذن الرجال وخاصة الأزواج ليثنوهم عن عزمهم وليوهنوا إرادتهم في أداء المهام الكبرى .... ولا يستبعد أنْ تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كل أولئك ويشمل أيضاً النمامين والذين يهدمون بنيان المحبة بين الأفراد.

وينبغي التأكيد على أنَّ السورة لا تتضمن أية دلالة على أنَّ المقصود بآياتها سحر الساحرين، وعلى فرض أنها تشير إلى سحر الساحرين، فإنها لا تشكل دليلاً على صحة سبب النزول الذي ذكره المفسرون للسورة، بل تدل على أنَّ النبي ﷺ استعاذ بالله من شر الساحرين. تماماً مثل الفرد السالم الذي يستعيذ بالله من السرطان وهو لم يصب به أصلاً.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ هذه الآية تبين أن الحسد أسوأ الصفات الرذيلة وأحطها، لأنَّ القرآن وضعه في مستوى أعمال الحيوانات المتوحشة والثعابين اللاسعة والشياطين الماكرة.

شر الحاسدين

الحسد وهو يعني طلب وتمني زوال النعمة من شخص آخر، وهو خصلة سيئة شيطانية تظهر في الإنسان نتيجة عوامل مختلفة مثل ضعف الإيمان، وضيق النظر، والبخل.

والحسد منبع كثير من الذنوب الكبيرة، فقد ورد عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: إنَّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: آفة الدين الحسد والعجب والفخر. ذلك لأنَّ الحسود يعترض في الواقع على حكمة الله وعلى ما آتَ الله من نعمة لهذا الفرد أو ذاك. كما يقول سبحانه:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وقد يبلغ الحسد بالحاسد إلى أنْ يوقع نفسه في كل تهلكة من أجل زوال النعمة من الشخص المحسود، كما هو معروف في حوادث التاريخ، وفي ذم الحسد يكفي أنَّ أول قتل حدث في العالم كان من قابيل على أثر حسده لأخيه هابيل. والحساد كانوا دوماً عقبة على طريق الأنبياء والأولياء، ولذلك يأمر الله نبيه أنْ يستعيذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد، فالمخاطب في هذه السورة والسورة التالية شخص رسول الله ﷺ ولكنه خوطب لأنه القدوة والنموذج، وكل المسلمين يجب أنْ يستعيذوا بالله من شر الحاسدين.

(سورة الناس)

سورة الناس (مكية) وعدد آياتها (ست) آيات.

مباحث السورة / هذه السورة تأمر النبي ﷺ باعتباره القدوة والأسوة أنْ يستعيذ بالله من شر الموسوسين. محتوى هذه السورة شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهما يدوران حول الاستعاذة بالله من الشرور والآفات.

فضل تلاوتها / روي عن الإمام الباقر عليه السلام: من أوتر بالمعوذتين وقل هو الله أحد قيل له: يا عبد الله ابشر فقد قبل الله وترك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

التفسير

في هذه السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ باعتباره الأسوة والقدوة، ويلاحظ أنَّ الآيات ركزت على ثلاث من صفات الله سبحانه هي (الربوبية والمالكية والألوهية) وترتبط كلها ارتباطاً مباشراً بتربية الإنسان ونجاته من براثن الموسوسين، فالمقصود من الاستعاذة بالله ليس طبعاً ترديد الاستعاذة باللسان فقط، بل على الإنسان أنْ يلجأ إليه جل وعلا في الفكر والعقيدة والعمل أيضاً، مبتعداً عن الطرق الشيطانية والأفكار المضللة الشيطانية. وعلى المستعيذ الحقيقي أنْ يقرن قوله (رب الناس) بالاعتراف بربوبية الله تعالى، وبالانضواء تحت تربيته، وأنْ يقرن قوله (ملك الناس) بالخضوع لمالكيته، وبالطاعة التامة لأوامره، وأنْ يقرن قوله (إله الناس) بالسير على طريق عبوديته، وتجنب عبادة غيره. ومن كان مؤمناً بهذه الصفات الثلاث، وجعل سلوكه منطلقاً من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون في مأمن من شر الموسوسين.

كلمة (الوسواس) أصلها -كما يقول الراغب في المفردات- صوت الحلي (اصطكاك حلية بحلية) ثم اطلق على أي صوت خافت، ثم على ما يخطر في القلب من أفكار وتصورات سيئة، لأنها تشبه الصوت الباهت الذي يوشوش في الأذن.

و(الوسواس) بمعنى الموسوس. و(الخناس) صيغة مبالغة من الخنوس وهو التراجع، لأنَّ الشياطين تتراجع عند ذكر اسم الله، والخنوس له معنى الاختفاء أيضاً، لأنَّ التراجع يعقبه الاختفاء عادة.

فقوله سبحانه (من شر الوسواس الخناس) أي أعوذ بالله من شر الموسوس ذي الصفة الشيطانية الذي يهرب ويختفي من ذكر اسم الله. إنَّ عمل الشيطان هو التزيين، وإخفاء الباطل تحت طلاء الحق، والكذب في قشر من الصداق والذنب في لباس العبادة، والضلال خلف ستار الهداية.

وبإيجاز الموسوسون متسترون وطرقهم خفية، وفي هذا تحذير لكل سالكي طريق الله أنْ لا يتوقعوا رؤية الشياطين في صورتهم الأصلية، أو رؤية مسلكهم على شكله المنحرف. وجملة (من الجنة والناس) تنبيه على حقيقة هامة هي إنَّ الوسواس الخناس لا ينحصر وجوده في مجموعة معينة، ولا في فئة خاصة، بل هو موجود في الجن والإنس، في كل جماعة وفي كل ملبس، فلا بد من الحذر منه أينما كان، والاستعاذة بالله منه في كل أشكاله وصوره. فمنه أصدقاء السوء، والجلساء المنحرفون، وأئمة الظلم والضلال، والولاة الجبابرة الطواغيت، والكتاب والخطباء الفاسدون ....

المصـــادر

- القرآن الكريم.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ط١، ١٤٢٦هـ، مط سليمان زاده، الناشر مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
- البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، مط العمال المركزية، بغداد، ١٤١٠هـ١٩٨٩م.
- التفسير والمفسرون، الشيخ محمد هادي معرفة، ط٢، مط الأستانة الرضوية، الناشر الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية.
- الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، الناشر دار الرسالة، الكويت، ١٤٠٣هـ١٩٨٣.
- تفسير الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ط٢، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٥هـ١٩٩٥م.
- المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ط٢، مط شريعت، قم، ١٤٢٤هـ.
- مفاهيم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، ط٣، ١٤٢٥هـ، مط اعتماد، قم، الناشر مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
- منهاج الصالحين، السيد أبو القاسم الخوئي
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، ط٣، مط الديواني، بغداد، ١٤٠٩هـ١٩٨٩م.
- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ط٢، ١٤١٦هـ، مط دار الحديث، الناشر دار الحديث.
- الإعجاز القرآني الخالد، عماد الكاظمي، ط١، ١٤٢٩هـ٢٠٠٩م، الناشر جمعية أبو طالب (ع) الخيرية / القسم الثقافي.

الفهرست

مقدمات تفسيرية	٥
سورة النبأ	١٧
علاقة الآيات بالمعاد	٢٥
سورة النازعات	٢٦
القسم في القرآن	٢٦
اتباع الهوى وأثره على النفس	٣٠
سورة عبس	٣٢
سورة التكوير	٣٤
الصفات التي ينبغي توفرها في الرسول	٣٧
المرأة في الإسلام	٣٨
سورة الانفطار	٣٩
ما يخلفه الإنسان بعد موته	٤١
سورة المطففين	٤٢
التطفيف من عوامل الإفساد في الأرض	٤٧
سورة الانشقاق	٤٨
سورة البروج	٥٣
سورة الطارق	٥٦
سورة الأعلى	٥٩
التقدير والهداية العامة للموجودات	٦٠
أسس دعوة الأنبياء	٦٣
الآخرة والاستعداد لها	٦٤
سورة الغاشية	٦٥
آيات الله في خلقه (الإبل)	٧٠
سورة الفجر	٧١
إمهال الظالمين والانتقام منهم	٧٣
موقف الإنسان من تحصيل	٧٥
سورة البلد	٧٨
سورة الشمس	٨١
سورة الليل	٨٥

سورة الضحى	٨٧
القيادة المنطلقة من المعاناة والآلام	٩٠
إكرام اليتيم والاهتمام به	٩٠
سورة الشرح	٩١
سورة التين	٩٤
سورة العلق	٩٦
سورة القدر	٩٩
ما هي الأمور التي تقدر في ليلة القدر	١٠٠
أية آية هي ليلة القدر	١٠١
لماذا خفيت ليلة القدر	١٠٢
نزول القرآن الكريم	١٠٢
سورة البينة	١٠٣
أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وشيعته خير البرية	١٠٣
إخلاص النية في العبادة	١٠٤
سورة الزلزلة	١٠٦
التكفير عن الذنوب	١٠٦
سورة العاديات	١٠٧
ارتباط هذه الأقسام بأهدافها	١٠٩
هل الإنسان كنود بطبيعته	١١٠
عظمة الجهاد	١١٠
سورة القارعة	١١١
ثقل ميزان الأعمال	١١٢
سورة التكاثر	١١٣
اليقين ومراحله	١١٤
سورة العصر	١١٥
منهج السعادة	١١٦
الإيمان والعمل الصالح	١١٧
سورة الهمزة	١١٨
الكبر والغرور أساس الذنوب الكبيرة	١١٩
سورة الفيل	١٢٠

أهداف قصة الفيل من السورة التالية (سورة لإيلاف)	١٢١
سورة قريش	١٢٢
سورة الماعون	١٢٤
الرياء وأثره على النفس الإنسانية	١٢٥
سورة الكوثر	١٢٦
فاطمة الزهراء (عليها السلام) والكوثر	١٢٧
سورة الكافرون	١٢٨
سورة النصر	١٢٩
سورة تبت	١٣٠
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوة قرابته	١٣٠
سورة التوحيد	١٣١
بحث ١- التوحيد	١٣٤
٢- فروع التوحيد	١٣٤
٣- التوحيد الأفعالي	١٣٥
سورة الفلق	١٣٦
شر الحاسدين	١٣٧
سورة الناس	١٣٨
المصادر	١٣٩
الفهرست	١٤٠

الموجز من تفسير الأمثال